# ذكريات

# على درب الكفاح والهزيمة



ذكريات على درب الكفاح والهزيمة

رياض المالكي

# ذكريات

# على درب الكفاح والهزيمة

رياض المالكي

مطبعة الثبات ـ دمشق

# الاهـــداء

الى ذاك الاعرابي الـــذي تصدى للفاروق عمر بن الخطاب ، وهو أمير المؤمنين ، لا يشك في عدله ومثالية حكمه أحد ، مثنياً ومنبهاً بقوله : « والله يا عمر ، انا لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » ...

والى أولئك المحامين ، الذيـــن هبوا بشجاعة ، في وجه طاغيـــة مستبد ، يلقنونه درســـاً في معنى الحرية ، عندما اعتقل زملاء لهـــم أحراراً ، ومن بينهم كاتب هـــذه الكلمـــات ..

والى كل عربـــي يكـــافح بجرأة وثبات في سبيل مجابهة الاستبداد ، وتقويم الانحراف ، ومحاربة الطغيان ومقارعة الاعداء ، في أي زمـــان ، وعلى أيـــة بقعـــة من تراب هـــذا الوطن ..

## المقدمة

**« أوصيك أن تخشى الله في الناس ، ولا تخشى الناس في الله .. »**

« عمر بن الخطاب »

أنا لا أطمح لتدوين وقائع التاريخ ؛ وليست رغبتي في أن أكون ناقدا سياسيا أو اجتماعيا . واني لم أخرج في يوم من الايام في تفكيري ، وفي نشاطي ، وفي شتى الميادين النقابية والحزبية والسياسية، عن كوني مواطنا حرا ، يفضل دائما أن يبقى في صفوف مواطنيه ، جنديا عاديا ، يكافح بعناد من أجل نصرة الحق أو ما يعتقد أنه الحق؛ لا يتوانى عن السير وراء قيادة من يعتقد فيهم الصدق والاخلاص ، يؤيد خطواتهم الصائبة ، ويساند مواقفهم السليمة ؛ فاذا بدا له أي انحراف أو اعوجاج ، في خط سيرهم ، أو ساوره بعض من شك ، في نواياهم ، واخلاصهم ، بادرهم بالنصح ، برفق وترو ؛ حتى اذا ما لمس منهم تماديا في الانحراف ، واصرارا على الغي ، رفع عقيرته في مواجهتهم بالنقد الصريح ، وجاهر في مجابهتهم بأخطائهم وعيوبهم، دون مداهنة أو مهادنة ..

كلنا في الحقيقة بشر ، وليس فينا ملائكة أطهار ؛ ولكل منا في الواقع مساوئه وهفواته ؛ وليس منا من هو معصوم عن الخطأ ، حتى يملك حق الوصاية المطلقة على الشعب . فقد انقضى ، من زمن بعيد ، عهد الملوك والاباطرة الذين كانوا يدعون استمداد سلطانهم

من العناية الالهية ، ويزعمون لأنفسهم الحصانة المطلقة ضد الخطأ والمسؤولية والحساب •

ونحن اليوم ، في عصر الديمقراطيات ، حيث يجب أن تبقى الكلمة الاولى والاخيرة للشعب ، بجماهيره الواسعة ، وصفوفه العريضة ، لا تعلو على كلمته كلمة ، ولا تربو فوق سيادته سيادة ؛ وحيث يفترض فيمن يتصدى للعمل العام ، أن ينزه نفسه عن الهوى ، ويحصن ذاته ضد الغرور ، ويصون خطواته من الزلل ، ويحمي سلوكه من الشطط ؛ وحيث يشترط فيمن ينبري لحمل أعباء القيادة ، أن لا يجعل من قيادته حكرا ، وأن يدع الفرصة الكاملة ، لسائر المواطنين ، للمشاركة الوجدانية والفعلية ، في معالجة قضاياهم العامة ، في جو تام من الحرية والديمقراطية ، وفق مبادىء دستورية مقننة ، يسنها الشعب بكافة أبنائه ، وهم أصحاب السيادة والسلطة الحقيقيون ، وعليهم يقع واجب ممارسة الرقابة الصارمة على سير أمورهم العامة ، وقضاياهم الوطنية ؛ حتى اذا بدا لهم اعوجاج في سلوك قادتهم ، أو انحراف في سيرة ممثليهم ، لم يتوانوا عن التصدي لهم ، بجرأة وثبات ، مقتفين أثر ذاك الاعرابي الحر الذي لم يحجم عن مخاطبة الفاروق عمر ، مؤكدا على حق المواطنين المطلق بتقويم الاعوجاج في أشخاص الحكام ، مهما سمت منزلتهم ، وبتصحيح الانحراف في سير الامور العامة ، أيا كان مصدره ، حتى ولو اقتضاهم الحال استعمال القوة •

والفصول المدونة في هذا الكتاب ، هي بعض من ذكريات وطيف من خواطر ، تنساب في مخيلتي ، كل وقت وحين ، وكأنها شريط سينمائي مفزع يعكس بعض ما عاناه المواطن ، وما قاساه شعبنا في القطر العربي السوري ، خلال حقبة من الزمن ، ابتدأت منذ أن أعلن في فجر الثلاثين من شهر آذار ( مارس ) عام ١٩٤٩ ، من اذاعة دمشق ،

البلاغ العسكري رقم ( ١ ) ، ونعى فيه الناعي النظام الدستوري في بلدنا ، حديث العهد بالاستقلال •

وقد مني شعبنا ، خلال المرحلة التي تلت ذلك الحدث الخطير ، بهزيمة مصطنعة ألصقت به ، وما زالت مسؤوليتها ، وستظل ، ملتصقة بوجدان كل من أسهم ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، بتهيئة الاسباب التي أدت لالحاقها بالوطن ، ليتحمل أبناؤه البؤساء ، الفقراء منهم قبل الاغنياء ، والبسطاء قبل المثقفين ، والمدنيون قبل العسكريين ، عبء المأساة ، وآثار الكارثة ، التي ما كانت لتحل ببني قومنا جميعا ، لولا الهنات الخطيرة التي وجدها العدو في نفوسنا ، ولولا الثغرات العميقة التي اكتشفها في صفوفنا •

والصحائف التالية ، ان هي الا محاولة صادقة ومتواضعة ، للتنقيب عن بعض تلك الهنات ، وللكشف عن أخطر الثغرات التي كانت سبيل العدو للتسلل الى بلادنا ، وقهرنا في عقر دارنا •

وما الحافز لنشر الوقائع التي سردتها ، وتعرضت فيها لبعض النماذج من المسؤولين — كبارا وصغارا — هو الرغبة في التشهير بأسمائهم ، أو التشفي من أشخاصهم ، أو محاسبتهم عن أخطائهم ، فالشعب هو ، وحده ، صاحب الحق في اجراء الحساب ، وفرض العقاب ؛ وهو المرجع الاول والاخير ، واليه المحتكم في مراجعة تلك الاخطاء التي وصل بعضها الى درجة الجريمة ، وبلغ بعضها مرتبة الخيانة العظمى •

واني أقدر سلفا أن هؤلاء سيغضبون لما خطه قلمي حولهم من حقائق أكثر من غضبهم لهزيمة أمتهم ، وسيتأثرون من نشر هذه الكلمات أكثر من تأثرهم لما اجترحوه بحق شعبهم من آثام وجرائم•

واذا كان الكثير من تلك الجرائم قد تلاشى بمرور الزمن ،

وسقطت المسؤولية عنه بالتقادم ، فان التاريخ الديان هو القمين بانصاف المحسن وادانة المسيء .

والقصد الوحيد من سرد هذه السير كلها ، وهي غيض من فيض ، هو السعي لاستخلاص الدروس ، واستنباط العبر ، من الماضي القريب ، وأحداثه الممضة ، علّ فيها فائدة ترجى ، لأبناء وطننا ، ومستقبل أجيالنا ، خلال مسيرة الكفاح الشاق المرير الذي لابد من مواصلته ، بعزم وثبات ، حتى يتحقق لأمتنا النصر المبين .

دمشق ، صيف عام ١٩٧١ .

**« رياض المالكي »**

# ١

## البيت الابوي

والسيف مالم تعر شفرته عبء ولا يغنيك في أمر

« عدنان مردم بك »

رأت عيناي النور لأول مرة ، في مطلع عام ١٩٢٢ .

ولا أدري اذا كان قدومي الى الدنيا لاقى ترحيبا كافيا في محيط الاسرة ، ذلك لأني كنت القادم الثامن بين اخوتي وأخواتي .

وما زالت والدتي ، بالرغم من انقضاء نصف قرن على ذلك الوقت ، تردد على مسمعي أنها عانت من حملها بي وولادتي ، أكثر مما تعبت بسائر أولادها التسعة الآخرين . وهي تعزو ذلك الى مراسي الصعب ، و « رأسي اليابس » ...

كان أول حادث هام في طفولتي ، هو اصابتي بحمى التيفوئيد، عندما كنت في الرابعة من عمري . وكانت معالجة مثل هذا المرض الوبيل ، صعبة ، في ذلك الزمن ، وكانت تستغرق وقتا طويلا . وغالبا

ما كانت الاصابة به ، تخلف عاهـة في الجسم أو الحواس • وقـد أورثني ، بعد أن برئت منه ، تعثرا في النطق ، تمكنت من التغلب عليه، بقوة ارادتي ، وبجدي واجتهادي ، في مراحل دراستي •

★ ★ ★

كان أبي مزارعا ••

أحب الارض منذ صغره ، والتحق بعمله الزراعي في وقت مبكر، يوم أن كان فتى يافعا لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره • وقد عاش يتيما ، اذ كان لم يبلغ السنة بعد ، عندما قضى جدي نحبه ، تاركا لجدتي وأولاده منها ومن زوجته الاولى ، ارثا متواضعا من الارض، في قرية الافتريس القريبة من دمشق ، والواقعة في الغوطة الشرقية•

وكان لأبي شقيقان انخرطا في السلك العسكري كضابطين في الجيش العثماني ؛ وقد احتل أحدهما رتبة عالية •

كما كان له اخوة من أبيه ، تطوع أحدهم ، يوسف ، للخدمة في الجيش كضابط أيضا • ويروى عن هذا الضابط ، أنه كان فارع الطول ، عريض المنكبين ، ذا بأس وشجاعة خارقين ؛ وكانوا يلقبونه بالفارس العملاق • وقد ساهم في حروب البلقان ، وأبلى مع جنوده البواسل بلاء حسنا ، وحقق لجيشه انتصارات باهرة ، أكسبته ترفيعا استثنائيا وأوسمة رفيعة • وقد نقل بعدئذ مع قطعته العسكرية الى الآستانة ، للراحة والاستجمام • ولكن سوء طالعه جمعه ، صدفة ، في أحد مقاهي العاصمة التركية ، ببعض الضباط الاتراك الحاسدين• وكانت بوادر الخلاف ، وقتئذ قد بدأت تلوح في الافق ، بين العرب والاتراك •• تحرش به بعض أولئك الضباط وصرفوا بعض العبارات المهينة بحق العرب ، ولكنه أغضى عنهم تفاديا للاصطدام ؛ فما كان

من أحدهم ، الا وأن اقترب منه ، وسأله متحديا : « جانم •• ألا تسمع ؟ أم أنك ، مثل سائر العرب ، جبان ؟ •• » فلم يسكت عمي عن التحدي ؛ نهض منتضيا حسامه ، ودعا زميله التركي للمبارزة • فما كاد الضابط التركي يستل سيفه من غمده ، ويستعد للنزال ، حتى كانت ضربة خاطفة من المهند العربي ، كافية لقطعه من جزعه الى نصفين ، أمسك المبارز المنتصر بشعر الرأس منهما ، وألقاه في الشارع، وألحق به النصف الثاني ، وعاد الى مكانه ، متكئا على سيفه البتار، وهو يقطر دما ، وجلس على مقعده ، يدخن « أركيلته » وكأن شيئا لم يكن ••

جرى ذلك الحادث المذهل ، على مرأى من رواد المقهى ، مدنيين وعسكريين ؛ وقد أفزعهم المشهد ، فلاذ معظمهم بالفرار ؛ بينما استنجد البعض بالشرطة العسكرية • وعندما قدمت مفرزة منها ، تريد القاء القبض على الضابط العربي ، تريث أفرادها ، أمام منظر ذلك المقاتل المرعب الذي كان الشرر يتطاير من عينيه • واستعانت القيادة بقائد الفرقة ، رئيسه الاعلى ، فأتى اليه بنفسه ، ودعاه برفق لمرافقته الى مقر القيادة •

وكان القصاص بأن أقصي عمي عن العاصمة التركية ، وألحق بقطعة كانت تحارب في خطوط النار الامامية • ومن هنالك ، ورد الخبر الى زوجته بأنه قتل ؛ وهي لم تعلم في الحقيقة ، ان كان مصرعه قد تم على يد الجنود الاتراك ، أم القناصة الاعداء •

★ ★ ★

وفي دمشق ذاتها ، وفي قرية لا تبعد عنها كثيرا ، تسمى بحوش الاشعري ، حيث مثوى الصحابي الشهير ، أبي موسى الاشعري ،

كان يرابط فارس من نمط آخر ؛ وهو أحد أبناء عم والدي ، واسمه ابراهيم ، وكانوا يلقبونه « برو أفندي » ..

كان انسانا تضرب بشجاعته الامثال ، رغم أنه كان قصير القامة، لا تملأ النظرة اليه العين . كان يحتل مركز الصدارة في محيطه ، يلتف حوله أنصاره الكثيرون وهم مدججون بالسلاح ، ويشكلون بقيادته قوة لا يستهان بها . وكانت السلطات التركية تحسب له ألف حساب، وتسعى لكسب وده ومحالفته ؛ تارة تتوتر علاقاته معها ، فيتمرد عليها ، خاصة اذا ما التجأ اليه ، واحتمى في مزرعته ، بعض الوطنيين الجارية ملاحقتهم من قبل رجال الضابطة الاتراك ؛ وتارة يسود الوئام بينه وبينها ، فتعتمده لمساعدتها في اخضاع من تعجز عن مطاردتهم من الاشقياء المجرمين .

نزعة فروسية متأصلة في نفوس معظم أبناء الاسرة ، يأبون الضيم ، ويحاربون الظلم ، ويهبون لنصرة الحق ، والدفاع عن الكرامة ، وان كان معظمهم يولون اهتمامهم باتجاه العلم والفقه ؛ فكان منهم العلماء والفقهاء . وقد تولى بعضهم منصب الافتاء في مدينة دمشق ، كيوسف المالكي الذي نصب مفتيا قبل أكثر من مائتي عام ، وهو جد والدي ، وقد انتقل اليه هذا المنصب بعد وفاة أخيه أسعد المالكي ، وكان يشغله قبله .



يروى عن أحدهم ، أحمد المالكي ، أنه عاش في عصر الوزير ابراهيم باشا المصري ، وعين عضوا في مجلس الشورى المحدث آنذاك . وعندما تفاقمت النقمة ، وعم الاستياء الربوع السورية ، بسبب السياسة التي انتهجها قائد الحملة المصرية ، عمد هذا القائد ، الالباني

الاصل ، الى فرض جو من الارهاب ، وبدأ بالتنكيل بمعارضي سياسته من السوريين • وفي العاصمة السورية ، أمر ابراهيم باشا بقطع رقاب عدد من وجهاء المدينة وأعيانها ، وكان بعضهم من آل الحسيبي ، وآل المهايني ، وآل الكزبري • كان يأمر الجلادين بالقاء رؤوسهم ، من بعد بترها عن أجسادهم بحضوره ، في بحرة واسعة في الدار التي كانت مقرا له في حي الشاغور ، نزلة حمام القاضي ، ليتلذذ بمنظر الجماجم تتقاذفها المياه المتدفقة في البحرة والمصبوغة بدماء الدمشقيين•

وقد تصدى السيد أحمد المالكي للفاتح المصري في مجلسه ، وانتقد تصرفه الجائر بحق أبناء البلد الهادىء الامين ؛ فما كان من الطاغية السفاح ، الا أن استشاط غضبا ، وثارت حفيظته ضد القاضي الجسور • ولكن التفاف الاهلين حول ممثلهم في مجلس الشورى ، حال دون انفاذ الامر برأسه والحاقه بباقي الرؤوس الطافية على سطح البحرة الدامية •

★ ★ ★

من الارض الطيبة ، استقى والدي كثيرا من الصفات • أعطاها جهده ، فقابلته بخيراتها • كانت ، كلما جد في عمله ، تجود عليه بأكثر؛ وان كانت الطبيعة تقسو أحيانا ، فتحرمه من ثمرات تعبه ، وذلك عندما تتسلل موجات الصقيع الربيعية ، لتتلف الازهار والثمار وهي غضة ، أو لتقضي على براعم الكرمة ، وعندما تهب لفحات الجو الحار مبكرة لتخنق سنابل القمح والشعير قبل نضجها ، أو عندما تأتي أرجال الجراد لتقضي على الاخضر واليابس •

لقد تعلم من الارض الامانة والاستقامة ، كما وسمته الطبيعة بالقسوة والصلابة •



حدثني السيد موسى غناجة ، وهو تاجر دمشقي ثري كان يتعاطى مهنة الصيرفة ، بعد وفاة والدي ، قائلا : « لو وجدت بين المسلمين كثيرين مثل أبيك لارتضيت الاسلام لي دينا •• » وأوضح لي كلامه قائلا : « قصدني والدك ابان الثورة السورية في بدء الاحتلال وبعد أن حرقت المدافع الفرنسية أرزاقه مع أرزاق الكثيرين من المزارعين في غوطة دمشق ، انتقاما منهم لمساعدة الثوار ، وطلب مني اقراضه مبلغا من المال ؛ وكان التعامل آنذاك بالليرات الذهبية العثمانية • ولكن نظرا لاضطراب الاحوال السياسية ، اشترطت كتابة السند بالليرات المصرية ، اعتقادا مني بأن مركز هذه العملة هو أقوى ، فوافق والدك على ذلك • ولكن لم تمض فترة قصيرة ، الا وهبطت قيمة العملة المصرية هبوطا محسوسا ، فقطع والدك عمله في القرية ، عند بلوغه الخبر ، وأتى الى داري ، سائلا عني ؛ فتهربت منه ، خشية أن يكون قد أحضر لي قيمة الدين بالليرات المصرية • ولكنه ترك لي خبرا بأنه سيعود ، في صباح اليوم التالي ، لابدال السند المحرر منه • ولما عاد في الموعد الذي حدده ، استقبلته في داري ، فأصرّ على تحرير سند جديد بالليرات العثمانية التي كان قبضها مني • وفي موعد الاستحقاق دفع لي المبلغ كاملا مع الفائدة المتفق عليها • ولما أردت مكافأته على جميله بحسم مقدار الفائدة ، رفض بإباء ، مؤكدا أن ما فعله هو الواجب » •



وكانت استقامته هذه ، مع خبرته الواسعة التي اكتسبها من عمله الزراعي ، جعلته مرجعا لفض منازعات الاهلين الذين كانوا يسعون اليه ، من كل حدب وصوب ، لمساعدتهم في حل مشاكلهم • كما أن المحاكم كانت تعتمده غالبا ، للاستفادة من خبرته ، في ما كان

يتعذر عليها حله من القضايا الزراعية العويصة المعروضة عليها ؛ وكان والدي يقدم مثل هذه الخبرة تبرعا • قصده مرة المدير العام للاوقاف راجيا موافقته على اختياره خبيرا في قضية هامة معروضة على المحكمة الاجنبية ، تتعلق بعقارات غالية عائــدة لوقف مشــهور « بــوقف العثمانية » كائن في مدينة حلب • وبعد الحاح شديد من المدير العام، قبل والدي أداء المهمة • وعندما حضر الى المحكمة ، لاحظ رئيسها أن والدي لا يتكلم اللغة الفرنسية ؛ فأظهر تأففــه من اختيار ادارة الوقف لخبير لا يعرف لغة التخاطب أمام المحاكم الاجنبية • فلمــا لاحظ والدي تبرم القاضي من لهجته ، واستوضح عن سبب ذلك ، نعت رئيس المحكمة صراحة وعلنا بعدم الحكمة وقلة الفهم ، سائلا اياه : « هل يظن سيادة القاضي أننا واقفون على أرض فرنسية ؟ •• أم أن الخبرة المطلوبة في الدعوى تتعلق بعلم اللغة الفرنسية وآدابها لا بنزاع حول الارض المختلف عليها ؟ » •

وبالرغم من أنها كانت أول زيارة ، من والدي ، لأراض زراعية في حلب ، فقد توصل من دون باقي الخبراء الآخرين الذين كان أحدهم فرنسيا والثاني مهندسا لبنانيا ، الى كشف التلاعب الخطير الذي أجراه خصوم ادارة الاوقاف لتغيير تخوم الارض محل الخلاف ، بقصد هضم حقوق الوقف ؛ فدهش القاضي الفرنسي من نباهة الخبير الدمشقي ، وأقبل عليه معتذرا عما بدر منه من سوء تقدير •



ذهبت مــرة صحبة والدي لعيــادة أخي الذي كان يعــالج في المستشفى العسكري من مرض ألم به ، فلما دخلنا الى غرفته وجدنــا عنده ضابطا فرنسيا ، يحمل رتبة كبيرة ، وكان هــو الآخر نزيــل المستشفى ، فعرّفه أخي علينا ؛ ولكن الضابط لم يسكت بعد أدائه

التحية ولا لحظة ، وانسحب الى غرفته المجاورة ، ولم يعد الا بعد ذهاب والدي ، حيث بقيت أنا قرب أخي ، الذي سأل الضابط الفرنسي : « لماذا لم تبق معنا ولو قليلا ؟ •• » وأجاب الضابط الفرنسي : « هل تريد الصراحة ؟ ، انني خفت من نظرة أبيك الحادة ، والحق يقال انني لم أشاهد في حياتي انسانا له نظرات مثله تبعث في النفس الهيبة والهلع » •• ولما رويت القصة فيما بعد لزميلي الدكتور أسعد المحاسني ، أكد لي نفس الانطباع الذي يحمله عن نظرات والدي الحادة • وكثيرون من الاهل والاصدقاء كان يتملكهم شعور الهيبة لدى مقابلته رغم ما كان يتحلى به من بشاشة دائمة وطيب معشر مع الناس •

★ ★ ★

كان والدي صارماً جداً في معاملته لنا ، وبالرغم من سعيه الدؤوب لتأمين جميع حاجاتنا وطلباتنا ، كنا دائما نخشى غضبه ونسعى لكسب رضاه ، وكنا رغم غيابه عن البيت معظم أيام الأسبوع في عمله الزراعي الشاق ، نحسب له كبير حساب • وكانت والدتي ، بما حباها الله من رقة ووداعة ، تعوض علينا ، بقلبها الطيب وحنانها الزائد ، ما كان يحرمنا منه والدنا من عطف ، وكانت هي واسطتنا لنيل ما نحتاجه منه من مطالب لا حدود لها ، رغم سعينا لعدم الاكثار منها ، خاصة عندما تكون الظروف الاقتصادية سيئة •

★ ★ ★

وكانت لوالدي ، رغم عدم اهتمامه بممارسة السياسة ، ممارسة يومية ، مواقف كنا نعتز بها ، وآراء لم نكن دائما لنقتنع منه بها أو نؤيده فيها •

في يوم ميسلون لم يكتف والدي بحمل السلاح بنفسه بل أخذ معه ابنه البكر فؤاد الذي كان آنئذ لا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، والتحقا بالقوات التي توجهت لمقاتلة العدو ، بقيادة وزير الحربية الذي كان يقطن في نفس الشارع الذي تقع فيه دارنا في حي المهاجرين الجادة الثالثة .

ولكن لم يكد المتطوعان – الاب والابن – يصلان الى مكان المعركة ، حتى كان الجيش العربي الصغير قد اندحر أمام تفوق الجيش الفرنسي بالعدد والعتاد . وقد أسفر القتال القصير الذي دار في أرض المعركة ، عن استشهاد وزير الحربية القائد البطل يوسف العظمة وقد آثر أن يدخل الجيش الغازي على جسده حتى لا ترى عيناه مأساة احتلال أرض وطنه .

وابان الثورة السورية ، لم يأل والدي جهدا في دعم الثوار بالمال والسلاح والمؤن ، رغم الخسائر الكبيرة التي حلت به من جراء احراق القوات الفرنسية للمحاصيل الزراعية في قريته انتقاما من أصحابها الذين كانوا يمدون الثوار بالمساعدات على اختلاف أنواعها.

★ ★ ★

وقد اكتسب من عمله الزراعي خبرة واسعة ، وأحدث في ميدان العمل الزراعي مناهج وأساليب جديدة ، فأضحى بحد ذاته مدرسة يفيد ويقتبس منها سائر المزارعين في قرى الغوطة .

ونظرا للثقة والاحترام اللذين كان يتمتع بهما في أوساط المزارعين الدمشقيين ، فقد انتخب رئيسا للغرفة الزراعية ، خلال عدة دورات انتخابية ، حيث كان يختاره زملاؤه اعتمادا منهم على خبرته وغيرته على مصالح الزراعة والمزارعين .

تعاقد ، في أول الثلاثينات ، أصحاب قرية البطيحة ، المتاخمة للحدود الفلسطينية ، مع شركة صهيونية على بيع أراضيهم الخصبة في القرية المذكورة . فتصدى والدي مع أعضاء الغرفة الزراعية لدعوة المزارعين في دمشق ، وعقدوا اجتماعا واسعا ضم عددا كبيرا من الاهلين ، وأثيرت فيه المخاطر والمحاذير الناجمة عن مثل هذا التصرف المريب . فأسفر الاجتماع عن اتفاق جماعي بالعمل والكفاح للحيلولة دون نفاذ عقد البيع . وسطرت برقيات الاحتجاج وعرائض الاستنكار الى المفوض السامي الفرنسي منذرة بسوء العواقب . كما وضعت الاسس لتأسيس شركة عربية مساهمة تتولى شراء واستثمار أراضي البطيحة . وكان بنتيجة الضغط الشعبي المتواصل ، والمراجعات المتعددة ، والاحتجاجات الصاخبة ، أن صدر قرار المفوض السامي بمنع بيع تلك الاراضي الغنية ، فظلت تحت ادارة أصحابها الى أن وقع العدوان الصهيوني صيف عام ١٩٦٧ ، فاستولى الاسرائيليون على أراضي القرية بكاملها بدون مقابل .



مرت الزراعة في البلاد السورية ، منذ بدء الاحتلال الفرنسي، وحتى اندلاع الحرب العالمية الثانية ، بظروف قاسية جدا ، منها الثورات المتعددة التي اجتاحت البلاد وأخصها بالذكر الثورة التي دارت رحاها في قرى الغوطة الشرقية ، وما رافقها من حرق المزارع والبيادر ، ثم الأزمة الاقتصادية العالمية وانعكاسها على أسعار المحاصيل الزراعية وانخفاضها والكساد ، وسياسة الافقار التي اتبعتها السلطات الفرنسية ضد البلد المحتل والثائر .

وقد تراكمت على والدي الديون والهموم ، الى أن جاءت

الحرب العالمية الثانية • وبالرغم من تدابير التموين الشديدة ، فقد أدى ارتفاع الاسعار الى بعض الانتعاش في أحوال المزارعين • ولكن والدي عمد وبشكل مفاجيء ، وبعد عمل متواصل في الزراعة دام أكثر من نصف قرن ، الى بيع المزرعة الواسعة التي كان اشتراهـا قبل الحرب العالمية الاولى ، في قرية الريحان القريبة من دوما • وقد تكدر أفراد الاسرة جميعا من هذا التصرف غير المنتظر من مزارع عمت شهرته الآفاق • وتعرض والدي بسبب ذلك للوم الكثيرين من أهله وأصدقائه ، ولكنه ظل مصرا على رأيه الناتج عن ممارسته الطويلة ، وهي أن الارض لا يستحقها الا من يعمل فيها ، بانيا وجهة نظره على ملاحظة أن أولاده لا يميلون للعمل الزراعي ، وهم منصرفون لاعمالهم في الهندسة ، أو الجيش ، أو في حقل القانون •

وقد أراد ببيعه المزرعة ، وبسعر منخفض ، أن يحلهم من عبء ادارتها الشاق العسير ، وأن لا يدعهم أيضا عالة عليها • هكذا وقبل أن تغزو الافكار اليسارية عقول أبناء جيلنا ، كان يحبذ والدي أيلولة الارض للعاملين فيها ، لأنهم الوحيدون القادرون عـلى اسـتنبات خيراتها •

* * *

كنا لا نتفق دائما مع والدي حول آرائه وأفكاره الخاصة في القضايا العامة والحوادث السياسية • فهو مثلا كان يرى في الانقلاب الدستوري الكبير ضد نظام السلطنة العثماني وما رافقه من تصادم القوميتين العربية والتركية ، مؤامرة خطيرة ، من تدبير الدول الغربية الاستعمارية وعملائها الخونة من العرب والاتراك ، مهد بها المتآمرون السبيل لهجمة صليبية جديدة على البلاد العربية والاسلامية الموحدة

تحت نظام الخلافة ، بهدف تمزيق وحدتها والسيطرة على أجزائها ، في وقت كان فيه الرجل المريض بدأ ينفض عوامل التراخي والمرض عن كاهله باتنهاج سياسة تحديثية في شتى مرافق الدولة وميادين الحياة .

وكان يردد على مسامعنا ، ونحن ما زلنا على مقاعد الدراسة ، أن الكثير من مظاهر التفسخ والانحلال ، والعديد من تصرفات الساسة وأخطائهم ، انما هو تمهيد لسيطرة الصهاينة على هذه البلاد، مع أننا كنا نرى ، في ذاك الحين المبكر ، أن اليهود قوم مستضعفون في بلاد العرب وفي العالم أجمع ، خاصة وأن الحركة النازية كانت تهدد وتعمل على محوهم من الوجود .

* * *

وعندما عمت البلاد السورية الاضطرابات بسبب خلاف الحكم الوطني الذي انبثق عن اعلان فرنسا الحرة على لسان قائدها الجنرال ديغول استقلال سورية ولبنان ، مع السلطات الفرنسية حول مستقبل الجيش ، كان والدي مع كرهه الشديد للفرنسيين ، يلاحظ ان استلام الجيش ، وزمام قيادته ، وادارة شؤونه ، ليست مسألة بالسهولة التي يراها جيلنا المتحمس لتحقيق أهدافه الوطنية ، لأن القيادة تحتاج لأناس صناديد لا يرقى الى وطنيتهم الشك ، ولا الى كفاءتهم وحنكتهم العسكرية الضعف أو الوهن . وكان يعيد الى أذهاننا سيرة الانكشاريين وغيرهم من العساكر الاتراك الذين رغم كونهم من أبناء البلاد العثمانية ، قد أنهكوا الدولة ، وعملوا من حيث النتيجة على انهيارها ، لكثرة ما كانوا يثيرونه في وجه السلطنة ، من مشاكل ومتاعب ناتجة عن عصيانهم وتمردهم ، ومحاولاتهم الانقلابية المتكررة . ولكننا كنا نرى ، على عكسه ، ان الجيش

العامل تحت العلم الوطني هو عنوان السيادة ، وبدونه لا يمكن أن يحقق الاستقلال الغاية المنشودة منه ، وأن الخبرات والكفاءات ستظهر وتتكون من خلال الممارسة والبناء • وكان هو بالمقابل يشير الى أن الاستقلال لن يكون الا شيئا صوريا ، في ظل نفوذ الدول الكبرى ، وأن الاجنبي لن يخرج من الباب حتى يعود الينا من النافذة، « ولا تستغربوا يا أبنائي أبدا أن يفتح له العساكر هذه النافذة ويصبحوا مطاياه للعودة الى السيطرة على دياركم » •



وبعد صدور قرار هيأة الامم بتقسيم فلسطين ، ولما لاحت في الافق بوادر قيام الدولة الصهيونية وبدأت في مطلع عام ١٩٤٨ قوافل اللاجئين الفلسطينيين العرب تتوافد الى سورية والاقطار العربية المتاخمة لفلسطين ، وعندما عمدت الحكومة السورية لتأسيس مؤسسة اللاجئين الفلسطينيين التي أسندت مديريتها الى ابن عمي السيد منير المالكي ، وكانت المظاهرات آنئذ تعم أنحاء البلاد العربية مطالبة بدخول الجيوش العربية لتحرير الاراضي المقدسة واعادتها سليمة سالمة لاصحابها الشرعيين ، ثارت ثائرة والدي ، واستنكر اسهام ابن أخيه في عمل خطير لا يدرك ما يخفيه الساسة من ورائه من مقاصد ، ورأى في الجو مؤامرة ضخمة تستهدف اخلاء الاراضي العربية من سكانها العرب لتسليمها الى الصهاينة ، وحذر من الخدعة الكبرى التي لاحظ أن الشعب العربي سيذهب ضحيتها ، لأنه كان يرى أن العبء الاكبر في الذود عن حياض الوطن الفلسطيني انما يقع في الدرجة الاولى على عاتق الفلسطينيين أنفسهم الذين يجب منعهم من الخروج من ديارهم ، وأن على الحكومات العربية أن تمدهم بالمساعدات المالية والخبرات العسكرية لتشكيل فرق مقاومة ؛ وهي

لو فعلت ذلك وأعطتهم ولو عشر الاسلحة التي كانت الجيوش العربية مزودة بها ، لتمكنت المقاومة الفلسطينية من وضع العراقيل في وجه انشاء الدولة المصطنعة وعدم اعطائها فرصة للاستقرار .

كان يشيد بشجاعة الفلسطينيين وقدرتهم على القتال والمقاومة فيما لو شجعتهم الحكومات العربية على اتباع هذا الطريق الوطني الصحيح ، وكان يحذر سلفا من أن الجيوش العربيـة لن تحارب باخلاص وبهدف التحرير ، ما دامت الحكومات العربيـة خاضعـة لسيطرة قوات الاحتلال الاستعمارية أو للنفوذ الاجنبي .

ولما كنا نرد على كلامه بأن المعركة قد تكلف الفلسطينيين كثيرا من الضحايا والدماء ، في حين أن قيام الجيوش النظامية بهذا الواجب القومي لن يكلفها أكثر من مناورة حربية أو نزهة عسكرية للقضاء على شراذم المعتدين الغاصبين ، كما كانت دعاية أجهزة الاعلام تزين للرأي العام العربي ذلك ، كان يرفض هذه الحجج بشدة ، منددا بعدم هضمنا لدروس التاريخ التي تلقيناها في المدارس ، مؤكدا أن كفاح الامم لم يسجل حادثة واحدة ، خرج فيها الشعب من وطنه بأمل أن تأتي جيوش صديقة من الخارج ، لتحرر الارض المغتصبة وتعيدها لأصحابها الشرعيين .

وما كادت الجيوش العربية تتصدى بفعل السياسة العربية لاعادة الحق الى نصابه ، حتى انعكست الآية واستولى الصهاينة الدخلاء على جزء كبير من الاراضي العربية يفوق الحد الذي خصصه لهـم قرار التقسيم الصادر عن هيأة الامم المتحدة ، بالرغم من المحاولات اليائسة التي قامت بها بعض القطعات العسكرية العربية لدحر القوات المعاديـة .



وابان المعركة التي خاضها الجيش السوري في شمالي فلسطين في مناطق سمخ والحولة والجليل الاعلى ، كان أخي عدنان بناء على موافقة القيادة العامة وبعد الحاح منه ومن زملائه وطلابهم ، اختصر دورة الكلية العسكرية التي كان آمرا لها ذاك العام والتحق مع عناصر الكلية العسكرية بالجبهة السورية ؛ ولما قدم من حمص معرجاً على دمشق في طريقه الى خط النار ، وزار أهله مودعا والديه واخوتــه ، كان المشهد الرائع الذي لا ينسى ، مشهد الاب الذي يشجع ولده على خوض المعركة بثبات وشجاعة ، كما يمليه عليه الواجب الوطني وشرف السلاح واللباس العسكري ، محذرا من التراجع أو الانسحاب أمام هجمات اليهود الغادرة ، متوعدا اياه بأنه سيتبرأ منه ان عــاد اليه منكسرا ، واضعا اياه أمام اختيار صعب ولكنه حلو في الحالتين، الشهادة في سبيل الوطن أو النصر على الاعداء المجرمين • فــكان جواب الابن البار : « لبيك ، يا أبتاه •• سأسير على الدرب الذي رسمته لي ، ولن أكون الا بارا بهذا الوطن الذي أعطاني الحياة ، وبهذا البيت الذي رضعت فيه الاخلاص مع اللبن » •

وبعد أن أخذ الضابط الشاب غفوة في سريره ليرتاح من وعثاء السفر بانتظار تحرك قطعته نحو خط النار ، كان المشهد الاكثر روعة، مشهد الأم الرؤوم ، وهي تلمس جبين ولدها بكفها ، موقظة ايــاه بلطف وحنان ، وتناوله سلاحه بيدها الاخرى ، منادية اياه : « هيا يا عدنان ، حان الوقت ، حي على الجهاد » ••

ويتجه الضابط الشاب الشجاع الى جبهة القتال بخطى قويــة ثابتة ليتسلم قيادة سرية مشاة مؤلفة بمعظمها من عناصر احتياطية كانت خدمت أيام الاحتلال ، وسيقت الى جبهة القتال ، على عجل ، وفي ظروف المعركة •

ولا تكاد الاوامر تصدر الى القطعة العسكرية الصغيرة ، حتى تندفع بقوة بقيادة آمرها الضابط الذي استطاع أن يوقد لهيب الحماس في نفوس جنوده البواسل ، ويخوض الجميع معركة ضارية يتحقق في نهايتها انتصار عسكري باهر باحتلال موقع استراتيجي هام مشرف على مستعمرة مشمار هايردن في منطقة كعوش التي احتلها قبل فترة قصيرة الفدائيون الشراكسة بقيادة العقيد محمود بنيان •

ولا تلبث السرية نفسها أن تصد في مطلع فجر اليوم التالي ، هجوما مضادا شنه عدد كبير من المقاتلين الصهاينة بأمل استرجاع التل ، وتبيدهم عن بكرة أبيهم • فتعلن القيادة بعد ذلك عن تسمية هذا المرتفع المعروف باسم ( تل أبو الريش ) بـ ( تل المالكي ) ، تقديرا منها للعمل البطولي الذي قام به الضابط المغوار وجنوده الشجعان ، وضربوا بواسطته المثل على القدرة القتالية للجندي السوري •

ويعبق في المدينة ، بعد وصول خبر المعركة ، أريج البطولة ، ويملأ صدور أهل البيت الأبوي شعور بالاعتزاز والفخار •

أليس البيت هو المدرسة الأولى التي تغرس في نفس الابناء حب الوطن ومبادىء الاخلاص والتضحية ؟ فمن حق أصحاب هذه المدرسة أن يغتبطوا لانتصار واحد من أبنائها البررة المخلصين •••

★ ★ ★

وبعد انقضاء الهدنة الأولى المشؤومة ، والعودة لاستئناف القتال ، نال عدنان وساما رفيعا كان في نظر أهله ورفاقه ، أهم من سائر الاوسمة التي نالها في الماضي وبعد انتصاره في المعركة الاولى ،

وهو الجرح البليغ الذي انساب منه الدم الطاهر الزكي في مؤخرة رأسه بعد اصابة غادرة بنيران العدو •

وابتهج والدي بذلك مشيرا الى أنه بعد أن دنست قوى الاحتلال والاغتصاب أرض الوطن ، لم يعد ثمة طريق لتحريرها من براثن الاعداء ، الا سكب المزيد من الدماء على طريق الشرف والتضحية ، مشيرا الى أن الكفاح لا يكون بترديد الهتافات الرنانة والشعارات الزائفة التي يجترها تجار السياسة في خطاباتهم وتصريحاتهم عبر الصحف والاذاعات ، بل ان سبيل النصر هو الطريق الذي سار عليه عدنان وزملاؤه وجنوده الشجعان ورصفه قبلهم الشهداء الابرار بدمائهم وتضحياتهم •

★ ★ ★

وتمضي الايام وتحدث النكسة العربية عام ١٩٤٨ آثارها في صفوف العرب عامة والعسكريين منهم خاصة ، وتلحظ الدبلوماسية الاميركية تأجج البركان من تحت رماد غضبة الجماهير العربية ، وتضرب ضربتها المحكمة الاولى في مركز الخطر ، في سورية الحبيبة• فكان الانقلاب الاول ، انقلاب قائد الجيش السوري الزعيم حسني الزعيم •

وقد اشترك عدنان مع ضباط الجيش السوري في تنفيذ أوامر قائدهم ، يحفزهم في ذلك شعور واحد ، هو أن ما يقوم به الجيش هو في مصلحة وطنهم وأمتهم ، دون أن يدركوا خطورة الاجراء وما سيورثه لجيشهم ووطنهم من مضاعفات خطيرة •

وبعد غياب يومين أو ثلاثة بسبب حالة الاستنفار التي رافقت وأعقبت الانقلاب ، عاد عدنان الى البيت ليستقبله والده باللوم والتقريع مستنكرا هذا الذي أقدم عليه الجيش بكامله •

لم يكن عدنان هو صاحب فكرة الانقلاب ، وان كان لم يعارض فيها لدى شروع الزعيم بتنفيذ خطته في ٣٠ آذار ( مارس ) ١٩٤٩ •

ولكن والدي لم يقبل من ولده أية حجة أو عذر فيما اجترحته أسلحة الجيش الفتي • وقد ندد بشدة بالانقلاب الذي لم يكن في نظره أرقى من انقلابات الانكشاريين الذين هدموا الامبراطورية العثمانية ، وأنه حسب تقديره سيكون فاتحة لسلسلة من الانقلابات العسكرية التي لن يكون لها آخر • وقدر أنه بعد هذه الخطوة المريبة ، لن تقوم لهذا الجيش ولا لهذه البلاد قائمة ، شاجبا بشدة تدخل الجيش في السياسة ، منذرا بأن انغماس العسكريين فيها وتدخلهم في شؤون الحكم وصراعهم على السلطة سيؤدي من حيث النتيجة الى فقدان الزمام والانضباط داخل الجيش ، وسيطرة الفوضى في البلاد ، مع ما ستجره هذه الفوضى من فرص مواتية لاعداء البلاد لفرض سيطرتهم عليها • وكنا ، نحن أولاده ، نحيط به آنئذ ، فالتفت الينا قائلا : « ولا تستغربوا أبدا ان رأيتم في المستقبل القريب هؤلاء الضباط يتساقطون صرعى على أيدي بعضهم بعضا ، لا في جبهة القتال ، بل في شوارع المدن السورية ، بعيدا عن خطوط النار ، نتيجة ما سينشأ بينهم من خصومات وما سيحيكه لهم الأجنبي من دسائس ومؤامرات لالهائهم عن واجبهم الاساسي ، وهو الذود عن حياض الوطن وحماية حدوده وأمنه وسلامته » •

لقد أدرك والدي ، بحدسه الخاص ، عمق الهوة التي ستتردى اليها أحوال البلاد ، ورأى في تحرك القطعات العسكرية من القنيطرة الى العاصمة ، وتركها الحدود المتاخمة للأراضي الفلسطينية المحتلة شبه خالية أمام القوات المعادية ، بادرة تشير الى أن العدو هو الطرف الوحيد الذي سيستفيد من هذا التحرك المعكوس الاتجاه ، والمشبوه القصد •

ولم يفته التنبيه الى أن أصابع الاجنبي هي وراء خطة الانقلاب المشؤوم .

ولما ذكر عدنان أن مثل هذا الشك ورد على أذهان الضباط الذين لم ينفذوا أوامر قائدهم بالتحرك ، الا بعد أن أقسم لهم على القرآن وبشرفه العسكري بأن حركته خالية من أي تدخل أو علاقة أجنبية ، وأن الجيش بقيادته لن يلبث الا أياما معدودات يقضي خلالها على مكامن الفساد ، ليعود بعد ذلك الى ثكناته تاركا زمام الحكم للشعب ولممثليه الشرعيين ، لم يقنع والدي بهذا الكلام مؤكدا أن المستقبل سيكشف عكسه .

★ ★ ★

وعندما اغتيل أخي عدنان ، تنفيذا لمؤامرة استعمارية لئيمة ، وراح ضحية الواجب وشهيد الوطن ، أبدى بعض زملائه الغيورين الاهتمام بتخصيص راتب مواساة لوالديه وشقيقاته العازبات ، كما هي السنة المتبعة في مثل هذه الحالة ، خاصة وأنهم لم يستفيدوا من قانون تقاعد العسكريين لنقص في نصوصه المطبقة آنذاك . كما اقترح البعض الآخر عرض الموضوع على مجلس الوزراء الذي له الحق ، حسب صلاحياته ، بتخصيص تعويض لمن يقضي من موظفي الدولة أثناء قيامه بالواجب .

ولما أحطت والدي علما بتلك الاقتراحات ، رفضها بشدة ، ونهاني عن متابعة البحث في هذا الموضوع ، وعن بذل أي مسعى في سبيل تحقيقه ، وقال لي : « لقد كان أخوك يمد قدمه في مجابهة جميع الاغراءات ، فكيف نقبل نحن أن نبسط يدنا لأولئك الذين كانوا دائما يصطدمون بمواقفه الصلبة الثابتة التي لم يزحزحه عنها

الا مصرعه الذي لا يستبعد أن يكون بعض هؤلاء قد أسهم فيه بشكل أو آخر » •

وكان والدي ثاقب النظر عندما تنبأ ، في معرض رفضه لفكرة السعي لاستصدار قانون أو مرسوم يقضي بتخصيص راتب المواساة لأسرة شهيد وهب دمه وحياته لوطنه ، بأن أولئك الذين في يدهم الحل والربط لن يلبثوا أن يخصوا أنفسهم بالرواتب والعطاءات ، دون أن ينسوا مكافأة الذين سفكوا دم ابنه ••

★ ★ ★

وكان والدي قد أنف سابقا من مقاضاة الدولة للمطالبة بتعويض الطارىء عن وفاة ابنه البكر المهندس الكهربائي محمد فؤاد الذي كان يعمل في مصلحة الهاتف الآلي ، وتوفي عن ثلاثة وأربعين عاما بسبب ضربة شمس حادة أصابته ظهيرة يوم حار من صيف عام ١٩٤٩ لدى تعطل السيارة التي كان يقله فيها سائق أرعن ترك الطريق المعبدة ليسير في الاراضي الوعرة الموصلة الى مركز البث الاذاعي في قرية الصبورة •

وقد أخذ والدي على عاتقه تربية أحفاده الاربعة الذين حرمهم ديوان المحاسبات من التعويض الذي خصصته لهم الادارة عن وفاة والدهم في وقت لم تكن فيه أكبرهم تجاوز الرابعة من عمرها بينما كان أصغرهم طفلا رضيعا • وقد اكتفى والدي بشرف سقوط ابنه البكر في ساحة الواجب •

كما اكتفى بعدئذ ، لدى استشهاد ابنه الاوسط عدنان ، بوسام الشرف الذي صدر المرسوم بتخصيصه له بعد الوفاة ،

بدرجة فارس ، وهي أدنى مراتب هذا الوسام ، لأن الدرجة الاعلى منه لا يمكن قانونا أن تمنح الا لمن حاز قبلها على الدرجة الادنى .



ولدى قيام الوحدة بين القطرين العربيين السوري والمصري عام ١٩٥٨ ، وكان والدي في الرابعة والثمانين من عمره ، لم يظهر تفاؤله بالحدث القومي الهام نظرا للشكل الذي سارت عليه الامور لدى اعلان وحدة القطرين ، ولم يتوقع النجاح لهذه الخطوة الاولى في طريق الوحدة الكبرى .

وكان رأيه أن « الطبخة سلقت سلقا » وأن الاسس التي بنيت عليها واهية ولن تساعدها على النمو والتطور والاستقرار . وتعجب كثيرا لانجراف السياسيين والاحزاب مع موجة العاطفة والحماس التي رافقت الخطوة ، وأعمتهم عن التبصر في عواقب الامور .

وكانت حجته في ذلك أن سورية تتمتع بنظام ديمقراطي برلماني، ومصر تعيش في ظل نظام حكم عسكري ، وأن هذا النظام لن يلبث أن يعم البلدين ويقضي على جميع ما حققه الشعب العربي في سورية ضد نظام الحكم العسكري الدكتاتوري الذي أقامه الزعيم أديب الشيشكلي ، والذي ساهمنا نحن في محاربته واسقاطه . ولم يقتنع بالخطوات الدستورية التي أعلن عنها حكام البلدين لدى اتفاقهم على اقامة الوحدة ، معتبرا أن ما يأتي عن غير طريق الشعب ، لايكون أبدا في مصلحة الشعب ، وكنا في محيطنا العائلي كغيرنا من أبناء الشعب مندفعين بعاطفتنا القومية ، غير آبهين بما كان يصدر عن والدنا المسن من آراء وتوجيهات يدعو فيها للتأني في معالجة القضايا الكبرى وللحذر مما يكيده الاعداء لشعبنا وأمتنا العربية . وكنا

نعزو مناقضة آراء والدنـا لخطواتنا واتجاهنا الـى عامـل السن والشيخوخة ، والى وضعه الصحي وبعده عن الممارسة السياسية ، معتقدين بخطأ وجهات نظره ، وموقنين بأن ما تسير عليه الامور في وطننا وعلى أيدي قادتنا المخلصين ، وبمشاركتنا العاطفية والوجدانية، هو الحق والصواب معا .



# على مقاعـد الدراسة

**قـم للمعلم وفـه التبجيلا　　　كاد المعـلم أن يكون رسولا**

« أحمد شوقي »

رافقت بعض اخوتي الى « الخوجا » التي كانت تعتبر بمثابة دار حضانة لمن هم دون السن التي تخولهم الانتساب الى المدارس الرسمية • ولكنني لم أمكث في الحضانة مدة طويلة ، اذ انتسبت بعد ذلك الى المدرسة الابتدائية في حي المهاجرين ، وكانت مدرسة حكومية نموذجية كان يديرها مدير قدير ، هو الاستاذ توفيق ميخائيل افرام، وكان فيها عدد من المعلمين الاكفاء الذين لمع نجم بعضهم في ميدان التعليم ، كالاستاذ محب الله النابلسي ، والاستاذ بكري قدورة ، والاستاذ جودت عصاصة وغيرهم •

وكان معلم الديانة الشيخ حامد التقي رجل علم وفقه ؛ وكان يؤم التلاميذ ، في مسجد « الشمسية » المقابل لبناء المدرسة ، لدى

أدائهم الصلاة التي كانت الزامية في عموم المدارس • وكان المعلمون يتناوبون مراقبة التلاميذ لدى أدائهم هذه الفريضة الاجبارية •• والطريف أن معلم اللغة الفرنسية ، وهو شاب موسوي قصير القامة ، كثير الحيوية ، شديد الذكاء اسمه ناتان برسيادو ، كان أشد هؤلاء وطأة على تلاميذ المدرسة ، حيث أن واحدا منهم لم يكن يستطيع ، في فترة نوبته ، الافلات من الوضوء ، أو التهرب من أداء الصلاة ، أو الاتيان بحركات الطيش والشيطنة أثناء الصلاة • وكان التلاميذ يحتجون لدى الادارة لسماحها ليهودي بدخول المسجد ؛ والدافع للاحتجاج لم يكن طبعا التعصب الديني ، بل الامل بالخلاص من سطوة ذلك المراقب الصارم •

★ ★ ★

في يوم من الايام وأثناء الفرصة التي تتخلل ساعات الدراسة في المدرسة ، رمى لي تلميذ الطربوش من على رأسي وألقاه على الارض ، وكان لبس الطربوش الزاميا في ذلك الوقت في عموم المدارس • فذهبت الى المراقب المناوب ، وكان الاستاذ برسيادو ، أشكو اليه التلميذ المعتدي ؛ فأجابني : « أليست لك يدان كزميلك، وأليس يرتدي طربوشا مثلك ؟ اذهب اليه وقابله بالمثل • » ففعلت بتوجيهه ، وألقيت بطربوش رفيق الدراسة على الارض • وقد نبهني هذا الدرس الى أن اليهودي ليس عنصرا مستكينا مسالما ، كما كنا نتصوره ، بل هو يأخذ بمبادىء شريعة الغاب ، حيث لابد للقوة من أن تجابه بمثلها ، والعنف من أن يرد عليه بالعنف •

★ ★ ★

دخلت أول الامر الى الصف التحضيري ، وكان يسمى صف الشعبة • وفي صباح أحد الايام انطلق من مئذنه المسجد المقابل

للمدرسة صوت المؤذن ينعي وفاة الضابط المتقاعد السيد سليم المالكي ، ولما سألني المعلم الاستاذ مسلم المصري عن القرابة التي تربطني بالمتوفى ، أظهرت جهلي بذلك ؛ فما كان منه الا أن «دحّني» بقبضة يده على ظهري مستنكرا تجاهلي قرابة عمي ، شقيق والدي ، الذي كان يعرفه حق المعرفة •

والسبب في كل ما جرى هو أن عمي ، كان قبل يوم واحد في زيارتنا ملء السمع والبصر ، وقد توفي صباح اليوم التالي ، فلم يخطر ببالي ، في تلك السن المبكرة ، أن المرء يموت بهذه السرعة والسهولة ؛ ولأول مرة في حياتي شعرت بالظلم يمكن أن يقع على الانسان بدون ذنب يقترفه •

★ ★ ★

تولى تدريسنا في الصف الاول والثاني الاستاذ جودت عصاصة، فكان لأسلوبه في تشجيع تلامذته المجدين منهم أثر كبير في تشويقهم للدراسة والاجتهاد • وكان كلما أجاد التلميذ في الاجابة على أسئلته، أعطاه من جيبه « سكرة مطعمة » •• وكنت أنظر الى هذه المكافأة العينية نظرة معنوية خاصة ؛ فكنت أجمعها الى بعضها ، حتى تجمع لدي منها خلال السنة الدراسية ، كيس صغير كنت أفرح بحمله في البيت أيما فرح لأنه كان عنوان الفوز والنجاح •

كان من بين أترابنا في المدرسة الابتدائية تلميذ يقطن مع أهله بجوارنا ، وهم من آل المرستاني ؛ ولم ينه دراسته الثانوية ، حيث التحق بسلك الشرطة المدنية • وفي عام ١٩٤٨ تطوع في جيش الانقاذ، وقاتل بشجاعة ، حتى صرعه رصاص العدو الغادر ، وسقط في ميدان الشرف والتضحية وخط بدمه الطاهر الزكي ، وفي سجل الشهادة والخلود ، اسمه الكريم « مصباح المرستاني » •

★ ★ ★

ذهبت مرة الى سوق الكتب في المسكية ، المتاخمة للجامع الاموي الكبير ، بقصد شراء كتبي المدرسية ، بعد أن سمعت من أترابي في المدرسة أن الكتب والدفاتر المدرسية تباع هناك بسعر أرخص ، وقد استقللت حافلة الترام ذهابا وايابا في سفرتي هذه من حي المهاجرين الى سوق الحميدية ، ووقفت عند بائع كتب ، وكان شيخا مسنا ذا لحية كثة وخطها الشيب ، ويضع على رأسه عمامة من نوع الاغباني ، وهي عبارة عن طربوش أحمر يلتف حوله بشكل متصالب قماش بلون سكري ومطرز بخيوط ذات لون بني فاتح •

فاشتريت حوائجي من الكتب والدفاتر ، ونقدته الثمن ، وعدت فرحا بصفقتي الى الدار حيث نلت « علقة ساخنة » لتأخري عن الموعد المحدد لي • وكانت خيبة الأمل المرة عندما ذهبت ، في اليوم التالي، الى المدرسة ، وعلمت من رفاقي ، أن السعر الذي اشتروا به ذات الكتب من مكتبات حي المهاجرين كان أرخص من السعر الذي اشتريت به كتبي من السوق الرئيسية • فتملكني الغيظ ، وعدت في فترة الظهيرة لمقابلة الشيخ ، بائع الكتب في سوق المسكية ، محتجا على ما لحق بي من غبن في الصفقة التي عقدتها معه ، وقد نددت بطريقته في البيع وصارحته بأنها لا تتفق مع حرمة المظهر الذي يظهر به ، والزي الذي يرتديه ، والعمامة المهيبة التي يخدع بها الناس • فأجابني بتروّ وبرود عجيبين : « يابني لا تخطيء ، فهذه العمامة حسابها ليس معك ، بل مع ربي ؛ أما بالنسبة للثمن الذي تقاضيته منك ، فهو حلال علي ، لأن تجارتي تقوم على الربح ، والبيع والشراء يقومان على المساومة ؛ وأنت اشتريت مني دون أن تساومني ؛ فهذا درس كلفك بعض المال ، كما تكلفك الدروس التي تتلقاها في المدرسة؛ فاذا وقفت مرة ثانية عند بائع أو تعاملت مع انسان ، فاياك أن تثق بكلامه وحتى بما يطلقه من قسم وأيمان مغلظة » • وكان هذا الكلام

درسا عمليا ، وان كنت لم أفد منه كثيرا في حياتي ، لأني سرعان ما كنت أثق بالناس ، ومظاهرهم ، وكلامهم المعسول ، وايمانهم المقدسة.

* * *

ومرة أخرى كنت عائدا من سوق الحميدية لاستقل الترامواي من ساحة الشهداء ــ المرجة ــ الى حي المهاجرين حيث كنت أقطن مع أسرتي، فسرت في شارع السنجقدار ، وكانت تعم جوانبه الخرائب المتخلفة عن الحريق الكبير الذي حصل في المدينة أيام ضربها من قبل الجنود الفرنسيين . وفي احدى هذه الخرائب شاهدت جمهورا غفيرا من الناس يلتف بشكل دائري حول رجل ذي صوت جهوري ؛ فدفعني حب الاطلاع للتسلل من بين الناس المتجمهرين ، وتخطي صفوفهم الى الامام .. وطالعني منظر ذاك الرجل الذي يشبه المارد، بقامته الطويلة المديدة ، ووجهه العريض ، وجبينه العالي ، ولونه الاسمر الداكن ، وحديثه الطلق ، ولهجته المصرية المحببة .. وكان يمد على الارض قطعة من القماش وفوقها سلة من القصب ..

وقد دهشت لما كان يقوم به من حركات ، وما يؤديه من أفعال تبهر الانظار . أخرج من السلة الخالية أمامه ، كأسا فارغا من الزجاج الشفاف ، ومد أصابعه الطويلة اليه ، فأخرج بيضة ، وفقس البيضة على مرأى من الناس ، وأطل من بين قشرتها المحطمة أرنب أبيض يعادل حجمه عشرين بيضة وأكثر ، حمله الرجل من أذنيه والحيوان الصغير يزعق ، ويضرب بقدميه .

وبعد وضع الارنب والكأس الزجاجي الفارغ في السلة الخاوية، يعود المارد لاخراج سيف حديدي طويل من السلة ، وهو أطول منها بمرات ، ويدخله في فمه ويبتلع نسله بكامله ، والمتفرجون يلتقطون أنفاسهم لهول المشهد . وفي هذه الغمرة يتجه المارد نحو بعض

الواقفين ، ويبدأ باخراج العملة الذهبية من آذانهم وأنوفهم ، وتنهمر الليرات العثمانية الصفراء البراقة بكثرة أمام عيون النظارة ، ويخطف بريقها أبصارهم • ولكن المشهد ينتهي فجأة وبسرعة ، لدى قدوم « دورية » الشرطة • وبلمح البصر ، يختفي المارد ، وتختفي معه ليراته ، وسيفه ، وأرنبه وسلته ، ولا يظهر له في الساحة أو الشارع أي أثر • وأستغرب أنا بيني وبين نفسي كيف يطارد رجال الشرطة رجلا ، لو وضعته الدولة تحت تصرفها أو بوأته سدة الحكم فيها ، واستفادت من عبقريته الفذة ، لملأ خزائنها بالذهب ، ولذاد عن حياضها بسيفه ، وأرهب أعداءها بامكاناته الخارقة ، وكسب تأييد رعاياها ، بقدرته العجيبة على الكلام ، والاقناع •

ولكن ما أن أصل الى البيت وأروي لاخوتي الكبار ما شاهدته، بأم عيني ، وما تركه المشهد الرائع في نفسي ، من دهشة وانطباع ، حتى يسخروا من سذاجتي ويحذروني من التأثر بالمظاهر ، ويفهموني أن المارد الذي امتلك حواسي ومشاعري ، ليس الا حاويا دجالا ، يعتمد في حركاته على خداع النظر ، وأنه أجدى للمرء في حياته أن يتفادى الوقوع في حبائل أمثال هذا الانسان المخادع ، لأن من تنطلي عليه الخديعة في أي شأن كان ، لن يجني من حيث النتيجة الا الخيبة ، عندما تتكشف له الامور على حقيقتها وتنهض أمام عينه، بدون طلاء أو تزييف •

★ ★ ★

كان المنظر مضحكا ، يوم اجتزت فحص الشهادة الابتدائية ، فقد صدف أن أصبت بالتهاب شديد في اللوزتين ، وكان مثل هذا المرض يعالج بلصقة نشاء مطبوخ توضع عند الرقبة ، وتربط من جهة الرأس • وقد حاول أهلي منعي من الذهاب الى الفحص خوفا

على صحتي ، لأن حرارتي كانت مرتفعة ، ولكني لم أسايرهم حرصا على عدم الرسوب ، واعادة السنة الدراسية • فذهبت الى الفحص و « اللبخة » — كما كانوا يسمونها — تغمر وجهي ، والطربوش يربض فوقها على رأسي ؛ ولكن الحظ أسعفني ، فكنت من الناجحين•

وبعدئذ انتسبت الى مدرسة الاخوة المريسيين « الفرير » ، وكانت المدرسة الاولى في المدينة • وكان الاقبال عليها شديدا ، نظرا للنظام الصارم المتبع فيها • وقد كلفني الانتساب الى هذه المدرسة ، التراجع صفين ، لأني كنت ضعيفا في اللغة الفرنسية ، وكانت جميع المواد تدرس بهذه اللغة ، فيما عدا اللغة العربية طبعا، وكانت لها صفوفها الخاصة بها •

وقد تعرفت في تلك المدرسة ، على طالب تبدو عليه منذ حداثته، سيماء الفروسية والشجاعة ، وهو السيد احسان كم الماز • وقد انتسب بعدئذ الى الكلية الحربية وتخرج منها ضابطا • وفي حرب فلسطين ، التحق بجيش الانقاذ ، وأبلى في القتال بلاء شديدا •

ومن مآثره المشهودة ، أنه درب في وقت قصير عددا من أهالي مدينة صفد على القتال ، وتولى معهم حماية المدينة ومرتفعاتها من هجمات الصهاينة الغادرين • ولكن أمرا مريبا صدر اليه وأقصاه عن المواقع الحصينة التي كان يحتلها مع رجال المقاومة الفلسطينيين الاشداء • ثم أقحم الضابط البطل في منطقة كان يكمن فيها الاعداء وسقط جريحا على مرأى من جنوده الذين اضطروا لتركه في أرض المعركة ، لغزارة النيران المنصبة عليهم من أسلحة العدو ، واختفى أثره بعد ذلك •

وصنفته سجلات جيشه الوطني ، في عداد شهداء الامة الابرار، بينما ظلت والدته الثكلى ، وهي شقيقة الزعيم حسني الزعيم ، تعتقد

أن ابنها الغالي ما زال على قيد الحياة ، يعاني من جــور آسريــه الاسرائيليين •

★ ★ ★

قررت ادارة مدرسة ( الفرير ) أثناء الاضراب الكبير الذي عم البلاد عام ١٩٣٦ ، فصلي أنا وأخي من المدرسة وعدم السماح بعودتنا اليها الا اذا حضر ولي أمرنا وتعهد بأن لا نقدم مرة ثانية على مثل العمل الذي كان سبب التدبير المتخذ بحقنا والناتج عن اخبار الادارة من قبل بعض الطلاب ، بأننا حرضناهم على الاضراب • كانت المدرسة تتساهل مع المضربين ، أما من يحرض على الاضراب فكان عقابه لديها الفصل المحتم • وقد رفض والدي تنفيذ شرط المدرسة لعودتنا الى متابعة الدراسة ، بعد أن كان ينهانا بقسوة عن الاضراب ، بحجــة أن اغتراف العلم أجدى من الامساك عنه • ولكن الادارة تراجعت عن اجرائها الصارم ، بعد أن لاحظت تضامن الطلاب مع بعضهم ، وتهديدهم لها بمقاطعة المدرسة نهائيا ، ان لم تعدل عن قرارها باعادة جميع الطلاب المفصولين لمتابعة دراستهم •

★ ★ ★

كنت آنئذ في الرابعة عشرة من عمري ، وفي بدء تفتح وعيي على حقيقة ما يجري على أرض هذا الوطن : الشعب من جهة يشكل كتلة واحدة متراصة يسير وراء قيادته الوطنية وينافح عن كرامته ويقارع المستعمر الباغي ، وتتصدى له قوى الاحتلال من جهة ثانية وهي مدججة بأعتى الاسلحة الحربية الحديثة لتمعن في اعتدائها على الشعب الاعزل من السلاح •

كانت قوات الاحتلال أثناء فترة الاضطرابات والمظاهرات ، تنشر قطعاتها المسلحة في شوارع المدينة دمشق ، بشكل واســع وكثيف

بقصد ارهاب الاهلين وقمع حركة التمرد • كانت الدبابات والمصفحات تملأ الشوارع الرئيسية ، وكان أبناء المدينة البواسل يواصلون هجماتهم على الجنود الفرنسيين وقوات الامن الخاضعة لهم ، وسلاحهم الاساسي هو الحجارة ، وكانت الحماسة تبلغ لدى بعض شبان حي الشاغور المجاهد اقتحام بعض آليات العدو المدرعة وذبح سدتنها بالخناجر والسكاكين •• وفي شارع النصر الممتد من ساحة محطة الخط الحديدي الحجازي حتى سوق الحميدية ، تكررت مثل هذه الحوادث أكثر من مرة •

وفي حي المهاجرين ، حيث كنا نقطن ، كان يتعذر على القوات الآلية التوغل في جاداته المرتفعة ، وشعابه المتعددة والشديدة الانحدار ، حذر الوقوع في كمائن الاهلين •

فكانت القوات الفرنسية تعتمد ، بشكل خاص ، على مفارز من الجنود الخيالة يجوبون الطرقات بسرعة البرق ، شاهرين سيوفهم ، وملوحين بها في الفضاء لتشتيت تجمعات المتظاهرين • وكان مألوفا منظر الخيال يتدحرج هو وحصانه وسيفه على الارض بفعل حجر يندفع بقوة من يد أحد المتظاهرين ليصيب الراحلة أو راكبها اصابة دامية مباشرة •

★ ★ ★

لقد ذاق الاجنبي الدخيل على هذا الوطن الذل والهوان على أيدي أبناء الشعب العربي في سورية ، ولم يكن في الاوساط الشعبية محل للاعتذار بأن المعركة غير المتكافئة تبرر للشعب الاعزل من السلاح بأن يستكين ويخضع أمام عدوه المدجج حتى أسنانه بالاسلحة الحربية الفتاكة • كان لهيب الحماس يتزايد ويتأجج كلما ارتكب الغاصب المحتل المزيد من اعتداءاته وحماقاته • وكان الشعار المحبب

الى النفوس والذي تردده حناجر الاهلين قبل قادة الكفاح ( لا مفاوضة قبل الجلاء ) • وقد خسر زعماء الكتلة الوطنية الكثير من اعتبارهم السياسي والمعنوي ، رغم جهادهم المتواصل وحسن بلائهم في معارك الكفاح والثورة ، عندما شرعوا باجراء المفاوضات مع السلطات الفرنسية في باريز بقصد الوصول الى عقد المعاهدة السورية الفرنسية عام ١٩٣٦ ، تلك المعاهدة التي نكصت الحكومة الفرنسية عن احترامها وتنفيذها فيما بعد • ان ارادة الشعوب لا تقبل ولا تسلم بمبدأ الحلول الوسط ، وهي ترى أن السياسي أو القائد الذي لا يجد في نفسه الكفاءة أو القدرة على مواصلة الكفاح ، لا يملك حق مفاوضة العدو مهما كانت ظروف المعركة ، حتى ولو كانت المفاوضة في حد ذاتها جزءا من الخطة السياسية أو محاولة تستهدف انقاذ ما يمكن انقاذه من حقوق الشعب المغتصبة أو أراضيه المحتلة •

★ ★ ★

لقد أدان القضاء الفرنسي في أعقاب الحرب العالمية الثانية رئيس الدولة الماريشال بيتان بالخيانة العظمى وقضى عليه بعقوبة الاعدام التي خفضت الى الاشغال الشاقة المؤبدة ، نظرا لشيخوخته وتجاوزه الثمانين من عمره ، وقد أنزلت به تلك العقوبة القصوى لاقدامه على مفاوضة العدو الالماني الذي احتل قسما من الاراضي الفرنسية ، ولم يكن رائد القائد الفرنسي سوى انقاذ فرنسا من دمار الحرب وحماية باقي أجزائها من الاحتلال • ولكن لم تشفع للقائد العجوز لدى قضاته ، نيته الحسنة ، وماضيه المجيد ، ورتبته العالية وأكاليل الغار والاوسمة التي كان يحملها بسبب بطولته وانتصاراته العسكرية الضخمة في الحرب العالمية الاولى ، التي حققت للشعب الفرنسي أمجادا فوق أمجاده الحربية السابقة ، لأن ارادة الشعوب لا ترحم من يتساهل بحقوق أبناء شعبه ويفرط بتراب الوطن ، وهذا

التراب هو فوق الرجال ، مهما بلغت عظمتهم ، وشرف الأمة أهم من التراب ذاته .

* * *

لم يكد يمضي على وجودي في المدرسة الفرنسية عام دراسي واحد ، حتى كنت في نهايته الناجح الاول ، في كلا الصفين العربي والفرنسي . وكان الطالب الفائز بالدرجة الاولى يكافأ بتعليق أوسمة النجاح على صدره في احتفال كبير يجري لدى انتهاء كل فحص . فغالبا ما كان نصيبي من الاوسمة ، العدد الكامل : اثنين للصف الفرنسي ، واثنين للصف العربي .

كما كان المدرسون يكافئون الطلاب الذين ينالون علامات جيدة ، لدى تقديمهم فروضهم المنزلية ، أو لدى حسن اجابتهم على الاسئلة الشفوية ، بثناءات مطبوعة على بطاقات خاصة ، كانوا يسمونها ( فيكتوار ) أي النصر . وفي نهاية السنة الدراسية ، كانت ادارة المدرسة تنظم مزادا علنيا تباع فيه الجوائز والهدايا بالثناءات التي كسبها الطلاب أثناء السنة . فمن يعرض عددا أكبر من هذه الثناءات مقابل الشيء المطروح بالمزاد ، يحال عليه هذا الشيء ويظفر به .

وفي احدى السنوات الدراسية ، كنت حصلت على أكبر عدد من البطاقات بالنسبة لعموم طلاب المدرسة . وتنافست أنا وتلميذ آخر كان يتقدمني بسنة واحدة ( وقد درس الطب فيما بعد وأصبح طبيبا ناجحا في المدينة يشار اليه بالبنان وأستاذا قديرا في جامعة دمشق ) ، وكان الشيء الاول والاهم المطروح بالمزاد هو كرة قدم، يسيل لها لعاب معظم طلاب المدرسة .

وكان واضحا سلفا ، أن الكرة ستكون من نصيبي ، لأني أملك العدد الأكبر من الثناءات .

ولكن سرعان ما أسعف المدرس الاخ ( الفرير ) أوجينيان تلميذه النجيب ومنافسي الاول ، ببضعة بطاقات اضافية سلمه اياها أثناء المزاد .

فكانت لعبة مكشوفة ، أمام جميع الطلاب ، قابلتها بالاحتجاج الشديد ، وبالامتناع عن متابعة الاسهام في المزاد . وألقيت بالعدد الكبير من البطاقات التي أحملها على الارض ، وانسحبت من المزاد ، ولم أعد اليه ثانية ، رغم جميع المحاولات التي بذلها مدير المدرسة المشرف على المزاد وسائر زملائه المدرسين .

وقد كشفت لي هذه الحادثة عن أن الاخوة المريميين ، الذين كنا نتصورهم ملائكة في ثيابهم السوداء المهيبة ، وذقونهم الشقراء الوقورة ، وصلبانهم المتدلية من أعناقهم ، ليسوا الا كسائر البشر لهم نزواتهم ، وأخطاؤهم ، وليسوا منزهين عن الهوى أو الغرض.. وكان الحادث ، على قلة أهميته ، اختبارا لقدرتي على مجابهة الظلم والتعسف ، ورفض التسويات الجزئية والحلول الوسط .

وكان بنتيجة هذه الغلطة العابرة التي بدت لي فظيعة في ذاك الوقت ، أن صممت على ترك المدرسة ، وأصررت على الانتقال الى الكلية العلمية الوطنية لمؤسسها الدكتور منيف العائدي شقيق الشهيد شوكت العائدي الذي سقط برصاص الفرنسيين ابان الثورة السورية؛ وكسبت بهذا الانتقال سنة كاملة . وقد أفدت من هذا المعهد الوطني الذي مكثت فيه سنة واحدة ، أيما فائدة ، وخاصة في مواد الادب واللغة العربية والتاريخ ، بالرغم من انعدام أي ميل لدي لدراسة هذه المواد . وكان الفضل في ذلك لوجود عدد من الاساتذة القديرين، كان من بينهم الشاعر الدمشقي الكبير الاستاذ خليل مردم بك ، الذي كان بهدوئه وصفائه وسمو أخلاقه وغزير علمه وأدبه وروائع شعره ، نفحة عطرة لا في جو المدرسة وحدها ، بل في المدينة نفسها،

وفي دنيا العروبة كلها • وكان يتولى التدريس أيضا الاستاذ عثمان الحوراني ، والدكتور أمجد الطرابلسي والشيخ بهجة البيطار • وكان الشيخ عبد الرؤوف أبو طوق يدرسنا مادة التربية الدينية ، وكنا نلتف مع أترابنا حوله في حلقات التدريس التي كان ينظمها في شهر رمضان في المسجد الاموي •

وكان من بين زملائي في الصف ، في تلك السنة ، الشاعر العاطفي الاستاذ نزار قباني • فقد كنا نطلع منه على بواكير شعره الجزل الغزير ، كما كنا نترنم بصوته الجميل الذي كان يحاكي فيه صوت المطرب السيد فريد الاطرش ، اذ كان مغرما بأغانيه وألحانه ، يرددها على مسامع الخلص من أصدقائه في فرص الاستراحة •

★ ★ ★

وبانتهاء السنة الدراسية ، انتقلت مرة جديدة الى المعهد العربي الفرنسي ( اللاييك ) ، لأن أهلي ، بعد أن تعودوا على نظام مدرسة « الفرير » القاسي ، لم يرتاحوا كثيرا لجو الكلية العلمية الوطنيةالتي كان يديرها الدكتور عبد الكريم العائدي شقيق الدكتور منيف العائدي ، لأن نظام هذه المدرسة كان رخوا في نظرهم •

وكان المعهد العربي الفرنسي يمتاز بقلة طلابه وكثرة المدرسين فيه ، وكانوا بمعظمهم من الاساتذة الفرنسيين المختصين بالمواد التي يدرسونها • وكان يدرس الادب العربي فيه الدكتور ابراهيم الكيلاني ، ويدرس اللغة العربية الاستاذ أبو الخير القواس ، كما يدرس مادة الجغرافيا العربية الدكتور عزة النص •

أما مادة تاريخ الحضارة العربية ، فقد درسنا اياها الاستاذ ميشيل عفلق ، والحقيقة التي يجدر ذكرها هي أن محاضرات الاستاذ عفلق كانت من نوع خاص ، فهو بالرغم من انخفاض صوته ، وبطئه في

الكلام ، كان يسحر طلابه بمحاضراته القيمة التي كان يلقي فيهـا الضوء على تاريخ الامة العربية وحضارتها السامية ، فكانت تبعث البهجة والغبطة في نفوسنا الغضة التواقة لمعرفة تراث أمتنا المجيد ، وتاريخ حضارتها التليد ، نظرا لأن برامج التعليم كانت تهتم بتدريس التاريخ الفرنسي الذي أتخمنا به منذ مرحلة التعليم الابتدائي حتى نهاية مرحلة التعليم الثانوي .

كان الاستاذ عفلق يحدثنا ، في محاضراته القيمة ، عن الامة العربية ، مبرزا شخصيتها وخصائصها وطابعها المميز بين الامم ، وعن حضارتها ممثلة في معاركها وتعاليمها الروحية وتقاليدها ومفاهيمها وفلسفتها في الوجود والحياة ، وعن فنونها وثقافتها الثرة الغنية التي أضحت قوام وجودها الروحي .

وكان حديثه المتع المفيد يتناول الوطن العربي ، وما يمثله في تاريخ الانسانية ، التي كان مهدا لها ، من قيم ؛ ويشرح باسهاب تاريخ الامة العربية ، كيف نست ، وترعرعت ، وأخذت ، وأعطت ، وكونت لنفسها نظاما وفلسفة ، وكيف أثرت علومها وفنونها وآدابها في ثقافة العالم الحديث ، كما تشهد بذلك كتابات العلماء والمؤرخين .

وكان بعد القاء الضوء على كنوز الثقافة العربية ، لا يلبث أن يشير الى أن مرحلة الركود التي مرت بها الامة العربية ، قد انقضت، وأن الساعة أزفت ليستأنف العرب مسيرتهـم الحضاريـة ويؤدوا رسالتهم الانسانية من جديد .

كانت تلك الاحاديث القيمة والمحاضرات الغنية تفعل في نفوسنا الغضة ، فعل الغيث في الارض العطشى ، وكانت تبعث فينا الامل والتفاؤل بمستقبل زاهر لوطننا العربي ..

وأعتقد أن هذا الاستاذ القدير ، لو اكتفى بتوجيه اهتمامـه

لمتابعة وظيفة التدريس وبالانصراف الـى تأليف الكتب الثقافيـة والتاريخية واغناء المكتبة العربية ، لكان خدم وطنه وأمته بشـكل أوفى ، ولجنت منه أجيال الطلاب العرب فوائد أعظم •

والشيء البارز في حياة هذا الرجل السياسية ، أن زعامته كانت هشة ولم تكن لتصمد كثيرا أمام الاعاصير ، وان كان البعض يرون له العذر في ذلك ، لأن من مميزات السياسي الناجح في نظرهم ، هو اللين والمرونة والقدرة على الانحناء أمام العواصف ريثما تهـدأ وتعود الامور الى مجراها الطبيعي ••

★ ★ ★

عندما دخلت جيوش الحلفاء الاراضي السوريـة عـام ١٩٤١ كنت في الصف النهائي من المرحلة الدراسية الثانوية أستعد لفحص البكالوريا ( القسم الثاني ــ فرع الرياضيات ) • وقد اضطرب سير الدراسة ، آنئذ ، في المعهد العربـي الفرنسي ، بسبب سـفر بعض المدرسين الموالين لحكومة فيشي •

وجرى تعطيل المدارس وتعليق الفحوص العامة لأجل غير مسمى• وقد ودعنا المدرسون المسافرون وداعا مؤثرا • وكانت آنئذ عواطف معظم الطلاب معهم تبعا لكونها مؤيدة لدول المحور المعادية للحلفاء وخاصة الانكليز لأنهم كانوا حلفاء للصهيونية ، ومسؤولين في نفس الوقت عن احتلال أراضي الوطن واقتسامها بعد تجزئتها الى دويلات في أعقاب الحرب العالمية الاولى •

وكان أحد هؤلاء المدرسين وهو السيد ( بلليه ) الذي كان يدرس مادة الرياضيات ، محبوبا جدا من الطلاب ، لكفاءته ، ولطفه، وعطفه على العرب • وبالرغم من تحاشيـه التدخـل في الشـؤون السياسية ، خلال قيامه بواجب وظيفته كمدرس طيلـة السـنوات

السابقة ، فقد استفاد من فرصة الوداع وراح يحدثنا بصراحة تامة حديثا مسهبا عبر فيه عن حقيقة مشاعره نحو طلابه السوريين ونحو بلدهم . وكان من جملة ما قاله : « أنا لم أكن أسمح لنفسي أثناء وجودي بينكم طيلة السنوات السابقة ، أن أتطرق للمواضيع السياسية التي تخص بلدكم ، لأن ذلك كان خارجا عن نطاق عملي ؛ ولكنني الآن وأنا على وشك مغادرة ربوع وطنكم ، أجد من واجبي نحوكم ، وأنا أنظر اليكم كما كنت أفعل دائما ، كأبنائي ، أن أصارحكم بحقيقة ما يجيش في صدري من هواجس وعواطف . ان فرنسا ، عندما احتلت أرضكم تحت ستار الانتداب على شعبكم ، لم تقم بواجبها الاساسي كما يمليه عليها صك الانتداب . وقد اتبعت لدى معالجة شؤونكم السياسة الملتوية التي لم تكن تبتغي منها رعاية مصالحكم ، ومن هنا كانت برامج التعليم التي طبقتها في مدارسكم ومعاهدكم مبتورة ومشوهة ولم تتح لكم فرصة تأسيس معاهد علمية وافية وهي غالبا ما تسعى لابعادكم عن سلوك السبل التي تساعدكم على النهضة بوطنكم الذي يتمتع بخصائص ومزايا عديدة ، ويحتوي على ثروات دفينة ، تحتاج لسواعدكم لتكشفوا عنها وتستغلوها . وهذا لن يتأتى لكم الا بتحصيل العلم والمعرفة وخاصة في ميدان العلوم التكنولوجية والهندسية . وأنا كمدرس للرياضيات ، قد لاحظت تفوق الكثيرين من الطلاب الذين تعاقبت على تدريسهم هذه المادة ولمست كيف أنهم متفوقون ذهنيا ، وليسوا دون مستوى الطلاب الاوربيين . لذلك فعليكم وأنتم أبناء هذه البلاد أن توجهوا اهتمامكم للاختصاص العالي ولدراسة العلوم على اختلاف فروعها ، وأن تشمروا عن سواعدكم لتبنوا نهضتكم بعزائمكم وتعمروا بلادكم بأيديكم وبالاعتماد على أنفسكم .. ».



وطبعا لم يكن رأي هذا المدرس الفرنسي مطابقا لآراء جميع زملائه الآخرين الذين كان بعضهم خلال مرحلة وجوده في بلادنا استعماريا متعصبا ، لا يخفي بغضه للعرب ، ولا يتورع عن معاملة الطلاب معاملة قائمة على أساس التمييز العنصري .

فالاستاذ ( ميلليه ) مدرس الادب الفرنسي ، وهو عجوز متصاب ، كان لا يفتأ يتهكم على العرب ؛ وعندما كنا نتباهى أمامه بنجاحنا وتفوقنا على الطلاب الفرنسيين، حتى في مادة اللغة الفرنسية، كان يسلم بذكاء الفرد عندنا ، ولكنه يصر على رأيه بأننا شعب متخلف ما زال بحاجة للقيادة والتوجيه .

★ ★ ★

كانت جيوش الحلفاء مؤلفة من عناصر عديدة وجنسيات مختلفة، منهم البريطان ، والفرنسيون الديغوليون ، وفيهم جنود المستعمرات كالهنود والاوستراليين والنيوزيلنديين والافارقة، ومن بينهم أيضا جنود من أبناء دول أوربا الشرقية كبولونيا وتشيكوسلوفاكيا . وكانت لكل فئة من هؤلاء طريقتهم الخاصة في سلوكهم ، في الطرقات وفي الاماكن العامة ، وفي تعاملهم مع الاهالي الوطنيين .

وبالرغم من اعلان فرنسا الحرة بلسان الجنرالين ديغول وكاترو لاستقلال سورية ولبنان صبيحة دخول الحلفاء الأراضي السورية واللبنانية ، فقد كانت التعبئة لنفوس المقاتلين الفرنسيين معادية لأماني الشعب في القطرين العربيين ، وظلت الأداة الفرنسية على ما كانت عليه في السابق ، من تسلط على مقدرات الشعب فيهما .

وكان شعور العداء يتجلى ، أكثر ما يكون ، في سلوك الجنود الديغوليين ؛ فلم يكونوا ليتورعوا عن تحدي شعور المواطنين بشتى السبل . وفي عصر أحد الايام ، بينما كنت مارا في شارع فؤاد الاول

( بور سعيد حاليا ) ، كان ثلاثة من الجنود الافرنسيين يمشون وهم سكارى يترنحون في سيرهم على الطريق العام ، ولا يكفون عن التحرش بالاهلين . ولحظة مروري من جانبهم ، وملاحظتي لعربدتهم، جربت الابتعاد عنهم بتركي الرصيف الذي كنت أسير عليه ، فما كان من واحد منهم الا أن اتجه نحوي ودفع بيده طربوشي الذي مال قليلا من فوق رأسي . كنت يومئذ في مطلع شبابي لم أكد أتجاوز الثامنة عشرة من عمري ، فصعب الامر علي ، وهجمت عليه أصفعه بكلتا يدي . ولما حاول زميلاه المخموران مؤازرته ، صرت أدفعهما عني بقوة لكماتي وبقدمي ، وكانت كفتي هي الراجحة لتحفزي لصد أية حركة تصدر عنهم ، ولحالة السكر الشديد التي كانوا عليها جميعا ، لولا أن قدم من خلفهم خمسة جنود فرنسيين ، وكان هؤلاء في حالة صحو تام ، على عكس رفاقهم ، فانهالوا علي جميعا باللكم والضرب بشكل لم أستطع معه مقاومتهم ، لأن الضربات كانت تنصب على رأسي وجسمي من كل جانب .

وكان همي أن أحافظ على الطربوش ، وأنا ممسك به بيدي ، لأن الطربوش في ذاك العصر كان بمثابة شعار وطني للأهلين . وكان الآباء أشد حرصا على عدم تخلي أبنائهم عنه لأنه كان في نظرهم رمزا للشرف ، وعنوانا لتمسك العربي بعروبته ، بالرغم من أن هذا الزي هو من صنع أوربي ، نقله الاتراك عن طريق أوربا الشرقية وفرضوه على الشعوب التي يحكمونها كزي قومي ورسمي .

كانت الضربات أليمة جدا . والناس من حول المعتدين يشكلون حلقة كبيرة ، وفيهم بعض أفراد الشرطة المدنية ، ولكن لم يتجاسر أحد منهم لنجدتي خوفا من بطش السلطات العسكرية الفرنسية ، التي كانت ، نظرا لحالة الحرب ، تحاول تشديد الخناق على المواطنين بزعم حرصها على المجهود الحربي . ولم ينقذني من هذه « الورطة »

الخطيرة ، الا قدوم اثنين من الجنود الاوستراليين ، تدخلا لانقاذي من براثن الفرنسيين الشرسين ، مستخدمين من أجل ذلك قبضاتهما الفولاذية التي جعلت الجنود الفرنسيين يتراجعون أمامهما ويهربون .

وقد لحقت بي من جراء الحادث رضوض شديدة وكدمات وانتفاخات عديدة في رأسي ووجهي ، فاتجهت وأنا بهذه الصورة الى مقر مديرية الشرطة المدنية قرب سراي الحكومة ، حيث كانت ترابط مفارز من الفوج الثالث التابع للجيش الخاص ، والمؤلف بأغلبيته من الجنود العلويين . وكانت تلك المفارز تتناوب في تشكيل دوريات تجوب الشوارع للحفاظ على انضباط العسكريين الخاضعين للقيادة الفرنسية . ولحسن حظي التقيت بالمساعد السيد الدوجي الصواف الذي كان يعرفني تمام المعرفة ، فتأثر لحالتي ، ولما رويت له الحادثة، أسرع بتسيير دورية من جنوده ، سار على رأسها ، واتجه معي الى طريق الصالحية ، وأمله ضعيف بالعثور على المعتدين والقاء القبض عليهم ، نظرا لانقضاء فترة من الوقت على الحادث .

وعندما وصلت الدورية الى بوابة الصالحية ، كان الجنود الفرنسيون الثلاثة السكارى يواصلون الاعتداء على الاهلين ، وقد ألقت الدورية القبض عليهم في اللحظة التي كانوا يعتدون فيها على رجل كهل ويتقاذفون طربوشه ويمسكون بتلابيبه ، وهو يحاول مذعورا التخلص منهم . ولما تمردوا ورفضوا الانصياع ، انهال الجنود السوريون عليهم بأعقاب البنادق ، وساقوهم الى مركز الشرطة بواسطة عربة من العربات التي كانت تجرها الخيول وتجوب الشوارع لتأمين النقل الداخلي في المدينة .

وقد لحقتهم أنا بعربة ثانية استأجرتها في الطريق ، وعند وصولي الى مركز الشرطة ، كان صف الضابط السوري السيد الدوجي

وجنوده يقومون بتأديب الجنود الفرنسيين تأديبا قاسيا ساعد على شفاء غليلي ، وان كنت لم أشف من اصابتي الا بعد فترة طويلة تعطل خلالها سير دراستي واستعدادي للفحص النهائي ؛ وتبخرت جميع المعلومات من ذاكرتي ، ولم يكتب لي النجاح في فحص البكالوريا في تلك السنة الا في الدورة الثانية التي أجريت في شهر تشرين الثاني من العام نفسه •

★ ★ ★

كان ميلي شديدا أثناء فترة الدراسة الثانوية ، لمادتي العلوم والرياضيات ، وكنت مهيئا نفسي لدراسة الهندسة الكيماوية والكيمياء الصناعية ؛ وكان لحديث أستاذ الرياضيات السيد (بلليه) لدى وداعنا لدى سفره قبل نهاية العام الدراسي ، أبلغ الاثر في توجيهنا في هذا الاتجاه • ولكن ظروف الحرب العالمية الثانية التي كانت تحول دون السفر الى الخارج من جهة ، وعدم وجود معاهد علمية عليا في الجامعة السورية ، من جهة ثانية ، اضطراني مكرهـا لتغيير اتجاهي ، وقد أدى ذلك طبعا الى تغيير كلي في مجرى حياتي•

فقد وجدت نفسي أمام اختيار محدود ، دراسة الطب ، أو الحقوق • فاخترت أهون الشرين ، وانتسبت الى معهد الحقوق العربي ، بأمل أن تنتهي الحرب ، فأتمكن بعدها من السفر • ولكني نلت اجازتي قبل نهاية الحرب •

كانت دراسة الحقوق ، رغم عدم ميلي اليها ، سهلة • وكان يدرسنا عدد من جهابذة الاساتذة ، كان من بينهم العلامة الاستاذ فارس الخوري وأخوه الاستاذ فائز الخوري ، والاستاذ محمد سعيد المحاسني ، والدكتور سامي الميداني ، والاستاذ عثمان سلطان ، والدكتور احسان الشريف ، والدكتور محسن البرازي ، والدكتور

أحمد السمان ، والدكتور منير العجلاني ، والدكتور فريد زين الدين ، والدكتور عدنان الاتاسي ، والاستاذ عبد الجواد السرميني، والدكتور محسن شفيق ، وشيخان جليلان هما الدكتور أبو اليسر عابدين والاستاذ مصطفى الزرقا •



# في رحاب العدالة

**« حيث ينتهي القانون ، يبدأ الطغيان »**

« وليام بت »

لدى تخرجي من معهد الحقوق العربي في دمشق ، عام ١٩٤٤، اخترت العمل في مهنة المحاماة خلافا لرغبة والدي ، وقد رجوته أن يحدث صديقه ، المحامي الاستاذ محمد سعيد المحاسني ، كي يقبلني متمرنا في مكتبه •

وكان الاستاذ المحاسني محاميا لامعا اكتسب شهرته الواسعة، بذكائه الحاد ، وبراعته الفائقة ، ولسانه اللاذع الذي كان يحسب له القضاة والمحامون ألف حساب ، بالرغم من علة الثأثأة التي رافقته من صغره ، هذا بالاضافة الى علمه الغزير ، وتعمقه في دراسة الفقه الاسلامي والقانون المدني • وقد ظل لسنوات طويلة أستاذا في جامعة دمشق يدرس الفقه المدني ومجلة الاحكام العدلية لطلابه ، وكنت واحدا منهم •

ولدى شروعي في ممارسة العمل في مهنة المحاماة وذهابي الى مبنى العدلية القديم الكائن في ساحة الشهداء ، صادفت محاميا

مسنا ، كان أبا لزميل لي في الدراسة الثانوية ؛ وقد تعرفت عليه سابقا ، عندما كنت أزور ابنه في داره • فسألني متعجبا « ماذا تفعل هنا ؟ » • قلت له : « لقد أصبحت زميلا لكم ، فهلا تقبلوني في صفوفكم ؟ » فقال لي : « لا يابني ، انك لو أخذت رأيي سلفا ، لما شجعتك على اختيار هذا الطريق في حياتك العملية » • فظننت أنه لا يريد منافسين جددا في مهنته ، ولكنه تابع قائلا : « ان الانسان يبدو مثقلا بهمومه الخاصة في هذه الحياة ، فما بال المحامي يضيف اليها هموم الناس الآخرين ويحملها فوق كاهله ؟ » •• فقدرت أن كاهل مخاطبي قد أثقلته السنون وأضناه الزمن ، وأن رأيه السلبي عن المحاماة ربما كان ناتجا عن وضعه الذاتي ، وهو يودع المهنة والحياة التي فارقها بعد حين قصير •

كان عدد المحامين قليلا نسبيا ، والقضاة معظمهم من أبناء دمشق ؛ وحتى قضاة الصلح كانوا كهولا ، وبعضهم كانوا على أبواب التقاعد ؛ وكنت مع زملائي المحامين المتمرنين نلقى منهم جميعا معاملة حسنة وكل تشجيع •

كان الاستاذ المحاسني قد مل ، على ما يظهر ، العمل في المحاماة، بعد ممارسة دامت عشرات السنين • وكان ابنه الاستاذ أسعد المحاسني يعمل معه في مكتبه ، فلقيت من الاب والابن معاملة أخوية صادقة• وكان الاستاذ أسعد يحضر رسالة الدكتوراه بعد أن كان اجتاز فحوص الدبلوم بنجاح في المعاهد الفرنسية ، قبل نشوب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ •

وبعد أن نال شهادة الدكتوراه ، عين أستاذا في جامعة دمشق• وقد نصحني الدكتور أسعد المحاسني بأن أتابع دراستي بقصد الحصول على الدكتوراه أيضا ، ولكني لم أفعل ، لأن العمل في

المحاماة لا يتطلب حمل مثل هذه الشهادة العليا ؛ وربما كان لهزء الاستاذ المحاسني الاب وسخريته من المحامين « الدكاترة » ، بعض الاثر في عزوفي عن اتباع نصيحة ابنه •

كان القضاء السوري آنذاك مؤلفا من نوعين اثنين من المحاكم: المحاكم الوطنية وجميع قضاتها من الوطنيين ، والمحاكم المختلطة ورؤساؤها فرنسيون يشترك معهم في تشكيلها قضاة سوريون وفرنسيون •

وكان القضاة السوريون ، الذين يشكلون المحاكم الوطنية، على قدر كبير من النزاهة والصلابة ؛ وكثيرة كانت القضايا التي كانوا يجابهون فيها ضغط المستشارين والحكام الفرنسيين • ولذلك كانت الوسيلة الشائعة بين بعض المتقاضين للاستفادة من نفوذ الفرنسيين ودعمهم ، هي نقل القضايا أمام المحاكم المختلطة ، بادخال عنصر يحمل الجنسية الاجنبية فيها • ومع ذلك كان القضاء المختلط على قدر كبير من الكفاءة والنزاهة يتسنم مناصبه قضاة قديرون •

وكان جو المحاكم المختلطة ممتعا ومفيدا ، بالنسبة لمحام مبتدىء يريد اكتساب الخبرة والمران • وقد تسنى لي حضور عدد من قضايا مكتب الاستاذ المحاسني أمام تلك المحاكم ؛ وكانت تلقى أمامها مرافعات قيمة ، باللغة الفرنسية ، من قبل عدد من المحامين القديرين ، أمثال الاساتذة وديع البيطار وحنين شلهوب وجورج شاهين ويوسف كحلا وفريد شحلاوي ورزق الله انطاكي ورودلف كعيكاتي وموسى عرقتنجي وجان عنحوري وغيرهم •

وفي القضايا المدنية ، وحتى أمام المحاكم الصلحية الادنى درجة، كانت المرافعات الشفهية ، والمناقشات الفقهية تجري ، باللغة

الفرنسية ، وكأنها ندوات علمية ، تقارع فيها الحجة بالحجة ويشترك فيها القضاة بطرح أسئلتهم أو توجيه استيضاحاتهم أو بالتعقيب على أقوال السادة المحامين المترافعين • ولكن عهد تلك المحاكم لم يدم طويلا ، اذ أنه انقضى بجلاء الجيوش الاجنبية عن أديم هذه البلاد •

وكان على السوريين ، بعد نيل استقلالهم ، أن يدعموا سلطة القضاء تدعيما متينا ويصونوا استقلالها وحصانة أعضائها بشكل كامل •

ولكن ، وبالرغم من توفر النوايا الحسنة لدى بعض من تولوا المساهمة في حمل مقدرات هذه السلطة ، كالسادة عارف النكدي وأسعد الكوراني وأسعد المحاسني وعبد الوهاب حومد ونهاد القاسم ، لم تجر الامور كما أرادوا ووفق ما تقتضيه المصلحة العامة، لأن القادة الذين تعاقبوا على استلام السلطة السياسية في البلاد ، مدنيين كانوا أم عسكريين ، ومعظم وزراء العدل الذين تعاقبوا ، خلال خمس وعشرين سنة ، على رئاسة السلطة القضائية وكان معظمهم من القضاة أو المحامين ، لم يحرصوا دائما على تعزيز جانب القضاء ، بل انهم على العكس قد دأبوا على اخضاعه لسلطانهم ، وتسييره بمشيئتهم ، لخدمة أغراضهم ، وتعزيز نفوذهم ، وتدعيم مراكزهم وتقوية سلطانهم ؛ ولكنهم أخطأوا باتباع ذلك النهج خطأ مزدوجا :

أولا — بحق أنفسهم ، عندما شوهوا عهودهم وسمعتهم بتدخلهم المشين في شؤون القضاء •

ثانيا — بحق شعبهم ، اذ أسهموا عن قصد أو بدونه ، في

اضعاف هيبة القضاء والانتقاص من قدرته التامة على اقامة العدل بين الناس بالقسط والميزان •

★ ★ ★

ان التدخل في شؤون القضاء ، من قبل القائمين على رأس السلطة التنفيذية ، كان يتجلى بشكل سافر ، أكثر ما يتجلى ، في القضايا ذات الصبغة السياسية •

وحادثة واحدة رافقت انبثاق فجر الاستقلال ووقعت يوم عيد الجلاء عام ١٩٤٦ كانت نقطة البداية ، في الخط المتعرج الذي أخذت تسير عليه الامور العامة في هذا الجزء الغالي من الوطن •

ففي اللحظة التي كانت يد السيد شكري القوتلي أول رئيس للجمهورية السورية الفتية المستقلة تناول يد ضابط مخلص شجاع من ضباط الجيش العربي السوري الفتي ، العلم الوطني ، في مظاهرة وطنية رائعة ، أثناء العرض العسكري الكبير الذي أقيم في تلك المناسبة الخالدة ، كانت يد ضابط المباحث تنهال بقسوةبالضرب واللكم على طالب حديث السن يرتدي اللباس الكشفي ، وكان يصور ذاك المشهد التاريخي الخالد ، بآلة تصوير فوتوغرافية صغيرة • ولم يكن ذاك الفتى الا الشقيق الاصغر للضابط الذي كان يتسلم الراية الوطنية ، ويعطي العهد هو وزملاؤه بالحفاظ على تلك الامانة المقدسة ، وبفدائها بدمائهم وأرواحهم •

وكان الاعتداء غاشما ، ولا مبرر له البتة ، سوى أن ضابط الامن كان يريد فرض نفسه واثبات وجوده ، بشكل أو آخر ، ولو أدى الامر الى تشويه جلال الموقف والاخلال بالامن •

كانت حجته أن اخبارية سرية ، وردت الى دوائر الامن ، بأن

هناك شبكة من المخربين ، تعمل لحساب الصهاينة ، وتريد اثارة الفوضى والاضطراب أثناء العرض العسكري الكبير ، بالقاء المتفجرات في ساحة الاحتفال وعلى رئيس الجمهورية بالذات • ولكن رجل الامن المتهور ، لو كلف نفسه عناء السؤال من الفتى عن سبب وجوده في تلك الساحة ، لأطلعه على الاذن الخاص المعطى له من دائرة الامن العام ذاتها التي يعمل فيها الضابط المعتدي والذي يخوله التقاط صور تلك المناسبة القومية التاريخية •

وكان لا بد من طلب تحريك الدعوى الجزائية بحق الجاني ، ولما أحيلت أوراقها الى المحكمة الجزائية المختصة ، بدأت المناورات والمماحكات والوساطات تعمل عملها وبشكل سافر ، حتى وفرت الحماية للمدعى عليه من القصاص الذي يستحقه حسب أحكام القانون ، وكانت الحجة في ذلك حرص المسؤولين الكبار على هيبة الحكم الوطني ، وتوفير الحماية والحصانة للرجال الساهرين على حمايته •

وبعد أكثر من عشرين عاما على ذلك الحادث ذي الدلالة والمغزى البعيدين ، نعم بعد مضي أكثر من عقدين على استقلال هذا القطر العربي المجاهد ، التقيت في بلودان بالقاضي المتقاعد السيد ماجد الغزي الذي كان رئيسا للمحكمة التي نظرت في تلك الدعوى، وذكرني من تلقاء نفسه بتلك القضية المشهودة ، ملقيا اللوم كله على رجالات العهد الوطني الذي جرت فيه الحادثة ، فوجهت كلامي اليه قائلا : « ولكن هل تدري أيها الاخ الكريم والقاضي العادل أن عدم انزال القصاص الرادع بذلك الضابط المعتدي ، قد جعل من تكرار اعتداء ضباط المباحث على حريات الناس وكرامتهم سنة تحتذى ، وأن حمايته من العقاب قد شجعته هو بالذات ، وبعد قرابة ثماني

سنوات من الحادثة الاولى ، على أن يكرر المحاولة ضدي شخصيا لدى تصدي للدفاع عن أشخاص أبرياء ، جرى توقيفهم ظلما وعدوانا من قبله أثناء الحملة الانتخابية التي جرت بمناسبة الانتخابات العامة عام ١٩٥٤ » .

ولكن في هذه المرة ، لم تكن العلاقة مع حمل وديع ، كما جرى في السابق مع أخي الاصغر ، بل مع انسان متمرس ، علمه الدهر كيف يجابه الذئاب . وطبعا لم يكن من المناسب تحريك الدعوى بحق الضابط المعتدي ، لأن الوساطات والاوامر كانت كفيلة بافساد سير المحاكمة مرة أخرى .

وقد جاء الصفح ، والصفح دائما من شيم الكرام ، بعد اسداء درس أدبي تلقاه ذلك الضابط ، في كيف يجب أن يسلك الموظف الشريف ، وفي كيفية معاملة المواطنين واحترام كرامتهم .

★ ★ ★

كان الدرس الاهم الذي تلقيته في بداية عملي في المحاماة ، لا على يد أستاذي الكبير ، ولا على يد ابنه المحامي القدير ، ولا من واحد من القضاة المشهورين ولا من زملائهم المغمورين أو من النابهين من مساعديهم العدليين .

بل كان الدرس من أصغر موظف في الجهاز القضائي ، من محضر بسيط يتولى تبليغ المذكرات القضائية الى المتقاضين في محلات اقامتهم المتباعدة . قصدت ذاك المحضر ، وكان رجلا مسنا ، يرتدي بزة قديمة ويعتمر طربوشا عتيقا ، وكان يبدو الفقر عليه بشكل بارز يلفت النظر . سلمته ورقة تبليغ كنت أخذتها من المحكمة لتبليغها الى الخصم بدلالتي ، وأشفعتها ببضع ليرات سورية ورقية ، حاولت وضعها في يد الرجل الفقير .

استلم المحضر ورقة التبليغ من يدي ورفض استلام الليرات ، قائلاً بامتعاض شديد : « دع هذه الدريهمات معــك ، فربما كنت بحاجة اليها أكثر مني » •• فحسبت أن الرجل لم يقنع بالمبلغ لضآلته، وطمأنته بقولي : « أجر التبليغ ، وبعد ذلك لن أدعك الا راضيا » •

فقال لي : « لا يابني ! أنا راض سلفا بما قسمه الله لي ، واني لمكتف براتبي الضئيل الذي أتقاضاه في نهاية الشهر من خزينة الدولة لقاء عملي • أما ليراتك فلن تزيدني رغبة في أداء واجبي ولو بلغت مئات الاضعاف ، وسأقوم باجراء التبليغ بكل طيبة خاطر ، لا من أجل ارضائك بل ارضاء لضميري » •

ولما حاولت توضيح قصدي بأن ما عرضته عليه ليس مكافأة عن عمله ، بل انما هو لقاء اجرة المواصلات لكي يصل الـى بيت المدعى عليه المطلوب تبليغه ، عاد ليصر على الرفض باباء أشد ، قائلا: « لا تحاول اغرائي بكلامك المعسول ، فلن تستطيع افساد ضميري وأنا في هذا العمر ، وبعد خدمتي الطويلة في الدولة ، وبصورة خاصة لدى المحاكم المختلطة ، حيث كان بامكاني جمع ثروة طائلة ، لو سمحت لنفسي بأن أمد يدي لعطاءات المتقاضين ورشاوى الراشين» •

وبعد أن تصفح الورقة المسلمة اليه ولمح اسم المحامي الوارد فيها ، قال لي : « أنت ابن أسرة طيبة ، فلماذا تريد اتباع سـلوك معوج لا يليق بانسان مثقف وبمحام مجاز يقع عليه عبء الدفاع عن الحق وتطبيق القانون وتحقيق العدالة ؟•• » فأجبته : « ان ما فعلته لا يخرج عن العرف المتبع لدى المحاكم ، وبشكل خاص في أوساط المحضرين ، وأرجو أن لا تفسره بأنه عرض للرشوة ، والمسألة لا تخرج عن كونها ( شوفة خاطر ) أو ثمن فنجان قهوة كما يقولون » • فعقب على كلامي قائلا : « ان هذا العرف الذي تحكي عنه ، ليس الا

مظهرا من مظاهر الفساد في مجتمعنا ، وعليك أنت وعلى أمثالك واجب محاربة هذا الفساد بدون هوادة ، لا الانزلاق في مهاويه المدمرة »..

كان الرجل يتكلم وكأنه مصلح اجتماعي كبير ومعلم حاذق قدير ، وقد كبر في عيني ، بينما صغرت كثيرا في عين نفسي ، وتملكني الخجل أمامه ، بعدما سمعته من كلام ، ظلت نبراته الصادقة تتردد في مسامعي طيلة حياتي العملية .

كان الرجل الفقير غنيا في ابائه وطهارة يده وعفة نفسه ، كان ، في وظيفته الصغيرة وفي هندامه الرث ، يبدو مالكا لثروة لا يمتلكها أكبر العظماء وأغنى الاثرياء . كانت ثروته هي شرفه وقناعته التي كانت في الحقيقة كنزا ثمينا لا ينضب معينه .

اني ألتقي به أحيانا في الطريق ، وقد تجاوز الثمانين من عمره ، فأرى فيه المعلم الكبير الذي أعترف بفضله ، دون أن أمتلك الجرأة لمخاطبته مرة ثانية ولو بالشكر والاطراء . وكم كان حريا بالاجيال العديدة من موظفي وطننا ، مدنيين وعسكريين ، قضاة واداريين ، أن يقتدوا بهذا الانسان المثالي ، وأن يمضوا في أداء وظائفهم مثله بصمت وشرف ، وبعفة وأمانة ، وهم لو فعلوا ذلك جميعا ، لكان حالنا غير ما نحن عليه اليوم ، وبالتأكيد لكان الاعداء قبل الاصدقاء قد احترمونا وتهيبوا وضع أقدامهم على عتبة بلادنا . لا شك أن الشرفاء من أبناء شعبنا كثيرون ، وأمثال هذا الرجل في مجتمعنا عديدون ، ولكن الكثير من المناصب الحساسة والمراكز الهامة ، قد تسلط عليها في مراحل الحكم الوطني ومنذ فجر الاستقلال ، أشخاص ضعاف النفوس ، فيهم الانتهازيون النهمون والجياع الجشعون ، فكانت هذه هي الثغرة التي تمكن الاعداء من النفاذ من خلالها ، الى نفوسنا ، وضمائرنا ، وصفوفنا ، ومجتمعنا ، حتى بات

هذا المجتمع مهددا دائما بخطرهم ، ومعرضا لا لعدوانهم فقط ، بل لعبثهم الدائم بمقدراتنا ، نحن أبناء الشعب وأصحاب هذه الارض ، نعيش عليها وكأننا دمى في أيديهم يحركونها كيف يشاؤون .

★ ★ ★

قبل انهاء فترة تمريني في المحاماة ، كلفت بمهمة رئيس ديوان نقابة المحامين في دمشق ابان عهد نقيب المحامين الدكتور سامي الميداني ، وأصبحت خلفا لرئيس الديوان السابق المحامي الاستاذ هشام دياب الذي التحق يومئذ بوظيفة في السلك الخارجي . والدكتور الميداني كان في ذاك الوقت عميدا لمعهد الحقوق العربي في دمشق ، ثم أصبح فيما بعد رئيسا للجامعة السورية ، كما كان شريكا للاستاذ المحاسني في مكتبه ، وهو رجل خلوق على جانب كبير من الرقة والتهذيب ، وانتخب بعده الاستاذ أحمد فؤاد القضماني نقيبا للمحامين ، فقابلني منذ البداية بروح عدائية واضحة ، نظرا لجو الخلاف والبغضاء بينه وبين الاستاذين المحاسني الاب والابن. وفكرت رأسا بترك رئاسة ديوان النقابة والانصراف بكليتي الى العمل في المحاماة ، ولكن الدكتور المحاسني الابن نهاني عن ذلك ، معتبرا أن تخلي عن تلك المهمة ، سيكون نصرا للنقيب الجديد في خطته الرامية الى السيطرة على النقابة ومهنة المحاماة بآن واحد . وتابعت القيام بتسيير شؤون ديوان النقابة بصمت . ولكن المحامين كانوا منقسمين الى جبهتين ، جبهة موالية للنقيب الاستاذ القضماني، وجبهة معاكسة له ، وكان الاستاذ القضماني يفترض بالضرورة أني من الجبهة الثانية ، لذلك لم يخل الجو بينه وبيني من الشحناء ، بالرغم من سعيي الدؤوب لأداء واجبي على أكمل وجه .

وقد اضطررت بعد فترة لأن أستقيل من رئاسة ديوان النقابة،

مؤثـرا الانصـراف للعمل في المحامـاة • وقـد عرض عـلي النقيب الاستاذ القضماني ، وقتئذ ، مشاركته في مكتبه ولكني اعتذرت ، مفضلا افتتاح مكتب مستقل أمارس فيه المهنة لوحدي •

★ ★ ★

وفي رئاسة ديوان النقابة تسنى لي الإطلاع عن كثب على أحوال المسجلين في الجدول ، وعلى أولئك المجازين في الحقوق الذين كانت تستهويهم أضواء مهنة المحاماة الساطعة ، فيتجلببون بردائها الاسود، ويحملون هموم الناس طيلة العمر •

ومن بين هؤلاء ، شاب موسوي يحمل الجنسية الايرانية ، تقدم بطلب تسجيله في سجل المحامين ، مستفيدا من نص في قانون المحاماة القديم ، كان يجيز لرعايا الدول المنتسبة لعصبة الامم ممارسة المحاماة في الاراضي السورية •

وقد ظل هذا المحامي ، الاجنبي الجنسية ، يمارس مهنته أمام جميع المحاكم السورية بحرية تامة ، دون أن يتعرض في يوم من الايام لمعارضة أية من السلطات السورية لأية معاكسات ، رغم استفحال النزاع العربي الاسرائيلي ، ورغم مزاعم اسرائيل الباطلة بأن اليهود السوريين يعانون من الاضطهاد الطائفي والتمييز العنصري •

والحالات الوحيدة التي جعلت السلطات تتدخل أحيانا في شؤون ذاك المحامي ، كانت عندما تنهض الادلـة على أنـه يمارس الطب ويداوي المرضى في مكتبه ، الى جانب الدفاع عن موكليه أمـام المحاكم السورية •

لقد توفي الزميل الايراني الجنسية واليهودي العقيدة ، بعد أن مارس المحاماة بين ظهرانينا قرابة ربع قرن • وقد استحق ورثته

راتب التقاعد من صندوق مؤسسة تقاعد المحامين ، كما استفادوا من صندوق الضمان الاجتماعي بتقاضي مبلغ خمسة عشر ألف ليرة سورية ساهم بدفعه ، بطيبة خاطر ، جميع المحامين العاملين في سورية، دون أن يكون زميلهم المتوفي قد أسهم جديا بتغذية صندوق الضمان المؤسس حديثا قبيل وفاته •

ان مجتمعنا كان ولا يزال لا يعرف التعصب الديني أو التمييز الطائفي أو العنصري • ولكن شعبنا العربي مجبول ، بحكم طبيعته وتكوينه وماضيه ونزعة أفراده ، على رفض الظلم ومجابهة العدوان؛ ولذلك ، فانه لم يقبل ولن يقبل أن يقتطع جزء ، مهما صغر ، من أرضه ليكون وطنا قوميا لغير أبنائه وقاعدة لأعدائه •

ان فلسطين كانت وما زالت عربية ، رغم ما يسودها حاليا من اغتصاب لأراضيها وعدوان شرس على شعبها • وان أرض الوطن العربي تتسع لجميع أبنائه ، على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وطوائفهم، ولكن ليس فيها أي متسع للغزاة المعتدين ؛ وهي لن تلبث ، عاجلا أم آجلا ، أن تطردهم من أرجائها ، وتجعل من جوفها مقبرة لمن يحاول المكابرة منهم والمضي في عدوانه ؛ وانها ترحب بالاجانب ضيوفا أعزاء مكرمين ، ولكنها تلفظهم وبقسوة عندما يأتون بزي مغتصبين•

★ ★ ★

وقد خلف الدكتور المحاسني الاستاذ القضماني كنقيب للمحامين بعد معركة انتخابية حامية الوطيس جرت بينهما • وبانتهاء دورة النقيب الدكتور المحاسني ، انتخب الاستاذ عبد القادر الميداني نقيبا للمحامين ، وجرى انتخابي عضوا متمما في مجلس النقابة • وقد شاركت المجلس في تصريف شؤون النقابة وفي معالجة مشاكل المحامين ، وهذه واحدة من تلك المشاكل :

ألقي القبض على الدكتور مصطفى أمين ، وكان لا يزال محاميا متمرنا ، فمضى على اعتقاله أكثر من عشرين يوما ، دون أن يحال الى القضاء ، ودون أن تصدر بحقه أية مذكرة توقيف قانونية • فأثرت موضوع هذا التوقيف التعسفي أمام مجلس النقابة ، وألححت على النقيب الاستاذ الميداني للقيام بسعى خاص لدى السلطات العليا للافراج عن الزميل المعتقل ، فلم يبد سيادته تحمسا للفكرة ، بحجة أنه يصعب التفاهم مع العسكريين الذين يريدون ارهاب الشعب بمثل هذه التصرفات الكيفية ، وأن مجلس النقابة بعدد أعضائه الضئيل لا يستطيع التأثير عليهم في مثل هذا الموضوع • فاقترحت عليه أن نشكل وفدا كبيرا يضم بعض النقباء السابقين والمحامين البارزين ، بالاضافة الى هيئة مجلس النقابة ، فوافق على ذلك ، ودعا بعض هؤلاء ، وكان من بينهم النقيب الدكتور أسعد المحاسني وعضو مجلس النقابة السابق الاستاذ رضا العظمة • وقابل الوفد ، بناء على موعد سابق ، رئيس الدولة اللواء فوزي سلو الذي رحب بزائريه ترحيبا جميلا • ولكن عندما أثير موضوع المحامي المعتقل ، تغيرت لهجته وسأل باستغراب : « وما علاقتكم أنتم بالامر » • فأجابه النقيب الاستاذ الميداني : « ان الامر يتعلق بزميل لنا ، مسجل في جدول نقابتنا ، ونحن مهتمون بوضعه لهذا السبب ، وقد جئنا نرجو أن تعامله السلطات معاملة تتمشى مع أحكام القانون » • فعلق رئيس الدولة على هذا الكلام وبسخرية زائدة : « قانون ؟ مرحبا قانون !•• نحن دسنا بأقدامنا الدستور الذي تسمونه أبا القوانين ، ولم يرتفع أي صوت في البلد • لا ، لا ، الله يرضى عليكم ، فحكاية القانون يمكن أن تبحثوا فيها لدى المحاكم في القضايا التي تتوكلون فيها ، أما عندنا فلا مجال للبحث لا في القانون ولا في غيره ، ونحن نفعل ما نشاء ، ولا شأن لكم أنتم في ذلك » • ولما أراد أعضاء الوفد

الاستيضاح عن الفعلة المنسوبة لزميلهم الموقوف ، حتى يعامل أسوأ مما يعامل به المجرمون ، أجابهم رئيس الدولة : « هل يعقل أن نعتقل بريئا ؟ •• » فقلنا له : « ما دام الامر كذلك ، فلماذا لا تحاكمونه أمام القضاء ، حتى اذا ثبتت اداتته ، قضي عليه بالعقوبة التي يستحقها؟» • فأجابنا بحدة وكأنه يريد حسم النقاش : « اننا سنعدمه ، بدون محاكمة ، ولن تستطيعوا أن تفعلوا أي شيء » ••

وتجاه هذا التحدي الصارخ للقانون ورجاله ، والطريقة الخشنة التي قابلنا بها رئيس الدولة المزيف ، لم يسعنا الا أن ننسحب مستنكرين هذا الاسلوب غير المألوف في معالجة شؤون الدولة وقضايا المواطنين وفي الافتئات على حرياتهم •

★ ★ ★

لقد كان بامكان رئيس الدولة ، أن يستعمل الحكمة في تلك المقابلة ، كأن يتظاهر بعدم معرفة أي شيء حول الموضوع ، أو يعد بدراسة المسألة مثلا ، غير أنه تعمد ، على ما يبدو ، اتخاذ هذا الموقف الصارم ، ليدلل على أنه صاحب الكلمة الاولى وأنه ذو سلطان عظيم •

ولكن المفارقة المضحكة هي أن صاحب السلطان الفعلي ، وهو العقيد أديب الشيشكلي أمر في اليوم التالي ، وبناء على مكالمة هاتفية من معاون رئيس الشعبة الثانية الملازم الاول هشام الميداني الذي نصحه بعض المحامين ، بأن اعتقال زميلهم يثير ضجة ، لا مصلحة للسلطة بتركها تتعاظم وتتضخم ، أمر بالافراج عن الدكتور أمين الذي كاد مجلس نقابته يوصله الى حبل المشنقة بمراجعته لأعلى مسؤول في الدولة ، لو لم تسعفه مداخلة بعض زملائه الشبان ، بمراجعتهم لمسؤول صغير في الشعبة الثانية •• وقد أوضح الدكتور أمين ، لدى

ظفره بحريته ، أن التهمة المنسوبة اليه كانت القاء متفجرة على مبنى السفارة الاميركية • والحقيقة ، ان بعض عناصر الشعبة الثانية ، هي التي كانت اصطنعت الحادث ، بناء على أوامر خاصة من العقيد أديب الشيشكلي الذي كان يريد أن يتخذ منه سببا لملاحقة العناصر اليسارية ، ارضاء لحكومة الولايات المتحدة الاميركية •

★ ★ ★

انتخبت مرة ثانية عضوا في مجلس ادارة تقاعد المحامين ، في عهد نقيب المحامين الاستاذ ظافر القاسمي الذي قاد بحنكة وشجاعة كفاح المحامين ضد العهد الدكتاتوري الذميم •

كما انتخبت ، بعد ذلك ، عضوا أصيلا في مجلس نقابة المحامين، في الدورة الانتخابية التي فاز فيها الدكتور عدنان القوتلي نقيبا ، وقد وجه اهتمامه العظيم لعقد مؤتمرين كبيرين للمحامين العرب ، وللحقوقيين الآسيويين الافريقيين ، في مدينة دمشق •

# ٤

## الى الساحة الدولية

**« دعونا نثق في أن العمل المستقيم الصائب يمدنا بالقوة والعزم والقدرة دعونا نعمل بهذه الثقة حتى النهاية ، شاعرين بالجرأة على أداء الواجب كما نفهمه » .**

« ابراهام لنكولن »

كان النشاط النقابي يشكل نافذة واسعة تساعد على الاطلال على بعض أحوال وطننا الكبير والعالم الواسع من حوله ، وعلى معالجة القضايا العامة من زاوية الحق والقانون . والعمل النقابي هو، بحد ذاته ، جزء من الكفاح السياسي في سبيل تحقيق المبادىء والاهداف .

★ ★ ★

ففي مؤتمر المحامين العرب الثاني الذي عقد في القاهرة في أوائل شهر آذار ( مارس ) ١٩٥٦ ، وكنت آنئذ عضوا في مجلس نقابة المحامين بدمشق ، حضرت اجتماع المكتب الدائم للمؤتمر ، وقد صار عقده قبل أيام من انعقاد المؤتمر الكبير .

وقد تسنى لأعضاء المكتب الدائم للمؤتمر ، الممثلين لنقابات المحامين في البلاد العربية مجال مقابلة الرئيس جمال عبد الناصر ، وكان آنئذ قد أصبح قائدا لمجلس الثورة ورئيسا لمجلس الوزراء بعد تنحية اللواء محمد نجيب عن جميع مناصبه وفرض الاقامة الجبرية عليه في منزله • وقد توجه أعضاء الوفود الى مقر مجلس الوزراء في الموعد المحدد من قبل ديوان الرئاسة ، للقاء الرئيس المصري الشاب • وفي بهو مبنى الرئاسة احتشد النقباء ، وأعضاء النقابات الشيوخ والكهول والشبان ، ومعهم لفيف من عقيلاتهم•• وطال الانتظار أكثر من ساعة ونصف عن الموعد المضروب ، والجميع واقفون على أقدامهم ، بانتظار ظهور الضابط الثائر على النظام القديم • وقد اعتذر بعض رجال القيادة عن تأخر سيادة الرئيس في استقبال زائريه ، بالحرج الكبير الذي أحدثه اصطحاب بعض هؤلاء لزوجاتهم معهم ، ذلك لأن قائد الثورة لم يألف بعد الظهور في مجتمع يضم بين أفراده ممثلات عن الجنس اللطيف • ولم يكن من اللائق طبعا انصراف السيدات الحاضرات اللواتي كن أشد لهفة من الرجال للنيشن بوجه الثائر الاسمر • وأخيرا ، وبعد طول انتظار ، صار خرق التقليد الثوري ، وقدم السيد الرئيس محاطا ببعض أفراد حاشيته ، واستقبل الزائرين والزائرات مرحبا بهم جميعا في أرض مصر الثورة • وبعد أن ألقى بعض رؤساء الوفود كلمات التأييد والثناء ، أخذت للمشهد بعض الصور التذكارية • وخرج البعض من ذلك اللقاء مبهورا بقوة شخصية البكباشي الثائر الذي سيقود شعبه الى العزة والنصر ، ووجدوا فيه أملا كبيرا من آمال الامة العربية ، بينما لم يخف البعض الآخر انطباعه بأن تسلق هذا الرجل العسكري على قمة الهرم ، ليبسط سلطانه المطلق على مواطنيه ، لن يكسبهم وهم أصحاب التراث الفرعوني ، الضخم ، الحافل بمظاهر تأليه

الحاكم ، وعبادة الشخصية ، الا المزيد من مآسي الدكتاتورية التي سيكتوي بنارها الجميع ، لأن الديكتاتورية لا تجر على الوطن الا الفشل والهزيمة .

★ ★ ★

وقد رعى سيادة الرئيس حفلة افتتاح المؤتمر الـذي عقـدت جلسته الاولى يوم السبت الواقع في ٣ آذار ( مارس ) ١٩٥٦ في قاعة الاحتفالات الكبرى في جامعة القاهرة ، وألقى كلمة الافتتاح التي رحب فيها بانعقاد المؤتمر وتمنى له « أن يكون هو والمؤتمرات التي تشبهه وتجرى على منواله هاديا الى التقارب والتفاهم والتماسك » ، ولم يشر سيادته الى فكرة الوحدة العربية وكفاح العرب الطويل من أجلها ، لا من قريب ولا من بعيد .

★ ★ ★

وفي اليوم الثاني من انعقاد المؤتمر الذي استغرق ستة أيام ، وبعد انتهاء حفلة الافتتاح وتوزيع العمل بين أعضاء الوفود الذين انقسموا الى لجان عديدة ، تقدمت من رئاسة المكتب الدائم بمذكرة خطية تتضمن البحث في الاساليب الوحشية التي تتبعها السلطـة الحاكمة آنئذ في العراق في محاربة معارضيها ، ومن جملتها تجريدهم من جنسيتهم العراقية ونفيهم من وطنهم الغالي ، وطلبت احالة المذكرة الى المؤتمر لاتخاذ قرار باعتبار التجريد من الجنسية تدبـيرا غـير انساني ، والتوصية بالغاء عقوبة النفي والابعاد في كافة الاقطـار العربيـة .

ولم تكد المذكرة تسلم الى أمانة سر المؤتمر ، حتى تراكض عدد من الزملاء المصريين وهم يستنكرون اثارتي لموضوع خطير سيسبب

مشاكل واحراجات يمكن تفاديها بسحب المذكرة[1] .

(1) نص المذكرة :

**الى رئاسة المكتب الدائم لمؤتمر المحامين العرب الثاني**

تحية الحق والعروبة .

لكل انسان حي ان يعيش على أرض وطنه وان يتمتع بجنسيته يمارس حقوقه وواجباته تجاه الدولة ضمن حدود الانظمة والقوانين .

وان هذا الحق هو من حقوق الانسان الطبيعية التي كفلتها دساتير العالم المتمدن كافة .

ولكن السلطة الحاكمة في العراق العربي الشقيق عمدت ، لمكافحة معارضيها ومقاومي مشاريع الاستعمار المفروضة عليها ، الى أسلوب فريد وعجيب ، وهو تجريد هؤلاء المواطنين الاحرار من جنسيتهم العراقية وطردهم من بلدهم الغالي وتسليمهم الى السلطات التركية ليزج بهم في السجون والمعتقلات .

وان من بين هؤلاء الذين جردتهم السلطة الحاكمة في العراق من جنسيتهم وطردتهم خارج الحدود ، بعض المحامين العراقيين الذين يرسف عدد منهم بالقيود ضمن المعتقلات التركية ، وهم عبثاً يستنجدون بالحكومات العربية لانقاذهم من حالة البؤس والظلم التي يتخبطون فيها في معتقلات بلد يعاملهم معاملة العبيد المجردين من كل حق .

وقد يكون لكل دولة ان تسن التشاريع التي تكفل لها حماية أمنها وطمأنينتها بفرض العقوبات والغرامات الجزائية على كل من يحاول العبث بذلك ، ولكن ان تعمد السلطة الحاكمة في العراق الى هذا التدبير الشاذ وغير الانساني ، فهذا ما لا يقره ضمير اي مواطن عربي .

وان الواجب الانساني قبل الواجب المسلكي يدعونا لان نسارع الى نصرة أحرار العراق على اختلاف ميولهم واتجاهاتهم ، والعمل على انقاذهم من هذا السلاح الرهيب الذي لم تلجأ اليه السلطة الحاكمة في

وقد استغربت منهم ذلك الموقف من مبدأ انساني كنت أحسب

---

العراق الا لكم الافواه وصرف الشعب العربي الابي في العراق عن مجرد التفكير بمقاومة مشاريعها الاستعمارية واهمها حلف بغداد ـ انقرة ـ لندن .

لذلك أرجو احالة هذا التقرير الى اللجنة المختصة في المكتب الدائم لدراسته على ضوء شرعة حقوق الانسان ومصلحة الوطن العربي واحالته الى الهيئة العامة للمؤتمر لاتخاذ القرار بما يلي :

أولا : اعتبار التجريد من الجنسية تدبيراً غير انساني فيه اعتداء على الحرية الفردية والكرامة الشخصية ، وتحريم اللجوء الى هذا الاسلوب الارهابي الخطير .

ثانياً : التوصية بالغاء عقوبة النفي أو الابعاد في كافة الاقطار العربية ، وهذا ما عمدت اليه الحكومة السورية عندما أصدرت تشريعاً بالغاء هذه العقوبة من قانون العقوبات .

ثالثاً : توصية حكومات الدول العربية بمنح سمات السفر والاذن بالاقامة لكافة المواطنين العرب الذين حرمتهم السلطة الحاكمة في العراق من جنسيتهم وطردتهم من الاراضي العراقية وبالتالي منحهم جنسية البلد العربي الذي يختارون استيطانه .

رابعاً : تشكيل لجنة تحقيق تتولى التحري عن أسماء كافة المواطنين الذين جردتهم السلطة الحاكمة في العراق من جنسيتهم وعن أماكن وجودهم الحالية ومساعدتهم على الاقامة في الاقطار العربيةالتي يختارونها وعلى كسب جنسياتها .

خامساً : توصية نقابات المحامين في الاقطار العربية بتسجيل المحامين العرب في العراق الذين حرموا من جنسيتهم وطردوا من بلادهم في جداولها تمكيناً لهم من ممارسة المحاماة في نطاق مناطقها .

القاهرة في ٤ آذار سنة ١٩٥٦

**المحامي رياض المالكي**

عضو مجلس نقابة المحامين في دمشق

وعضو المكتب الدائم لمؤتمر المحامين العرب الثاني

سلفا أنه سينال تأييد جميع أعضاء الوفود الى المؤتمر ، وبخاصة منهم الوفد المصري الذي كان المؤتمر يعقد في بلده « الثورة » •
ولكن سرعان ما زال عجبي عندما علمت من أفواه الزملاء أنصار الثورة المتحمسين ، أن حكومتهم الانقلابية تلجأ أيضا الى تجريد بعض المناهضين لسياستها من جنسيتهم المصرية وتأمر بابعادهم عن وطنهم ، وتحول دون عودة البعض الآخر اليه ، لاتقاء خطرهم ، كأفراد ، على النظام الثوري الهادف لتحرير الشعب من طغيان النظام الملكي الفاسد وأساليبه الاستبدادية • ولكن تلك المعلومات غير المتوقعة ، لم تزدني الا تشبثا برأيي ، وتمسكا بمذكرتي ، واصرارا على عرض الاقتراح الوارد فيها بكامله على اللجنة المختصة في المؤتمر، اعتقادا مني بأنه سيفوز بموافقة الاكثرية الساحقة من أعضائها •

ولكن خيبة أملي كانت كبيرة عندما عرض الاقتراح على المؤتمر في جلسته الختامية مبتورا ومشوها ومقتصرا على استنكار المؤتمر مبدأ نزع الجنسية عن المواطنين العاملين للقضية العربية ضد الحلف التركي العراقي وسائر الاحلاف الاستعمارية ، دون غيرهم[1] •

لقد نجحت يد الانقلابيين المصريين اذن بالامتداد الى داخل المؤتمر بواسطة مخبريهم ، لتجزئة مبدأ انساني أساسي كان جديرا بحكام مصر الثورة أصلا ، قبل محاميها ومخبريها ، أن يحترموه ويقدسوه ، لأنه يتعلق بحق طبيعي من حقوق المواطنين في أي زمان ومكان •

---

(١) نص قرار المؤتمر :

يستنكر المؤتمر مبدأ نزع الجنسية عن المواطنين العاملين للقضية العربية ضد الحلف التركي العراقي وسائر الاحلاف الاستعمارية ويوصي بالتدخل لدى السلطات العراقية في سبيل رفض الحيف اللاحق بالمواطنين العراقيين في هذا الخصوص .

وما زالت ، وللأسف الشديد ، تدابير سلخ الجنسية وعقوبة النفي والابعاد بحق المواطنين العرب المنحدرين من صلب أجدادهم الذين أقاموا على ثرى الارض العربية آلاف السنين سارية المفعول في معظم أجزاء الوطن العربي ، بينما نرى « اسرائيل » تمنح جنسيتها ليهود العالم قاطبة حتى ولو كان مقامهم الدائم خارج الاراضي المحتلة ، وتفصلهم عنها آلاف الاميال .

وبالرغم من هذه البادرة السلبية غير المستحبة ، فقد كان المؤتمر في الحقيقة تظاهرة قومية رائعة ، تجلى فيها تضامن أبناء الدول العربية بشكل بارز والتفاهم حول قضاياهم الكبرى بوعي وحماس شديدين.

وكان من أبرز القرارات التي اتخذها المؤتمر :

ـ ان الحل الوحيد لقضية فلسطين لا يكون الا باسترداد القسم المغتصب منها والقضاء على اسرائيل والصهيونية .

ـ ان المؤتمر يرفض كل حل أو مشروع أو محاولة صلح مع اسرائيل كما يرفض كل تصريح ينطوي على صلح معها ، أو اعتراف بها ، أو يؤدي الى ذلك صراحة أو ضمنا .

وقد أوصى المؤتمر بأن يعد المكتب الدائم مشروعا لدستور اتحادي للبلاد العربية .

وبالاضافة لما أصدره المؤتمر من قرارا تهامة تتعلق بحريات المواطنين وحقوقهم الاساسية ، وحق العرب في الاستقلال والسيادة وبرفض المشاريع الاستعمارية ، أصدر أيضا قرارات تنظيمية تتعلق بسهنة المحاماة والمحامين وبتوحيد التشريع في البلاد العربية والمصطلحات الفقهية والقانونية ، وكان من أهم تلك القرارات القرار

المتضمن انشاء اتحاد للمحامين العرب وفق قانون أساسي ونظام داخلي صار اقرارهما أيضا في ذلك المؤتمر الكبير •

★ ★ ★

كان انعقاد المكتب الدائم للمؤتمر في أوائل عام ١٩٥٦ ، ثم انعقاد المؤتمر بعده في عاصمة أرض الكنانة ، فرصة لنا للاطلاع على أحوال هذا القطر العربي الكبير • وكان أول ما لفت نظرنا في شوارع القاهرة الطويلة وميادينها الواسعة ، ومتاجرها الغنية ، ومباهجها العديدة ، هو سيطرة العنصر الاجنبي على معظم مرافق الحياة ؛ وفي كثير من الحالات كان المرء يخال نفسه في بلد أجنبي أو على الاقل في مستعمرة يحتلها الاجانب ويسيطرون فيها على كل شيء ؛ ذلك أن عدد الاغراب من بريطانيين وايطاليين وفرنسيين ويونانيين كان كبيرا جدا ، لهم الصدارة في كل مكان تقريبا ؛ وهم بشكل خاص يتملكون معظم المؤسسات الاقتصادية والمحلات التجارية الكبيرة وأهم الفنادق والمطاعم والمقاهي والنوادي الراقية • وكان منظر الشعر الاشقر والعيون الزرقاء سائدا في المحال العامة بشكل يلفت النظر • ولكن ما أن جرى تأميم قناة السويس في بحر العام نفسه ، ووقع العدوان الثلاثي على الاراضي المصرية ، وأكرهت بعده القوات الانكلوفرنسية الاسرائيلية المعتدية على الانسحاب ، حتى تقلص وجود العنصر الاجنبي في أرض الكنانة ، وامّحى أثره الظاهر من كافة مجالات الحياة المصرية ومن المرافق العامة والخاصة في هذا القطر العربي المجاهد •

★ ★ ★

وقد نظمت لنا نقابة المحامين في القاهرة ، بالاشتراك مع مصلحة الاستعلامات المصرية ، برنامجا حافلا بالزيارات • وقد قمنا بزيارة

مقر رئاسة المجلس الاعلى للخدمات الاجتماعية حيث اطلعنا على برنامج مفصل لتعميم الخدمات الاجتماعية على سائر أنحاء الريف المصري ، واتتقلنا بعد ذلك ، لزيارة مركز الوحدات المجمعة في قرية برنشت التي كانت فيما مضى منطقة هامة من مناطق الاقطاع الزراعي . وفيها اطلعنا على ما بنته الثورة خلال سنوات قليلة ، حيث أقيمت المنشآت الحديثة لتوفير جميع الخدما تالضرروية لرفع مستوى حياة الفلاح في تلك المنطقة ، وقد ضمت تلك المنشآت المدرسة الى جانب رياض الاطفال ، والمستوصف الى جانب المسجد، ومعامل تعليب وتوضيب المنتجات الزراعية والعسل والالبان ومشتقاتها الى جانب معمل للزيوت والصابون ، ومكاتب الارشاد الزراعي الى جانب ورشات صنع السجاد والمنسوجات المطرزة وسواها . كانت المشاريع المنفذة في القرية نموذجا حيا لما يجري تخطيطه للنهوض بالريف المصري ، عن طريق تعميم مثل هذه الخدمات في شتى أنحائه ، وخلال مدة عشر سنوات . وقد خرجنا من زيارة المركز الاجتماعي النموذجي وبعد سماع الشرح الوافي عن عزم الثورة على تعميم مثل تلك الخدمات الاجتماعية على القطر بكامله ، والاعجاب يملأ نفوسنا والتفاؤل يفعم قلوبنا ، وقد عبّر بعضنا عن هذا الاعجاب بقوله لزملائه : « ان هذا البرنامج قمين لدى انتهاء تنفيذه ، بجعل الريف المصري أرقى من الريف السويسري أو الريف الامريكي » .. ولكن فلاحا مصريا كان يدفعه الفضول لسماع أقوال الضيوف العرب ، علق قائلا : « لا تصدقوش الكلام ده ... ده كله للدعاية والفشورة وخداع اللي يزورونا زيكم ... » ولكن السامعين رمقوا الفلاح الجاحد بنظرة استهجان ، ورثوا لحاله كيف أن الثورة تعمل من أجله ، وكيف يقابل هو عملها الجبار بالنكران .

والآن ، وبعد أن انقضى أكثر من خمس عشرة سنة على تلك الزيارة واللقاء ، أضحى من حق ذلك الفلاح أن يسأل اخوته المحامين العرب الذين خاطبهم بالامس البعيد فلم يصدقوه : « هل تحقق لي ولاخوتي الفلاحين المصريين ، ما وعدونا به من برامج ثورية في مجال البناء الاقتصادي والخدمات الاجتماعية ؟ .. الجواب هو طبعا عند قادة مصر الثورة ، وأغلب الظن أنه لن يكون بالايجاب ، وان كان من المرجح أن المخطط الصهيوني الاستعماري هو الذي يضيع على الشعب العربي في أي قطر من أقطار الوطن العربي الكبير فرصة تحقيق مناهج التطور الاقتصادي الكامل والتقدم الاجتماعي الشامل .

★ ★ ★

وفي زيارة ثانية لمديرية التحرير ، وهي الرقعة الواسعة من أرض الصحراء التي استصلحتها حكومة الثورة تحت اشراف أحد ضباطها وهو الصاغ مجدي حسنين ، بعد أن جرت لها مياه الري من نهر النيل العظيم بواسطة قناة شقتها الارادة الفولاذية قبل الآليات الضخمة والجرافات ذات القدرة الفائقة ، اطلع أعضاء وفود المحامين العرب بأنفسهم على المجهود الجبار الذي بذل لقهر الطبيعة القاسية واخضاع رمال الصحراء لسواعد الفلاح المصري الذي يسعى ويكدح لحل أزمة العيش وتقديم الغذاء والطعام للملايين المتزايدة من أبناء شعب مصر العربي الطيب .

★ ★ ★

ومع أعضاء سائر الوفود العربية المشتركة في المؤتمر زرنا المصانع الحربية في حلوان ، وابتهجنا لاتجاه حكومة الثورة نحو تصنيع البلد وتأمين اكتفائه الذاتي بالصناعات الثقيلة والاسلحة

الحربية • ولكن المتشككين كانوا يقابلون موجة الاعجاب والاعتزاز المسيطرة على نفوس أغلبية المحامين ، بادعائهم الصريح بأن أسس تلك الصناعات والمصانع واهية ، وجذورها المنغرسة في رمال الصحراء سطحية وغير عميقة ، وان الجهود المبذولة لن تعطي أكلا وافيا بالحاجة والغرض ، وان الدعاية الضخمة قد تولد بادىء الامر شعورا مفعما بالاعجاب والرضى ، ولكن سرعان ما يتبدد هذا الشعور لدى اصطدامه بالنتائج الاخيرة الحاسمة التي يجب أن يحسب لها سلفا كبير حساب• وكان رأي هؤلاء رغم كل ما شاهدناه من بوادر العمل الايجابي الخلاق ، أن الانقلاب العسكري ليس هو الحل لمشاكل الامة ، وأن الثورة الحقيقية هي التي توجه اهتمامها لبناء الانسان ، وأنه بعد اكتمال هذا البناء في أجواء الحرية الحقيقية التي لا تدوسها نعال العساكر وسياط الجلادين ولا اجراءات التجريد من الجنسية ونفي المواطن خارج وطنه بعيدا عن أهله وصحبه ، سيتمكن الانسان الحر من بناء المجتمع الحديث الذي يستطيع بارادته وتصميمه ، قبل أسلحته ومصانعه الحربية ، الصمود في وجه عاديات الدهر وغدر الاعداء •



وفي شهر ( مايو ) أيار ١٩٥٦ ، دعي مجلس النقابة لحضور المؤتمر الذي نظمته رابطة الحقوقيين الديموقراطيين الدولية ، في مدينة بروكسل عاصمة بلجيكا • وقد اشتركت في عضوية الوفد الذي شكله مجلس النقابة لحضور هذا المؤتمر اليساري الذي اشترك فيه عدد كبير من المحامين من معظم أقطار العالم من كلا المعسكرين الغربي والشرقي ومن دول آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية• وقد ترأس المؤتمر اللورد بريث ، وهو من كبار مستشاري البلاط الملكي البريطاني •

ولدى هبوطنا من الطائرة في مطار بروكسل استقبلنا محام بلجيكي ، كان اصطحب معه ابنته الصبية التي لم يكتم عنا والدها سر مجيئها معه وخيبة الامل التي أصابتها لدى رؤيتنا ، وذلك لانه كان أنبأها بوصول وفد من المشرق يرتدي أفراده أزياء شرقية غريبة ولهم أشكال تختلف عن الآدميين الاوروبيين . ولكن انطباعه اختلف بالكلية عندما رأى الزملاء السوريين لا يقلون رقيا في أزيائهم وثقافتهم عن سائر المحامين البلجيكيين .



ومن خلال وجودنا في مدينة بروكسل واشتراكنا في المؤتمر الذي عقد فيها ، تسنى لنا الاطلاع على مدى الكره الذي يحمله الشعب البلجيكي للصهاينة ، وكانت تجري أمامنا حوادث عابرة ولكنها معبرة عن حقيقة نظرة الشعب الى هؤلاء الذين أرادوا أن يجعلوا من أنفسهم بشرا فوق البشر فباؤوا باحتقار جميع البشر ، الاوربيين قبل سواهم . وبالمقابل لمسنا من داخل المؤتمر ورابطة الحقوقيين الديموقراطيين التي دعت له وأشرفت عليه مدى تغلغل اليهود في أجهزة تلك المنظمة الدولية اليسارية .

فقد أثار الناسخون على الآلة الكاتبة لدى اعطائهم كلمة الوفدين السوري واللبناني المشتركة لنسخها ، انتباه أمانة سر المؤتمر الى الهجوم الذي تضمنته الكلمة ضد العدوان الاسرائيلي والمؤامرة التي حاكها المستعمرون بالاتفاق مع قادة الحركة الصهيونية والتي أدت الى قيام صراع دام ودائم على أرض فلسطين العربية سيكون ضحيته العرب واليهود معا . وكان بنتيجة ذلك أن أصرت أمانة السر على حذف بعض المقاطع من الخطاب السوري اللبناني بحجة

تعهدها للحكومة البلجيكية بعدم تعرض المؤتمر لسيادة واستقلال الدول التي تربطها بالمملكة البلجيكية روابط الصداقة والاعتراف المتبادل • ومع ذلك ظل أعضاء الوفدين السوري واللبناني يتابعون جهودهم في المؤتمر لفضح أساليب اسرائيل العدوانية والتأكيد على استحالة قيام تعايش سلمي بين المعتدين والمعتدى عليهم •

★ ★ ★

وفي طريق عودتنا الى بلدنا عرجنا على باريس وقمنا فيها بجولة سياحية ، ولدى زيارتنا للقصر البلدي استقبلنا أحد كبار موظفيه وطاف معنا في أرجائه المنيفة ، وأطلعنا على مافي قاعاتـه من نقوش بديعة ولوحات فنية رائعة • وأثناء وجودنا في القصر ، حضر موظف كبير من وزارة الخارجية الفرنسية ، وعرفنا بنفسه ، وذكر أنه كان قبل مدة قصيرة ترأس وفدا رسميا فرنسيا زار دمشق لمقابلةالمسؤولين السوريين فيها وبحث مسألة العلاقات السورية الفرنسية وما يحدثه موقف السوريين ، حكومة وشعبا ، حيال قضية الجزائر وكفاحها من أجل الحرية والاستقلال من تعكير لجو العلاقات بين البلدين الصديقين سورية وفرنسا ؛ وشكا الدبلوماسي الفرنسي من أن الحكومـة السورية أساءت معاملة الوفد وأن كبار المسؤولين السوريين رفضوا استقباله ومقابلة أعضائه • فأجبنا الرجل الحانق بأنه ليست لنا أيـة صفة رسمية للدخول معه أو مع غيره في أية محادثات تتعلق بسياسة بلدنا • ولكننا استفدنا من الفرصة لنعبر عن حقيقة مشاعرنا حول قضية الجزائر وكفاح شعبها الباسل • فأبدى استغرابه لما لمسه منا من عواطف وحماس حيال بلد تفصله عن بلدنا المسافات الشاسعة ، وهو في نظر الدستور الفرنسي جزء من فرنسا • فأكدنا له أن الجزائر هي جزء من التراب العربي وان شعبها هـو جزء من الامـة العربيـة

وأن هذه الحقيقة يؤكدها نضال الشعب الجزائري من أجل استقلاله، وتضامن جميع العرب معه في معركته التحررية المظفرة •

ولما لمس منا الموظف الفرنسي هذا الحماس والاصرار الذي كان يقابله بكثير من الانفعال ، سكت قليلا في محاولة لتهدئة أعصابه المتوترة ، وعاد يقول : « الحقيقة أيها الاصدقاء ، ان الاوربيين قد أخطأوا كثيرا عندما بادروا بلادكم العربية بالعدوان ، فأنتم العرب أصحاب حضارة أصيلة وكان يمكن أن تتحالف الحضارتان العربية والغربية وتتضافرا لخدمة العالم والانسانية بمعزل عن روح العداء ولكن الآن وبعد أن بات العالم مهددا بالخطر الاصفر القادم من أقصى الشرق ، علينا جميعا أن ندرك حقيقة الخطر وتتداركه قبل فوات الاوان » • ولما استوضحناه عن حقيقة هذا الخطر ومصدره • قال : « انه شعب الصين الشعبية ذو الخمسمائة مليون[1] من السكان الذين بدأوا يستيقظون ، والذين يرى الغربيون في بواكير يقظتهم خطرا يهدد العالم أجمع » • فعلقنا على كلام الرجل بأن العرب ما زالوا يعانون من سياسة التسلط الاستعماري على بلادهم ، وأن الوباء الاصفر الذي يجتاح منطقتهم الآن ناتج عما زرعه الاستعمار الغربي في قلب وطنهم من بؤرة جرثومية خطيرة ، وهي دولة اسرائيل القائمة على العدوان والاغتصاب ؛ فما لم تجل جميع الجيوش الاجنبية عن ديارنا بما فيها أرض الجزائر البطلة ، وما لم تكف الدول الغربية جميعها عن حماية اسرائيل ودعم كيانها ، فلا يمكن لصداقة أن تنشأ وتنمو ، ولا يمكن لأي تحالف أن يعقد ، بل ان أنظارنا ستبقى متجهة نحو شعوب آسيا وافريقيا ، تتضامن معها في سبيل تحرير قارتينا من أي أثر من آثار النفوذ الاجنبي •

وانصرف الموظف الفرنسي الكبير ، ونظرات الاقتناع بوجهة

---

(١) أصبح العدد اليوم سبعمائة وثمانين مليون نسمة .

نظرنا بادية في عينيه وعيني زميله موظف القصر البلدي الذي تابع جولته معنا ، ودعانا في نفس اليوم لحضور رواية مسرحية كـانت تعرض بنجاح على أحد المسارح الفرنسية العتيقة .

وفي خريف عام ١٩٥٧ عقد في دمشق وبالتتابع مؤتمران حقوقيان هامان ، الاول كان مؤتمر المحامين العرب الثالث ، والثاني مؤتمر الحقوقيين الآسيويين الافريقيين الذي انبثقت فكرة الدعوة اليه من مؤتمر الحقوقيين الديموقراطيين المنعقد في بلجيكا في العام السابق.

وقد أسندت أمانة سر المؤتمر العربي الى الزميل الاستاذ ابراهيم البطل ، وأسندت الي أمانة سر المؤتمر الآسيوي الافريقي ، بينما ترأس المحامي الكبير والاستاذ الجامعي القدير الدكتور عدنان القوتلي رئاسة المؤتمرين بوصفه نقيبا للمحامين ، ورعى حفلة افتتاح المؤتمرين فخامة السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية .

فقد عقد المؤتمر الاول تحت شعار « الحق والعروبة » ، بينما عقد الثاني تحت شعار « الحق والسلام » ..

وقد شكل المؤتمران تظاهرتين كبيرتين ، اشتركت في الاول منهما أعداد غفيرة من المحامين العرب الذين توافدوا من معظم الاقطار العربية .

وكان من أبرز القرارات التي اتخذها المحامون العرب ، اقرار مشروع الدستور الاتحادي للدول العربية ، ومشروع قانون المحاماة الموحـد .

★ ★ ★

وكان مؤتمر الحقوقيين الآسيويين الافريقيين الذي عقد في دمشق في أعقاب مؤتمر المحامين العرب ، أول لقاء لحقوقيي القارتين

يجرى في أخطر بقعة فيهما ، في سورية العربية ، التي كانت في ذلك العام ، تتعرض لضغط شديد من كافة القوى المعادية للأمة العربية ، في محاولة لاخضاع المنطقة بكاملها للمخطط الاستعماري الصهيوني البغيض . وفي ذلك المؤتمر تعرفنا على مناضلين افريقيين كبيرين ، أحدهما هو المناضل التونسي الشهير السيد صالح بن يوسف الذي قارع الاستعمار الفرنسي طويلا واضطهد على يد سلطاته كثيرا ، فما أن استقلت تونس ونعمت باستقلالها وحريتها ، حتى نفي الرجل المجاهد من وطنه الذي ناضل من أجله وأضحى لاجئا سياسيا في القاهرة ، ثم أكره فيما بعد على مغادرة الاراضي المصرية ، ارضاء لحكومة تونس ، في محاولة لتحسين العلاقات بين الجمهورية التونسية والجمهورية العربية المتحدة ، وقد امتدت يد آثمة لاغتياله غدرا وظلما في ألمانيا الغربية في عام ١٩٦١[١] ، أما الثاني فهو الزعيم الكاموروني

---

(١) نص برقية التعزية الموجهة في هذه المناسبة :

**القاهـرة :**

ــ أسرة الشهيد صالح بن يوسف

ــ المناضل العربي السيد ابراهيم طوبال .

ان ضنت أرض العرب على صالح بن يوسف بشبر واحد يقيم فيه مع أسرته الكريمة ، وهو المجاهد المؤمن الذي قضى معظم حياته في المنافي والسجون في سبيل نصرة أمته وعزتها ، فان جنان اللـه الفسيحة فتحت له أبوابها لتستقبله شهيداً خالداً تزين هامته أكاليل الغار والمجد .

خسيء القتلة الرعاديد والنفوس الحقيرة التي دفعتهم لارتكاب جريمتهم النكراء ، فالرسالة التي بذل الشهيد الغالي دمه من اجلها لن يقضى عليها بقتله ، وقد زادتها شهادته خلوداً على خلود .

فصبراً جميلا يا آل بن يوسف ويا رفاقه الاحرار ، والعـزاء الصادق لامتنا العربية التي لن تحقق انتصارها على أعدائها الظاهرين والمستترين الا بمزيد من التضحيات وفيض من دماء الشهداء .

**رياض المالكي**

الوطني السيد فيليكس رولاند مومية ، الذي اغتالته أيضا القوى المعادية لحركة التحرر الافريقي عام ١٩٦٠ ، عندما دست له أصابع خفية السم في طعامه في سويسرا في وقت كان لاجئا سياسيا في أراضيها .

★ ★ ★

وقد ألقيت في المؤتمر كلمات هامة ومحاضرات قيمة تناولت كفاح الشعوب الآسيوية الافريقية المكافحة في سبيل الاستقلال والتحرر الوطني ، وعالجت المواضيع المتعددة المدرجة في جدول الاعمال . وأصدر المؤتمر بعد التصويت على اقتراحات لجانه ، مقررات هامة حول حق الشعوب في تقرير مصيرها ، والاحلاف والقواعد العسكرية ، والمعاهدات غير المتكافئة ، والحياد الايجابي ، وقضايا الجزائر والفييتنام وكوريا وقبرص والكاميرون ، والحريات العامة والحقوق الطبيعية ، والعدوان وآثاره القانونية ، والسلام العالمي والتفجير النووي ، والتأميم في ظل القانون الدولي .

لقد حقق المؤتمر نجاحا كبيرا ، وكان في الحقيقة مظهرا رائعا من مظاهر تضامن شعوب آسيا وافريقيا . وكان مناسبة هامة ومفيدة لطرح القضية الفلسطينية من خلال مأساة اللاجئين واغتصاب الارض العربية في فلسطين . وقد أعد رئيس الوفد الاردني الاستاذ شفيق رشيدات وقدم للمؤتمر بحثا قيما حول هذه القضية القومية الخطيرة. وقد أكد المؤتمر في جملة قراراته المتعلقة بالعدوان وآثاره القانونية، « أن المأساة الفلسطينية قد خلقتها الدسائس الاستعمارية وتنج عنها شقاء لا يوصف وعناء لعدد كبير من الناس الذين شردوا من ديارهم، وكما أكد بالضرورة الملحة لاعادة اللاجئين الى وطنهم الاصلي ».

وتبنى المؤتمر اقتراح لجنة السلام العالمي الذي اعتبر « أن

النوايا العدوانية السافرة لاسرائيل التي خلقها الاستعمار منذ زمن طويل في قلب العالم العربي قاعدة للعدوان على الدول العربية ، وعدم اعادة اللاجئين الى أوطانهم مع التعويض عليهم خلافا لمقررات هيئة الامم المتحدة ، كانت وما تزال مصدرا رئيسيا لاشاعة القلق والتوتر في الشرق الاوسط ، مما يعرض السلم العالمي للخطر » •

وأعرب المؤتمر عن تضامنه الكامل مع الشعب الجزائري في كفاحه المشروع من أجل التحرر الوطني وأعلن أن الحل الوحيد للقضية الجزائرية لا يمكن أن يكون الا باعتراف فرنسا على الفور باستقلال الجزائر •

★ ★ ★

ومن أهم المناقشات التي دارت في سياق بحث ودراسة موضوعات المؤتمر ، تلك التي تناولت القضية الفلسطينية • والذي أعطى تلك المناقشة أهميتها ، الفكرة التي كان يحملها وفد الصين الشعبية حول قضية فلسطين ، اذ كان الصينيون حتى ذلك الوقت متأثرين بوجهة النظر السوفياتية القائمة على الاقرار والتسليم بالكيان الاسرائيلي ، مع محاولة الحد من سياسة التوسع الاسرائيلية ، وحث العرب على التعايش السلمي مع دولة العدوان ، التي لن تلبث على حد اعتقادهم أن تنقلب الى دولة مسالمة اذا ما قضي على النفوذ الاستعماري في المنطقة • وقد احتدم النقاش بين أعضاء الوفد الصيني من جهة وأعضاء الوفود العربية من جهة ثانية لدى عرض المشروع الصيني المتعلق بموضوع السلام على لجنة السلام العالمي والتفجير النووي • وقد دافع الزميل الفلسطيني الاستاذ روبير ملكي بحرارة وحماس عن وجهة النظر العربية القائمة على أساس الرفض الكلي للوجود الاسرائيلي في المنطقة العربية • واحتج الاستاذ ملكي بأن « خلق اسرائيل في قلب البلاد العربية مما يهدد السلام العالمي ، نظرا

الى أن هذه المجموعة من الدخلاء قد خلقت وضعا غير طبيعي في منطقة الشرق الاوسط ، مما يسبب استفزازا دائما ويعكر الامن والسلم • كما أن استخدام اسرائيل من قبل بعض الدول الاستعمارية ، لخلق جو من التوتر ، واحتلال اليهود وطن العرب أصحاب البلاد الشرعيين والاصليين وطردهم من بلادهم ، كل هذه الامور اذا استمرت تشكل خطرا دائما للسلم في الشرق الاوسط • » وأضاف : « ان وجود اسرائيل هو بحد ذاته عمل غير قانوني وغير طبيعي » ، وطالب باعتبار اسرائيل مغتصبة وتجريمها •

وقد استمر الجدل حول هذا الموضوع الخطير والعظيم الاهمية بالنسبة للعرب ، وامتد من بعد الظهر حتى مطلع الفجر ، حيث ظل الوفد الصيني مصرا على رأيه القائل بأن الاستعمار هو العدو الاول والاخير ، فاذا ما قضي عليه في العالم ، فستنقلب اسرائيل الى دولة مسالمة لا خطر منها ، لا على العرب ولا على السلام •

ولم يخرج أعضاء اللجنة بنتيجة ايجابية أو قرار حاسم حول هذا الموضوع ، فحسمه رئيس اللجنة الاستاذ قاسم حسن ( مندوب العراق ) باقتراح تقديم مشروع قرار الى لجنة الصياغة ، وتأجيل البحث الى ذلك الحين • وقد صدر القرار عن المؤتمر في جلسته الختامية بالشكل الوارد أعلاه ، وهو كما يلاحظ ، قد اكتفى بالتنبيه الى خطر النوايا العدوانية السافرة لاسرائيل وأثرها على السلم العالمي •

★ ★ ★

لقد ترك موقف الوفد الصيني في المؤتمر أثرا سيئا في نفوس أعضاء الوفود العربية ، نظرا لما كان يعلقه العرب من أهمية كبرى على دعم نضالهم العادل ضد الوجود الاسرائيلي الدخيل ، من قبل جمهورية الصين الشعبية حكومة وشعبا •

ولكن صدف بعد انفضاض المؤتمر بأيام قليلة أن سافر وفد المحامين السوريين الى الاتحاد السوفياتي لحضور مؤتمر للحقوق الادارية عقد في موسكو في أواخر شهر تشرين الثاني ١٩٥٧ ؛ وقد تشكل الوفد برئاسة النقيب الدكتور عدنان القوتلي • وقد تسنى لنا خلال فترة اشتراكنا في أعمال المؤتمر ، عقد جلسة هادئة مع رئيس وأعضاء الوفد الصيني استعرضنا خلالها القضية الفلسطينية ، والموقف الصحيح الذي يجدر بجميع الدول المحبة للسلام ، والشعوب الصديقة للعرب أن تتخذه ، لا من السياسة العدوانية الاسرائيلية فقط ، بل من الكيان الاسرائيلي نفسه ، لانه كيان دخيل ومصطنع ، قائم أصلا على العدوان والاغتصاب ، ولان دوام بقائه ، فيه استمرار للجريمة النكراء المرتكبة بحق الشعب العربي في فلسطين • وأكدنا على أن أي تفكير أو موقف ، يرمي الى الاعتراف أو التمسك بوجود اسرائيل ، معناه الوقوف الى جانب المعتدي ضد المعتدى عليه ، وهذا منطق يأباه بشكل خاص رجال القانون الذين يقوم نشاطهم على حماية الحق ، وقمع الاعتداء ، ومعاقبة المعتدي • وقد سأل الدكتور عدنان القوتلي زميله السيد تاوسي تشين رئيس الوفد الصيني فيما اذا كانت حكومة الصين أو شعبها ، يقبلان أو يوافقان بشكل من الاشكال ، على التخلي عن رقعة أصغر بكثير من الرقعة التي يحتلها الصهاينة في فلسطين ، ليشكل الصهاينة أنفسهم ، أو أية جماعة من الدخلاء على شاكلتهم، وطنا لهم يزرع في قلب البر الصيني • واستشهد الدكتور القوتلي برفض حكومة الصين الشعبية لنظام الحكم القائم في جزيرة تايوان، بالرغم من أن أرض هذه الجزيرة الصينية ما زالت مأهولة بسكانها الاصليين من أبناء الشعب الصيني •

وقد أبدى رئيس وأعضاء الوفد الصيني تفهما واضحا لوجهة النظر العربية ، ووعدوا بنقل وجهة النظر هذه بحذافيرها الى

حكومتهم • وقد حصل فيما بعد تحول هام في موقف جمهورية الصين الشعبية من القضية الفلسطينية ، اذ التزمت الحكومة الصينية بسياسة الرفض العربي للوجود الصهيوني ، وبدأت سياستها ومواقفها تسير على هذا النهج الصحيح •

لقد كانت اقامتنا في الاتحاد السوفياتي قصيرة ، لم يتسن لنا خلالها ، الاطلاع على الشيء الكثير من مرافق الحياة العامة في بلد الثورة الشيوعية • وقد قمنا بزيارة بعض المؤسسات الحقوقية فقط، وانتقلنا مع أعضاء وفود المؤتمر في زيارة خاطفة الى لينينغراد حيث زرنا بعض متاحفها ومعالمها التاريخية الشهيرة •

★ ★ ★

وفي شهر آب ( أغسطس ) عام ١٩٥٨ سافرت مع وفد نقابة المحامين في دمشق لحضور اجتماع المكتب الدائم لاتحاد المحامين العرب المقرر عقده في بغداد • وكان قد مضى أقل من شهر على وقوع الانقلاب العسكري الذي أطاح بالنظام الملكي والعرش الهاشمي ، وقد قضي على أفراد الاسرة المالكة ، ومزق جسد رئيس الوزراء العراقي السيد نوري السعيد • وكان جو بغداد في ذلك الوقت من الصيف حارا جدا ، وقد زادت من لهيبه موجة الحماس والاندفاع الشديدين التي سادت أوساط الشعب العراقي التواق لاستعادة حريته السليبة ، واسترداد كرامته المهدورة التي سلبتها حكومة العراق الموالية للغرب ، وكبلتها قيود الاستعمار البريطاني ، ومن بعده كابوس المعاهدة المركزية المشهورة باسم حلف بغداد •

وقد صدمنا لاول وهلة بجو الخلاف الخطير الناشب بين القوى السياسية القومية واليسارية • فقد عمد الشيوعيون آنذاك الى رفع الاعلام السوفييتية على نطاق واسع في جميع أرجاء بغداد وفوق

مبانيها العامة والخاصة ، بشكل لم نر شبيها له في موسكو ذاتهـا لدى زيارتنا لها قبل أقل من سنة •

كانت القوى القومية تضغط من أجل دفع الحكومة الانقلابية في اتجاه الوحدة أو الاتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة ، بينما كان الشيوعيون تؤيدهم العناصر المحافظة في الحكم والجيش خاصة، وفي أوساط الشعب عامة ، يقابلون تلك الدعوة للوحدة بعداء سافر تحت شعار الحريات الديمقراطية •

وكان قائد الانقلاب الزعيم عبد الكريم قاسم ملتزما جانب الخط المعادي للالتقاء مع الجمهورية العربية المتحدة ، بينما كان زميـلـه ومساعده العقيد عبد السلام عارف واقفا في المعسكر المقابل • كان الانقسام واضحا ومنذرا بأسوأ العواقب •

وقد تسنى للوفود العربية مقابلة الزعيم قاسم في مبنى وزارة الدفاع الذي كان يعج بالضباط والجنود المسلحين ؛ وكانت قعقعة السلاح تطغى في ذلك الوقت على الاصوات المتفجرة من حناجر الاهلين بصخب منقطع النظير •

وقد دامت مقابلتنا للزعيم قاسم وقتا طويلا قارب الساعتين ، كان الانقلابي الاول خلاله ، واقفا على قدميه ، وقد أخذ يسرد لزائريه المحامين العرب خطته الانقلابية وكيف عمل على تنفيذها ببراعتـه وشجاعته وبخداعه لرئيس أركان الجيش العراقـي اللـواء غازي الداغستاني • وقد شرح لنا زعيم الانقلاب كيف أن الاوامر أعطيت للجحفل العراقي المتمركز في الشمال بالاتجاه نحو الحدود السورية عبر العاصمة العراقية ، وكيف أنه استفاد من هذه الفرصة لتوجيه ضربته الحاسمة التي دكت قصر الرحاب بمن فيه ، ودكت معه النظام الملكي ، والاسرة الهاشمية • وقد أكد سيادته أن خطة الحكومـة

العراقية السابقة من تحريك القوات العراقية باتجاه الاراضي السورية، كانت تستهدف من حيث النتيجة اجتياز الحدود السورية ضمن خطة تآمرية ترمي الى ضرب وحدة الجمهورية العربية المتحدة ، واسقاط نظام الحكم القائم في القطر العربي السوري .

* * *

وقد أقيمت للوفود العربية مأدبة ضخمة في نادي الضباط ، حضرها الزعيم قاسم والعقيد عارف وأعضاء مجلس السيادة والوزراء وعدد كبير من الشخصيات العراقية والضباط .

وقد التقيت في تلك المناسبة بالعقيد عبد السلام عارف الذي كان قبل أيام في زيارة رسمية لدمشق حيث التقى فيها برئيس الجمهورية العربية المتحدة ، الذي ألغى زيارته ليوغوسلافيا لدى سماعه بنبأ الانقلاب العراقي ، وجاء الى دمشق ليكون قريبا من مسرح الاحداث في القطر العربي المجاور للاقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة .

وقد تطرقت في حديثي مع رجل الانقلاب الثاني الذي كان يعتبر أن الانقلاب ما كان لينجح لولاه شخصيا ، ولولا شجاعته الفائقة ، تطرقت الى بوادر الخلاف الواضحة في الافق بين زعيمي الانقلاب ، وحذرته من خطر الانقسام بين الرجلين وانعكاسه على صفوف الشعب العراقي وجيشه الباسل ، الذي يعلق عليه العرب أكبر الآمال ، ونصحته بتفادي الخلاف باتباع نهج كامل يتفق عليه الجميع لقطع الطريق على عناصر الدس والتخريب التي لا تريد للعراق النجاح في وثبته الجبارة وفي طموح شعبه لتحقيق الوحدة العربية الكبرى التي لا يمكن أن تكتمل اذا كان العراق معزولا عنها .

وكان العقيد عارف ، رغم نفيه لوجود أي خلاف بين قادة

الانقلاب ، يبدو مضطربا زائغ البصر ، وكانت عينه الواحدة ترنو الى مركز الزعامة الذي يحتله الزعيم عبد الكريم قاسم ، وعينه الثانية تتجه الى ما وراء الحدود الغربية ، حيث يسكث في دمشق ، رجل انقلابي آخر ، كان استقبله قبل أيام ونفخ فيه روح التمرد وشجعه على قلب زميله زعيم الانقلاب ليحل محله ، كما فعل هو باللواء محمد نجيب ، وليحظى بعد ذلك بمباركة حكومة الجمهورية العربية المتحدة.

كانت المظاهر جميعها والبوادر كلها تنذر بهبوب عواصف شديدة على العراق ، وان غدا لناظره قريب •

★ ★ ★

وفي خريف عام ١٩٦٢ دعيت نقابات المحامين في سورية لحضور مؤتمر الحقوقيين الآسيويين الافريقيين المقرر عقده في كوناكري ــ عاصمة الجمهورية الغينية ــ في منتصف شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٢ • وشكل الوفد من بعض أعضاء نقابات المحامين السورية وبرئاسة الدكتور عدنان القوتلي ، الذي كان رئيسا للمؤتمر الآسيوي الافريقي الاول الذي عقد في دمشق عام ١٩٥٧ ، ودعيت للانضمام الى الوفد باعتباري أمين سر المؤتمر الاول •

وقد سافر الوفد السوري عن طريق أوربا ، فتأخر وصوله الى العاصمة الغينية يوما واحدا ، حيث لم يتسن له حضور حفلة الافتتاح •

وكان الاشتراك في ذلك المؤتمر مناسبة هامة للاطلاع على أحوال بلد افريقي حديث الاستقلال ، وعلى توثب شعبه وعزم أبنائه المكافحين على بناء المجتمع الديمقراطي الاشتراكي الذي كان يمكن أن يحققوه بخطوات واسعة ، لو لم تقف القوى المعيقة لتطور الشعوب النامية في طريقهم • وقد صدف في الوقت الذي صارت فيه الدعوة لذلك

المؤتمر الحقوقي الكبير ، الذي توافد اليه الحقوقيون من أقطار القارتين ، ومن أقاصي الشرق البعيد المترامي الاطراف ، من الصين واليابان وكوريا والفيتنام ، أن حصل انعطاف خطير في سياسة الحكومة الغينية .

فبعد أن تحررت غينيا من نير الاحتلال الاجنبي والتبعية لفرنسا اتجهت حكومتها بقيادة رئيسها ، النقابي المناضل السيد أحمد سيكوتوري ، تنشد صداقة المعسكر الشرقي الذي يتزعمه الاتحاد السوفييتي . ولكن لاحظ الغينيون أن هذه الدولة العظمى لم تكن صادقة في صداقتها ، وانها أرادت أن تجعل من الدولة الافريقية الغينية منطقة نفوذ لها . فتحولت الحكومة الغينية في سياستها الخارجية ، واتجهت نحو الولايات المتحدة الامريكية تنشد الصداقة الخالصة والعون النزيه ، فكان مثلها في ذلك مثل « من يهرب من الدب فيقع في الجب » . وقد لاحظنا أثناء حضورنا المؤتمر مدى تسلط الامريكيين على مجرى الحياة العامة في كوناكري . ففي المؤتمر كان وزير العدل الغيني وأعوانه يسعون لدى جميع الوفود المشتركة في المؤتمر كي لا تتعرض مطلقا في كلماتها ومناقشاتها لسياسة الولايات المتحدة الامريكية ، حرصا على حسن علاقة غينيا مع الدولة العملاقة ، التي كان الرئيس السيد سيكوتوري عائدا لتوه من زيارة عاصمتها . كما كان بعض موظفي السفارة الاميركية يحتلون أركان الفناء الكبير الذي عقدت فيه جلسات المؤتمر ، ولم يكونوا ليحجموا عن حضور اجتماعات اللجان المنبثقة عنه ، ومتابعة المناقشات الجارية فيها ، وتدوين أقوال الخطباء والمتحدثين من أعضاء اللجان حرفياً وبشكل سافر ووقح يدعو للاستهجان والاشمئزاز .

وكان هؤلاء الاميركيون يبتهجون أشد الابتهاج للمشادات العنيفة التي دارت بين الوفدين السوفييتي والصيني ، في معظم لجان

المؤتمر ، وبشكل خاص في اللجنة التي ناقشت موضـوع نـزع السلاح •

وكان رأي الوفد الصيني أن الدعوة لنزع السلاح في العالم دعوة مبنية على سياسة النفاق والخداع التي تسير عليها الدول الكبرى في محاولة منها لبسط سيطرتها على العالم عن طريق اقتسام مناطق النفوذ ، وأن أي بحث من هذا القبيل يعتبر سابقا أوانه ، مالم تتحرر جميع شعوب العالم من نير الاحتلال الاجنبي والسيطرة الاستعمارية بشكليها القديم والحديث •

وان السبيل الاوحد للشعوب المضطهـدة في توقهـا الشديد للانعتاق والتحرر ، لا يكون الا بحمل السلاح الذي تحاول الدول الكبرى تجريد الدول الاخـرى منه ، لتبقى وحدهـا مسيطرة على العالم بأجمعه •

★ ★ ★

وقد حدثت حالة مؤسفة جدا بين الوفود العربية ، عندما جاء وفد الجمهورية العربية المتحدة الضخم يرافقه عدد من وفود الاقطار العربية ، وهي مؤلفة على الاغلب من عناصر ناصرية ، وقد ظن بعض تلك العناصر أنه يخدم الزعامة الناصرية بمناصبته الوفد السوري النشيط العداء •

لقد كان الهم الاكبر لاعضاء وفد الجمهورية العربية المتحدة والوفود المرافقة له ، توزيع صور رئيس الجمهورية العربية المتحدة على أعضاء الوفود الآسيوية والافريقية ، وعلى المواطنين الغينيين ، في كل مكان : في المؤتمر ، في جلساته العامة ، في اجتماعات لجانه ، في الطريق ، في المطعم ، في الفندق ، وفي حفلات الرقص الشعبي التي أحيتها بعض الفرق الفنية • كان ذلك يجري في محاولة فاشلة للدعاية

للجمهورية العربية المتحدة ولرئيسها الجذاب المغرم لدرجة الهوس بنشر صوره الملونة والمتعددة الاحجام والاوضاع وتوزيعها في أرجاء العالم • وفي الوقت نفسه لاحظنا الاسلوب الذكي البارع الذي كانت تتبعه الدعاية الصهيونية لكسب ود الافارقة ، وعقد أواصر الصداقة مع بلادهم • ففي شوارع كوناكري ودوائر البريد وفي المحلات التجارية ، كانت تباع مجموعات من الطوابع التذكارية الجميلة ، تحمل صور شهداء غينيا ، وقد طبعت تلك المجموعات الثمينة في المطابع الاسرائيلية ، وقدمت هدية من حكومتها الى الشعب الغيني المكافح والفخور بذكريات شهدائه الميامين وأبطاله القوميين • كانت الدوائر الاسرائيلية حريصة على تقديم كثير من المساعدات الاقتصادية وعدد من الخبرات الفنية لشعب غينيا وغيره من الشعوب الافريقيــة في محاولة جادة ، ولكن غير صادقة ولا مخلصة ، للتغلغل في أوساط تلك الشعوب الحديثة العهد بالاستقلال ، ولملء الفراغ الذي أحدثه جلاء الجيوش الاجنبية عن معظم أراضي ومناطق القارة السوداء • وكان هذا النشاط الذي تسانده السفارات ودوائر المخابرات الامريكية، حاملا في أشكاله المتعددة ، السم مخلوطا مع الدسم ، هو الاسلوب الجديد الذي اتبعه الاستعمار الحديث في سعيــه الدؤوب لفرض السيطرة وبسط النفوذ ، ونهب خيرات وثروات الشعوب المستضعفة واعاقة تطورها وتقدمها •

فكان على الوفود العربية الانتباه الى هذا الواقع المر ، والتنبيه الى خطورة التغلغل الصهيوني في أعماق القارة السوداء •

★ ★ ★

وقد أسهم المناضل العربي السيد شيخان الحبشي ممثل الجنوب العربي ، بشكل ايجابي في اثارة ومعالجة القضايا العربية في المؤتمر،

وكان بحق العنصر النشيط والفعال من بين أعضاء الوفود العربية المرافقة للوفد المصري ، والذي نزه نفسه وتصرفاته عن الانزلاق في هوة الخلافات الجانبية التي لم يكن من شأنها الا تشتيت الشمل واضعاف الموقف العربي أمام مندوبي الدول الصديقة للعرب والحريصة على تضامنهم ووحدة صفوفهم .

وقد تصديت أنا للكلام في اللجنة الثانية التي كان يتولى رئاستها مندوب ليبريا بمعاونة مندوب اليابان ، وتحدثت باللغة الفرنسية ، وكان حديثي يترجم فورا الى اللغتين الانكليزية والروسية ، وأثرت موضوع الاغتصاب الصهيوني للاراضي العربية ، وحذرت من خطر تسلل الاسرائيليين الى البلاد المستقلة حديثا .

وقد حاول رئيس اللجنة الليبيري مقاطعتي ومنعي من الكلام ، فأصررت على متابعة البحث في الموضوع ، فما كان منه الا أن انسحب من الجلسة ، بعد أن همس في اذن المندوب الياباني وباللغة الانكليزية بكلمات لم نسمعها ، وتخلى له عن رئاسة اللجنة . وقد ذكر المندوب الياباني بعد انفضاض الجلسة ، بأن زميله الليبيري تصرف على الوجه الآنف الذكر بحجة أن أعصابه لا تستطيع تحمل مثل هذا التهجم والتطاول على دولة نموذجية يعتبرها الليبيريون — وهم طبعا واقعون تحت سيطرة النفوذ الامريكي — واحة للديمقراطية في منطقة الشرق الاوسط التي ما زالت شعوبها تعيش — حسب زعمه — عيشة التخلف في ظل أنظمة دكتاتورية عاتية . ولم يكن ليخطر في بال ذاك الليبيري الجاهل وحكومته الواقعة ضمن مناطق النفوذ الاستعماري ، أن ما يعانيه العرب ، من سوء أحوال في جميع المجالات ، السياسية ، والاقتصادية، والاجتماعية ، ان هو الا انعكاس لوجود هذه الدولة الاسرائيلية المصطنعة في قلب وطنهم ، وانها هي الاداة التي يستخدمها

الامبرياليون الامريكيون والاستعماريون الغربيون لانهاك العرب ، واستنزاف طاقاتهم ، واعاقة وحدتهم وتطورهم •

★ ★ ★

لقد اطلعنا في غينيا على ما يحدثه النفوذ الاجنبي والاستعمار الغربي من تخريب في تلك الدولة الفتية الناشئة ، تحت ستار الصداقة والمساعدات الخادعة ، كما شاهدنا بأم أعيننا الطاقات الواسعة والثروات الضخمة التي يمتلكها شعب غينيا الصغير الذي يسيطر الفقر على معظم أبنائه • وكنا لدى التقائنا بالافراد والجماعات من الغينيين في شوارع كوناكري وساحاتها وأماكنها العامة ، نقرئهم التحية باللغة العربية وبقولنا « السلام عليكم » فيهبون للترحيب بنا والتعرف الينا ، معلنين عن اغتباطهم وسرورهم بلقاء اخوتهم في العقيدة والدين ، اذ أن أغلبية السكان هم من المسلمين ، وان كانوا بمعظمهم لا يعرفون من اللغة العربية الا بعض الكلمات أو عددا محدودا من الآيات القرآنية • وهم على الاغلب يتكلمون اللغة الفرنسية بطلاقة واضحة بالاضافة الى لغتهم الاصلية السواحلية ، وغيرها من اللغات الافريقية المحلية •

وقد لاحظنا أن خير وسيلة للافادة من طاقات الشعب الغيني الصديق المكافح وسائر الشعوب الافريقية المماثلة له ، هي في تمتين روابط الصداقة والتضامن معه في ميدان العلاقات الخارجية ، وفي زيادة التبادل السياسي والثقافي والتجاري • وقد أبدينا مثل هذا الرأي الى جميع من التقينا بهم من المسؤولين والمواطنين لدى عودتنا الى ديارنا من ذاك المؤتمر الذي ترك اشتراكنا فيه وزيارتنا لافريقيا السوداء بمناسبة انعقاده أعظم الاثر ، حيث أتاح لنا الاطلاع على تجربة حية لدولة تعتبر من أكثر الدول الافريقية تحررا ، والتي أضحت لذلك وبالتالي أكثرها عرضة للضغط الخارجي •

وقد جاءت حرب حزيران عام ١٩٦٧ والعدوان الغاشم الذي شنته القوات الاسرائيلية على أراضي الدول العربية المتاخمة لفلسطين، أقوى دليل وأصدق برهان على ما كنا حذرنا به شعوب آسيا وافريقيا في مؤتمري الحقوقيين الآسيويين والافريقيين المنعقدين في دمشق عام ١٩٥٧ وفي كوناكري عام ١٩٦٢ ، من أن اسرائيل هي قلعة عدوان وأداة اغتصاب ومصدر شر واضطراب في العالم •

وقد كان من جراء ذلك العدوان الاسرائيلي الغاشم أن تنبهت حكومة غينيا ورئيس جمهوريتها المسلم السيد أحمد سيكوتوري الى خطر تلك الاداة الجرمية ، فأمر وقتئذ بطرد جميع البعثات الاسرائيلية الدبلوماسية والفنية مستغنيا عن جميع المساعدات التي كانت تقدمها اسرائيل لدولة غينيا الشابة • وربما كان لهذا السلوك الوطني والاتجاه السياسي الصحيح الاثر الكبير في توجيه الغارات التي شنتها قوى الشر والعدوان البرتغالية بمؤازرة الاستعمار الغربي والصهاينة المجرمين ، خلال عام ١٩٧٠ لغزو الاراضي الغينية ، وفرض السيطرة الاستعمارية عليها من جديد •

ان من واجب الشعوب الحرة قاطبة ، ومن واجب العرب خاصة أن يقفوا موقف التضامن مع شعب غينيا الباسل بقيادة رئيسها المناضل ، لحماية استقلال هذه الدولة وصيانة حرية شعبها الحر الشجاع •

# ٥

## صراع الديكة

**« لن تستطيع أمة أن تنهض دون أن تطهرها نار العذاب » •**

« المهاتما غاندي »

تعرض الزعيم الوطني الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في نيسان عام ١٩٢٢ للاعتقال ، بسبب اشتراكه في استقبال الدبلوماسي الاميركي المستر كراين الذي أمّ دمشق للاطلاع على حالة البلاد السورية في ظل الاحتلال الفرنسي ؛ كما اعتقل معه لفيف من العناصر الوطنية • وقد جرى توقيفهم على أيدي رجال الشرطة السوريين ووضعوا مؤقتا في دائرة الشرطة • ويروي الزعيم الراحل في مذكراته : « دخل علينا ضابط افرنسي برتبة رئيس في الساعة الثالثة ، فقال : (تفضلوا)• فتحققنا ما كان ذكره لنا المدير من أمر تسليمنا الى الدرك الافرنسي فخرجنا فرأينا في الباب أربعة دركيين فرنسويين ينتظروننا ، وكان خلق كثير يترقب سير الحوادث في الدائرة • ولكن ما أشد دهشتنا لما أمر الضابط فقال : مدوا أيديكم ، فمددناها فأخرج الدركيون من جيوبهم السلاسل والاغلال فطوقوا بها أيدينا ، وأقفلوها عليها كما تقفل على أيدي القتلة وقطاع الطرق واللصوص ، ولم يخطر ببالنا

قط أن نعامل في عقر دارنا بين أهلنا وبعد خدمة عشرين سنة للمصلحة العامة هذه المعاملة الطائشة التي لا تصدر عن أصغر صغار الموظفين الترك في عهد السلم • وقد لا يختلف الفريقان بالكراهية لنا ، ولكن لهؤلاء من الاختبار والذوق بل ومن العقل السليم أيضا ما يزجرهم عن ركوب مثل هذا الشطط الفادح لانهم يعلمون أن الاقدام على احتقار الحياة الناهضة في الشعوب عمل يثير ويولد الضغائن التي لا يلئم صدعها • ولكن أنى (لارلابوس) وأساتذته الذين تمرنوا بين الشعوب الافريقية على الهزء بالمشارقة والاستخفاف بأديانهم ومذاهبهم أن يثوبوا الى الرشد فيتعلموا أنهم في سورية ملتقى المدنيتين وعلى باب الامة العربية التي ما قط خضعت واستسلمت في حريتها وشرفها» •

ويمضي الدكتور الشهبندر في مذكراته : « قد تكون الشعوب الافريقية في الماضي أطمعت المستعمرين في شرف الشرق ، ولكن أنا على مثل اليقين أن الحراسة العسكرية وضرب الارهاب والارهاق سيولد في أضعف الامم الافريقية نظرة تدعو الطائشين الى التفكر ومن يعش ير •

عصارى اليوم سيعلن أمام الاطباء والمحامين وكبار الموظفين أن اخوانهم يكبلون بالاغلال ويساقون الى أعماق السجون لهتافهم للحرية ، وفي المساء ستعلم سورية من أقصاها الى أقصاها أن الزهور التي أنبتتها الجامعات والكليات ودور الفنون تسحق تحت أقدام (الميليتاريزم) السيطرة العسكرية • وفي الليل ستضاء أنوار في دور لم يعد اليها أربابها وسيبيت الاطفال والعجائز والشيوخ وراء الباب ينتظرون بلهفة وخفقان القلب جزءا من الغرائس التي اختطفتها الذئاب الكاسرة الى الاوكار المظلمة والكهوف الموحشة ، ولا شك أن العالم في بحر هذا الاسبوع سيأتيه خبر عما عملته الام الرؤوم والمربية الحنون مع من رفع عقيرته ونادى من أعماق القلب بصوت

تفجر من ينبوع النفس الطافحة يطلب الحياة وينشد الحرية »[1] .

* * *

كان من حق الشهبندر أن يندد بأساليب الفرنسيين القاسية في معاملة الوطنيين السوريين ، وكان من المنطقي أن يجري المقارنة بين المعاملة الطائشة التي كان أبناء « الام الرؤوم والمربية الحنون » ، فرنسا ، يعاملون بها المناضلين الوطنيين وبين معاملة الاتراك لهم ، وهو السياسي المخضرم الذي عاصر كلا العهدين التركي والفرنسي وخبر أساليبهما في اخضاع الشعب العربي .

حقا ، كان الفرنسيون غلاظا عتاة عندما كبلوا أحرار البلاد بالسلاسل والقيود ، أما الاتراك من قبلهم ، فرغم كرههم للعرب ، فقد كان لأصغر صغارهم ، من الذوق والعقل السليم ، ما يزجره عن ركوب مثل هذا الشطط الفادح .

أما بعد أن جلا هؤلاء وأولئك عن هذه الارض المقدسة ، فيا ليت ذاك الزعيم الوطني الراحل يطل من علياء سمائه ، ليطلع بأم عينه على شطط هؤلاء الابناء والاحفاد الذين ضحى هو وأمثاله من شهداء الامة في سبيلهم ، لينعموا من بعدهم بالاستقلال والحرية ، ويرى كيف حكموا بلادهم ، والاساليب التي اتبعوها في معاملة مواطنيهم وأبناء جلدتهم .

ان الجراح التي خلفها المحتلون الغاصبون في جسم الشعب العربي السوري وأجساد أبنائه لعميقة ولا ريب ، ولكن تلك التي

---

(١) مذكرات عبد الرحمن الشهبندر ـ دار الارشاد بيروت ـ ص : ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ .

أنزلها باخوتهم مغتصبو السلطة من العسكريين السوريين ، كانت أكثر عمقا وأشد ايلاما •

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة
على النفس من وقع الحسام المهند

وان ما ارتكب في السجون السورية في عهود الديكتاتوريات العسكرية بعد الاستقلال من جرائم بحق المواطن كمواطن ، وبحق الانسان كانسان ، هو لما يندى له جبين البشرية • ان الكثيرين من أبناء الشعب على اختلاف مذاهبهم الفكرية ، واتجاهاتهم السياسية، وانتماءاتهم الحزبية ، قد تعرضوا خلال عهود الارهاب التي فرضتها الديكتاتوريات على هذا البلد المكافح ، للتوقيف التعسفي وللتنكيل الوحشي على أيدي زبانيتها الشرسين ، تستأجرهم وتسخرهم خصيصا للبطش بخصومها السياسيين ، وبكل من يتعثر به الحظ من المواطنين الابرياء الآمنين ، فيقع فريسة الذئاب الكاسرة ، تربيها تلك العهود وترعاها للفتك بحريات المواطنين وكراماتهم • ولا مبالغة في القول بأن ما من أسرة في سورية الا وتعرض واحد من أبنائها أو أكثر لمثل هذه المعاملة الطائشة ، حتى بات أكثر المواطنين يشعرون ، في ظل تلك العهود السوداء ، بالخوف الدائم من مداهمة الاجهزة المتسلطة لبيوتهم ، والاعتداء على حرمة مساكنهم ، وترويع شيوخهم ونسائهم وأطفالهم ، بواسطة أعوانها الذين كانوا يستهدفون من غاراتهم المفاجئة في الليل أو النهار اختطاف منكودي الحظ الذين ينصب عليهم غضب السلطان أو يقع عليهم اختيار الاجهزة المتحكمة ، لسوقهم الى الاوكار المظلمة والكهوف الموحشة وأقبية التعذيب ، حيث يلقى المعتقلون معاملة ، أين منها أساليب الجند الفرنسيين ، وتشمئز منها ولا شك نفوس أصغر صغار الموظفين العثمانيين •

وكم من مرة عصفت أظافر تلك الوحوش وأنياب تلك الذئاب،

بأرواح بعض المعتقلين ، حتى أضحى عدد أولئك الذين لاقوا حتفهم أثناء التعذيب الوحشي لا يحصى لكثرتهم ، ولطمس جرائم قتلهم من قبل سلطات الامن ذاتها المكلفة أصلا بالسهر على سلامة المواطنين وأرواحهم • وان معظم من نجوا بأرواحهم من بعد عمليات التعذيب الجسدي التي أنزلت بهم ؛ لابد وأن يكونوا أصيبوا بكثير من التشويه ، ان لم يكن في أعضائهم الوظيفية وصحتهم البدنية ؛ ففي أعصابهم وحالتهم النفسية •

فلمصلحة من كانت تشرع السياط المجرمة ، وتجلد الاجساد الغضة المحرمة ؟ ولحساب من كانت تحرك آلات البطش والتعذيب، وتزهق أرواح الابرياء الآمنين ؟ ألمصلحة جلاديهم ومعذبيهم وقاتليهم؟ أم لمصلحة الحكام المتسلطين ؟••

ـ الحقيقة التي يجب أن يجاهر بها ، هي أن الارهاب الاسود كان ، دائما وأبدا ، جزءا من مخطط استعماري قذر ، يستهدف استعباد أبناء هذا الشعب عن طريق تكبيلهم بأغلال الديكتاتوريات العسكرية الغاشمة والانظمة الفردية المستبدة ، الواقعة هي ذاتها ضمن المخطط الاستعماري ، والمسيرة بأمره ، والعاملة لمصلحته ، والمأجورة لحسابه ••• وعلى غرار من أبطرهم المال من مترفي الغرب الاستعماري الذين يجدون تسلية كبرى في حضور حفلات صراع الديكة ، برع الامبرياليون الامريكيون في جر أبناء الدول الخاضعة لنفوذهم ليوغلوا في التنكيل ببعضهم ، دون رحمة أو شفقة ، على طريقة الديوك المتصارعة في الحلبة ، ليجني منظمو الصراع الدامي الارباح الطائلة والمال الحرام من وراء غباء تلك الطيور الحمقى • وهكذا كان حال السوريين في ظل الديكتاتوريات العسكرية الموجهة من قبل الولايات المتحدة الامريكية •

وان واحدا من مخططي الانقلابات العسكرية ومؤسسي الديكتاتوريات المتسلطة في البلاد العربية ، وهو من كبار ضباط المخابرات الامريكية ، واسمه « مايلز كوبلاند » ، لم يتورع ، وبتبجح ظاهر ، عن شرح دوره وأدوار زملائه ، في التخطيط لتلك الانقلابات المجرمة ، بدءاً من انقلاب الزعيم حسني الزعيم ، أول انقلاب عسكري معاصر يقع على باب الامة العربية .. ولم يفت وكيل المخابرات الامريكية المجرم ، في كتابه الاسود « لعبة الامم »، أن يشير الى الدور الخفي أحيانا ، والبارز أحيانا أخرى ، الذي لعبه الضابط أديب الشيشكلي في الانقلابات السورية الاربعة التي وقعت في سورية خلال الفترة الواقعة بين ٣٠ آذار ( مارس ) ١٩٤٩ و ٢ كانون الاول ( ديسمبر ) ١٩٥١ ، الى أن صعد على كرسي رئاسة الجمهورية في ١١ تموز ( يوليو ) ١٩٥٣ ، حتى سقوط حكمه الاسود الغاشم بتاريخ ٢٦ شباط ( فبراير ) ١٩٥٤ ، لان الشيشكلي اياه كان العميل رقم واحد الذي اعتمدته الامبريالية الامريكية لتنفيذ سياستها الاجرامية ، الرامية لاخضاع شعب هذا البلد العريق المجاهد.

كان عهد الشيشكلي يمثل أبشع أنواع الديكتاتورية ، وكان علي أن أسهم مع أحرار هذا الشعب في خوض معركة ضارية ضده لاسقاطه .

# ٦

## محام وراء القضبان

**« انه لأهون عليك أن تزحزح الجبال من أن تطوق بأغلال العبودية أولئك الذين يصرون على الحرية » .**

« أحمد شوقي »

تقوم مهنة المحامي على الدفاع عن حقوق الافراد وأموالهم وحرياتهم وكراماتهم ، ضمن حدود القوانين والانظمة ، بما يمليه عليه شرفه ووجدانه في أداء رسالته السامية في خدمة الحق والعدالة .

ولكن عندما يتصدى المحامي للعمل السياسي ، تتجسم مهمته، وتتعاظم مسؤوليته ، ويصبح مسؤولا ، لا عن حقوق موكليه فقط ، بل عن حقوق الوطن ومصلحة المواطنين وحرياتهم وكراماتهم جميعا ، ضد عنت الجبابرة المعتدين ، وتعسف الظالمين ، وسيطرة المستبدين.

واذا ما تعرض المحامي نفسه لاجراء من اجراءات هؤلاء المستبدين ، كتوقيفه مثلا بشكل غير مشروع ، أو الاعتداء على حريته أو جسده أو كرامته ، يكون أمام اختبار قاس ، عليه أن يثبت

فيه جدارته لحمل رسالة العدالة ، وأن يقيم الدليل ، لدى اجتيازه، على مدى ايمانه بالحق المطلق وتمسكه بقدسية القانون الذي يعمل ويسعى عادة من أجل تطبيقه واحترامه .

وقد شاءت الظروف أن أجتاز ، أنا شخصيا ، مثل هذا الاختبار القاسي أكثر من مرة .

★ ★ ★

ففي أواخر عام ١٩٥٢ اعتقل أخي عدنان ، الضابط في الجيش السوري أثناء قيامه بالواجب الوظيفي وخلال الدوام الرسمي ، وأدخل السجن لأول مرة في حياته . وكان السبب في صدور الامر باعتقاله، أن الكثيرين من ضباط الجيش توافدوا لزيارته ، جماعات ووحدانا ، بعد عودته من فرنسا حيث أنهى بنجاح وتفوق كبيرين دورة المدرسة الحربية العليا التي أهلته شهادتها لحمل لقب ضابط ( ركن مجاز ) .

وكان معظم زائريه يبدون استياءهم من سوء الاحوال العامة في البلاد ، ومن انحراف حكم العقيد أديب الشيشكلي في اتجاه المشاريع الاميركية الاستعمارية .

وقد أبدى بعض هؤلاء ، استعدادهم وقدرتهم على الاطاحة بحكم الديكتاتور المنحرف والعودة بالبلاد الى الحكم الدستوري . وكان الحاحهم على أن يتولى أخي قيادة الحركة نظرا لما كان يتمتع به من شعبية واسعة في أوساط الجيش ولثقة أكثرية العسكريين به ، كبارهم وصغارهم .

كان أخي ، في الحقيقة ، أمام اختبار قاس ودقيق . فهو كعسكري لا يريد الانغماس في المشاكل السياسية ، ولكنه كمواطن كان يرى أن الديكتاتورية المسيطرة على الشعب ستقود الوطن الى الهزيمة والكارثة .

لذلك ، ورغم تأييده لفكرة تحطيم الحكم الديكتاتوري ، والعودة بالبلاد الى جادة الحكم الدستوري ، ظل أخي مصرا على أن يتزعم حركة الضباط واحد غيره ، في حين أن هؤلاء كانوا متمسكين بشخصه ومتحمسين للسير تحت لواء قيادته •

كانت خطتهم المقترحة بسيطة وجريئة في آن واحد ، وهي تستهدف اقتلاع الديكتاتور من مركز التسلط والسيطرة الذي كان يحتله ، مع الحرص الشديد على أن تجرى الحركة بشكل مفاجيء لا يتيح للديكتاتور فرصة استخدام القوة واراقة الدماء • ولم تكن العملية لتتطلب لنجاحها ، حسب تقديرهم ، سوى اعتقاله مع واحد فقط من أعوانه ، كان ملازما أول ويشغل قيادة فوج الشرطة العسكرية، وتجميد الثاني باعتباره قائدا لفوج آليات مدرعة ، وكان برتبة رئيس• وكان هذان الضابطان في نظرهم الدعامة الاساسية التي يعتمدها الديكتاتور في حكمه الارهابي الاسود • وقد تأكدت صحة تقديرهم للموقف عندما لم يقف سوى ذينك الضابطين الصغيرين الى جانب رئيسهما في المستقبل ، يوم زلزلت الارض من تحت عرشه المتهاوي في الخامس والعشرين من شباط ( فبراير ) عام ١٩٥٤ •

وكان من الطبيعي أن لا يكتفي أخي باستعداد هؤلاء الانقلابيين الذين كان عددهم محدودا ، وكانوا من ذوي الرتب الصغيرة والتجارب القليلة ، رغم ميولهم اليسارية الواضحة ، فكان لابد من سبر غور مختلف قطعات الجيش ، ودراسة موقف العناصر الوطنية الموثوقة من كبار الضباط الحريصين على اقصاء الجيش عن ميادين السياسة ومرابع الحكم ، والذين بدأوا يلتفون حول أخي منذ عودته من دراسته في فرنسا • فكان هناك شبه اجماع من أكثرية العسكريين، على اختلاف رتبهم وميولهم ، على ادانة عهد الشيشكلي بالتسلط والتخريب والانحراف • ولكن تسرع أحد أصحاب الخطة الانقلابية

في مفاتحة اثنين من الرقباء ، من عناصر كوكبة مدرعة كان يتولى آمريتها ، أدى الى اكتشاف الخطة التي كانت في الحقيقة مجـرد فكرة في رؤوس أصحابها • وقد توصلت الشعبة الثانية لالتقـاط الحديث على شريط صوتي •

وكان استعمال آلات تسجيل الصوت في ذاك الوقت غير شائع في بلادنا ، وكانت المخابرات الاميركية هي التي زودت عميلها الشيشكلي وجواسيسه بهذه الوسيلة الالكترونية الحديثة ؛ كما أمدته بعدد من المعدات الخاصة بعمليات قمع تحركات الجماهير ، وارهاب الاهلين، ومنها القنابل المسيلة للدموع وأقنعة الغاز والهراوات والدروع ، وسوى ذلك من الادوات التي استعملتها قوات الامن ، لمجابهـة حالات الطوارىء الناجمة عن اضراب طـلاب الجامعـة والمدارس الثانوية ، ولقمع مظاهرات الاهلين التي تكررت في ذاك العهد الذميم•

★ ★ ★

وفي نفس اليوم الذي اعتقل فيه أخي وحوالي منتصف الليل ، أمت الشارع الذي نقطن فيه ، مفرزة من رجال الشعبة الثانية يمتطي أفرادها الدراجات النارية ، وصارت تطوف الشارع جيئة وذهابـا ولعدة مرات أمام دارنا ، تاركة لزمامير الدراجات النارية وفرقعاتها المزعجة العنان • وكان راكبو تلك الدراجات يطلقون في آن واحد من حناجرهم أصواتا وحشية على طريقة زنوج قبائل الزولو الافريقية أو الهنود الحمر ، كما كانت تظهرهم الافلام السينمائية الاميركية •

وكان واضحا تماما أن قصد هؤلاء الذئاب هو نشر الذعـر والرعب في نفوس أهل الضابط المعتقل • فخرجت اليهـم منـددا بأسلوبهم الهمجي الارعن ، صارخا في وجوههم وبأعـلى صوتي : « أيها الرعاديد الجبناء ، أبلغوا عني زعيم عصابتكم أن الرجولـة

ليست في ترك الجبهة هادئة أمام العدو ، وانتقاله مع زبانيته لاجتياح شوارع العاصمة ، واثارة الفوضى فيها وترويع الاهالي الآمنين ، بل الشجاعة والوطنية هي في مقارعة العدو الذي سبق للشيشكلي أن تواطأ معه وسلمه بعض المناطق التي كان يحتلها جيش الانقاذ ، وأهمها مدينة صفد • وان كنتم تريدون ارهاب أهل أسيركم العربي ، فهاهم أمامكم يهزؤون بكم وبرئيس عصابتكم » •

وكأن هؤلاء العبيد قد حققوا نصرا كبيرا بما أقدموا عليه من عمل غوغائي بقصد الاثارة والاستفزاز ، فانصرفوا ليرفعوا الى سيدهم تقريرا خطيا بما سمعوه من تهجم وتطاول على « ذاته العلية » •



لم تمض أيام قليلة الا وصدر الامر باعتقالي ؛ ولدى خروجي صباحا من داري ، داهمني عدد من مخبري الشعبة الثانية يحملون الاسلحة النارية الاوتوماتيكية ، ودون أن يعلنوا عن صفتهم الرسمية أو يبرزوا أمرا قضائيا بتوقيفي ، اختطفوني في سيارة جيب أميركية، وذهبوا بي توا الى سجن المزة العسكري •

يقع هذا السجن الرهيب ضمن قلعة بناها الفرنسيون على احدى روابي قرية المزة المتاخمة لمدينة دمشق ، فارتبط تاريخ هذا البناء بتاريخ كفاح الشعب العربي السوري من أجل الاستقلال والحرية والكرامة • وقد شهدت جدران هذا المعتقل ، على اختلاف العهود التي تعاقبت على هذا البلد المجاهد ، قبل جلاء الفرنسيين وبعد الاستقلال أفواجا من المعتقلين السياسيين أو المجرمين العاديين ؛ كما ارتكبت في داخله وفي أقبيته وزنزاناته وأرجائه ، من الجرائم بحق الجنس البشري ، مما يندى له جبين العالم المتمدن ؛ وستبقى

وصمة العار لاحقة بمن بنوه وبجميع أولئك الذين من بعدهم استخدموه ، بقصد ارهاب أبناء شعبهم واضطهاد مواطنيهم واذلالهم •

★ ★ ★

لدى تسليمي الى ادارة السجن ، تولى السجانون تجريدي من جميع ما كان في جيوبي من أوراق ، ومن محفظة نقودي ، وساعتي اليدوية ، وقلم الحبر ، كما انتزعوا الحزام الجلدي من بنطالي ، وربطة العنق ، وشريط حذائي ؛ ونقلوني الى غرفة فسيحة ، كان فيها سرير حديدي مرتفع موسد عليه فراش محشو بالقش وفيها جرة ماء كبيرة ، ومرحاض •• تركت لوحدي ولم يدخل الغرفة طيلة النهار وحتى المساء ، الا سجان واحد أحضر لي وجبتي طعام الغداء والعشاء، ولكني لم أتناول منهما شيئا ، منتظرا ما كان يعد لي من طبخة أدسم•

وفي المساء ، ولم أكن أستطيع تحديد الساعة ، لاني أوقظت من النوم ، ولم تكن ساعة يدي معي بعد أن جردت منها كما أسلفت، دعيت الى غرفة مدير السجن ، فوجدت فيها سبعة ضباط ، منهم ستة ملازمين ورئيس واحد ( نقيب ) •

وقد استأنست برؤية هذا الضابط لاني كنت أعرفه سابقا ، وقد كان معاونا لاخي في أول دورة لمدرسة الاخصائيين التي جرى تأسيسها ، بعد استلام الجيش من السلطات الفرنسية ، لاعداد الرتباء؛ كما قاتل معه بشجاعة في المعركة التي خاضها الجنود السوريون لاحتلال المرتفعات المسيطرة على مستعمرة « مشمار هايردن » في قرية « كعوش » الفلسطينية • وقد أنقذه أخي في تلك المعركة من هلاك مؤكد ، هو ودبابته التي كان يتولى قيادة قطعته الآلية منها •• كان من الممكن أن يصبح هذا الضابط ذات يوم بطلا قوميا ويلعب دورا بارزا في معارك جيشه ، لو لم تجرفه الديكتاتورية العسكرية وتدفعه

في متاهات السياسة ليغوص فيها ، وتستهويه اغراءاتها ، ويبتعد تدريجيا عن مجاله العسكري ، ويقصى نهائيا عن ساحات الوغى والقتال ، ويحرم شرف مقارعة الاعداء وجها لوجه ، بعد أن نجح في مثل هذه المهمة الوطنية في عام ١٩٤٨ •

وقد فوجئت بسوقفه الجامد وبجو الخوف الذي كان مسيطرا على أعضاء اللجنة العسكرية المؤلفة برئاسته ، وذلك بسبب وجود قائد فوج الشرطة العسكرية في عداد أعضاء اللجنة ، وكان ساعد الديكتاتور الايسن في فرض سياسة البطش والارهاب على البلد ، وهو الملازم الاول عبد الحق شحادة •

ولا بد للتعريف بهذا الـ ( عبد ) الحق من العودة الى ماضيه ؛ وكي لا أظلمه أو أتحامل عليه فاني أنقل وصفه كما ورد بقلم الزميل المحامي الاستاذ عبد الفتاح الزلط ، في رسالة وجهها لي من الزنزانة التي كان معتقلا فيها خلال وجودي في السجن[1] •



(١) ورد في تلك ارسالة :

فأنا اعرف هذا الابله قبلكم ، بل واعرفه منذ زمن بعيد جداً يعود لعهد طفولتي حين كان يأتي الى بيتنا مستنجداً بأخي ليحل له بعض مسائل الحساب خوفاً من أن يأكل من معلمه « فلقه » ومن ثم يسجل المسائل في دفتر وظائفه وينتحل حلها لنفسه .. هذا شأنه منذ كان في الثانية أو الثالثة عشرة من عمره ، ومن ثم صار أخي بعد هياط ومياط وعرق من شقاء عريفاً في الشرطة ووصل ملازمنا الى ما هو فيه الآن .. نعم أعرفه منذ ذلك التاريخ ، واعرفه حين كان عضواً مقرفاً في جمعية الاخوان المسلمين حين كان محط اشمئزاز وسخرية من كافة رفاقه وأعرفه كيف ظل ست أو سبع سنوات وهو يحضر

ان الديكتاتورية تنجح في اختيار أعوانها المخلصين من بين أمثال ذاك الشخص المسكين ، فتتخذ منهم مطايا رخيصة ، وأدوات صماء، لتنفيذ سياستها الاجرامية بحق الشعب ، حتى اذا ما استهلكتهم وشوهت سمعتهم ودمرت مستقبلهم ، لفظتهم لفظ النواة ، وتركتهم عرضة لأسوأ العواقب ، ليدفعوا وحدهم ثمن خطاياهم • وهكذا فعل الديكتاتور أديب الشيشكلي بهذا الضابط الصغير ، فقد استغله وورطه في ارتكاب العديد من الجرائم الوحشية ضمن خطته الارهابية الرامية الى اخضاع الشعب •

ان من جملة الجرائم التي ارتكبها هذا الضابط المتهور ، قتل المواطن السيد مجيب المرشد ظلما وعدوانا ، ثم الاشتراك ، مع العقيد الشيشكلي نفسه ، في قتل الرقيب ناجي البحري أثناء تعذيبه في سجن المزة • لقد انغمست يدا هذا القاتل في دماء الابرياء ، فبات متعطشا للدم البشري كالوحش المفترس ، يطلب المزيد منها ، دون روية أو خوف من حساب أو عقاب ، اعتقادا منه أن تسخير نفسه ووجوده لخدمة عهد التسلط والسيطرة سيحميه ولابد من القصاص الذي يستحقه مقابل ما ارتكبه من جرائم وآثام خطيرة •

---

البكالوريا ويخفق .. ولست أدري اذا كان الاخ حمدي يعرف معي هذه التفاصيل .. فاذا كان امره لدي كذلك ، فليس من الطبيعي في شيء أن أغمض عيني عن سخافاته .. بل لعمري انه ذل ما بعده ذل أن أرى هذا الحقير في وجهي يتخطى ويتمطى ولا استطيع أن أطبق على خناقه بيدي بل برجلي ان استطعت حتى أراه يلفظ أنفاسه الاخيرة كما يموت الكلب . ولكنها سنة الدهر حين يغلط — وكم للدهر من غلطات — وقد عبر عنها أبو الطيب المتنبي بقوله : « فالحر مستعبد والعبد معبود »* .

**عبد الفتاح**

* **( الملحق رقم ١ والملحق رقم ٢ )** •

وقد قضي على هذا المجرم القاتل من قبل المحكمة العسكرية ، بعد سقوط ديكتاتورية الشيشكلي ، بسجن الاشغال الشاقة غيابيا ، جزاء وفاقا لما اقترفته يداه الاثيمتان في قتل الرقيب بحري •

* * *

ان من طبيعة عمل المحامي أن يقف أحيانا أمام محكمة الجنايات للدفاع عن مثل هذا المجرم العاتي ، لأن حق الدفاع مقدس ، ولا بد من اسعاف أي متهم ، في دعوى جنائية ، بتولي الدفاع عنه من قبل محام موكل أو مسخر •

ولكن أن يقع المحامي المجاز ، والمواطن الحر ، في قبضة مجرم قاتل ، ليقدم له الحساب عن كفاحه في سبيل توطيد دعائم القانون والذود عن حرية الشعب وكرامته ، فهنا الطامة الكبرى ، والعجب العجاب ، ومهزلة الدهر التي ما بعدها مهزلة •

وكان علي أن أكون ، أنا وحريتي وكرامتي واندفاعي في خدمة وطني وشعبي وحماسي لتطبيق القانون وفرض احترامه ، مدار مثل هذه المهزلة ، عندما تعرضت للاستجواب من قبل لجنة عسكرية مؤلفة من خمسة ضباط صغار يواكبهم ضابطان آخران أحدهما عين مديرا للسجن في تلك الفترة بالذات التي ازدحم خلالها سجن المزة العسكري بالسجناء وأتخم بالمعتقلين السياسيين ، مدنيين وعسكريين ؛ وثانيهما معاون رئيس الشعبة الثانية ، وكانت مهمته ، على ما يبدو ، مراقبة عمل اللجنة لانه لم يكن عضوا رسميا فيها •

وكان بدهيا أن يتولى توجيه الأسئلة رئيس اللجنة بالذات ، وأن يصمت أعضاؤها ؛ ولكن السيطرة الفعلية على اللجنة وأعمالها، كانت لضابط الشرطة العسكرية الذي تولى المبادهة لاحتلال حلبة الصراع الدامي الذي دار أمام هؤلاء العسكريين ، وقد كان مكانهم

الطبيعي في ميادين التدريب وساحات القتال ، فنقلتهم أيدي الديكتاتورية المنحرفة ، والخادمة لمصالح الاعداء ، الى أوكار التجسس وأقبية السجون والمعتقلات ليمارسوا أدوار الجواسيس ، والسجانين ، والجلادين ، وشهود الزور ، ضد الاحرار من أبناء وطنهم .

كان صراعا قاسيا وعنيفا بين المحامي المعتقل وبين ضابط الشرطة العسكرية المجرم القاتل ، كان صراعا بين الحق والباطل ، بين الخير والشر .

بدأه الضابط بطرح أول سؤال على المحامي الاسير ، فرد رجل القانون محتجا بعدم قانونية توقيفه لعدم صدوره عن مرجع قانوني مختص ومعترضا على عدم شرعية اللجنة التي يقف أمامها .

يحتد الضابط ويبدأ بالسباب والشتائم ، فيرد المعتقل السهم من حيث أتى وبشكل مهذب ، ولكنه يصيب من الضابط قمة عنجهيته وصميم غطرسته ، ويثير الوحش الضاري الكامن تحت هندامه العسكري ، فيهجم كالثور الهائج ، وهو بدين وقوي مثله ، على المواطن الاسير موجها له اللكمات القوية والصفعات الاليمة بكلتا يديه على رأسه ووجهه ، وبشكل قاس ، فيدميه ، ويغمى على الاسير لشدة الضربات التي انقض بها الوحش عليه ، عند ذلك يصبون عليه دلوا كبيرا من الماء البارد ، فلا يلبث أن يصحو من حالة الاغماء ، حتى يعاود الثور اعتداءه الاثيم لا بقبضتيه وراحتيه وقدميه فقط هذه المرة ، بل وباستعمال سوط جلدي غليظ ، ينهال به على جسد الشاب النحيل الواقف أمامه كالطود ، لا تزيده السياط الا تشبثا بموقفه ، ولا يبعث فيه الاعتداء على جسده ، الا الثبات والتصميم على مجابهة الظلم والطغيان .

ويتكرر المشهد «الدرامي» ، ضرب وتعذيب واغماء ودلو من الماء وصحو ، حتى تدور الارض ويزوغ البصر ، فلا يعود الانسان الحي يدري ماذا يدور داخل نفسه وفي عقله ومن حوله ، ولا يستطيع تمييز الاشياء ..

وينتاب الجسد المعذب الدامي بالاضافة لآلامه البدنية الناتجة عن شدة الضربات ولهيب الجلدات ، شعور داخلي مفعم بالاشمئزاز والاشفاق : الاشمئزاز من الدرك الذي ينحدر اليه بعض بني قومه في الاعتداء على الاحرار من أبناء شعبهم ، بينما العدو المشترك يقف على الحدود ، كالشيطان ، يقهقه بينه وبين نفسه لانه قد تحقق له ما ينشده من نظام الحكم العسكري الذي ما قام أصلا في البلاد الا لخدمة أغراضه العدوانية وأهدافه التوسعية ، يخالط الاشمئزاز اشفاق شديد من الانسان الحر الذي يتصدى لتحرير العبيد ، فيظهر من بينهم عبد يتطوع لجلد الانسان المكافح من أجل تحريرهم .

فيحملون جسده المحطم مثخنا بالدماء والجراح ويلقون به في مكان مظلم ، ضيق ، رطب ، ويصبون فوقه دلوا آخر من الماء ، ويترك فترة لا يمكنه تحديدها في سياق الزمن ، ثم يعـود اليـه السجانون الغلاظ ويخرجونه من الزنزانة التي ألقوه فيها ، ويدفعونه بعنف في طريقهم الى غرفة مدير السجن ، ويمضون به بين صفين من الجنود لابسي المعاطف الخاكية ، والحاسري الرؤوس ، والحليقي الشعر ، والذين تبدو على وجوههم الصفراء جميعا آثار التعذيب الوحشي . انهم حرس الشرف كما كان يتندر المعتقلون بتسميتهم ، أو ضحايا الظلم والشر ، يحاولون بواسطة مظهرهم ادخال الرعب والرهبة الى نفس السجين الذي يدفعونه أمامهم للسير بين صفي هؤلاء المعذبين التعساء .

وفي هذه المرة يتولى رئيس اللجنة طرح الاسئلة من جديد ، فيعطيه ابن العدالة درسا قانونيا في أصول التحقيق ويدعوه لتنظيم محضر استجواب خطي ؛ ان كانوا فعلا جادين في التحقيق معه • فيفرح رئيس اللجنة وأعضاؤها ويأتون بالقلم والقرطاس ، ويدفعون بها الى المواطن الموقوف ، ويطلبون اليه تسطير المحضر بنفسه • يرفض ذلك ويفهمهم أن هذا عبء يقع على عاتقهم ماداموا حريصين على القيام بدور المحققين • فيكلف رئيس اللجنة مقررها بتنظيم المحضر[1]؛

---

(١) نص محضر الاستجواب :

بتاريخ ١٩٥٢/١٢/٢٦ الساعة التاسعة عشرة اجتمعت اللجنة المؤلفة من الرئيس أمين نفوري رئيساً والملازم الاول أحمد عبد الكريم والملازم الاول عبد الحق شحادة والملازم الاول هشام كيالي أعضاء والملازم الاول حسين القاضي مقرراً واستحضرت أمامها السيد رياض المالكي ووجهت اليه الاسئلة التالية :

س١ : ماهي مآخذك على الوضع الحاضر من حيث الاوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية وهل تعتقد بوجود صلة بين رجال العهد الحاضر وبين الدول الغربية فيما يتعلق بأوضاع الشرق الاوسط ؟ .

ج١ : انني لست مستعداً للاجابة عن أي سؤال يوجه الي من قبل لجنتكم لاني لا أرى صفة قانونية تعطي هذه اللجنة حق التحقيق معي لاسيما وأن حريتي حجزت على وجه يخالف أحكام القانون ومبادىء الدستور الذي وضعته الامة بمحض ارادتها والذي انتهكت حرمته من اشخاص غاصبين لم يولهم الشعب أية سلطة للحكم وللزج بأبناء البلاد الاحرار في السجون لمجرد دفاعهم عن حريتهم وحرية وطنهم وسيادته .

س : هل تعتقد بأن من حق أي مواطن ان يتصل بالعسكريين وأن يفسد عليهم انضباطهم ويحرضهم ضد قيادتهم ونحن بأمس الحاجة لتكتل قوانا سيما ونحن أمام أخطار داخلية وخارجية لا تجهلها ؟ .

ويتسابق أعضاء اللجنة مع رئيسها في طرح الاسئلة .. لكن أجوبة المعتقل تنهال عليهم أشد من السياط التي تلقاها جسده وأدمت رأسه ووجهه ، وألهبت ظهره ؛ فيخيب أملهم ، ويبوءون بخذلان عظيم ربما سيعرضهم لغضب سيدهم الذي طار صوابه لمجرد حديث دار بين بعض الضباط الاحرار والتقطته آذان الجواسيس ، فأغرقه في بحر من الهواجس والوساوس التي لم تكن لتدع له بعد ذلك فرصة لينام بهدوء معظم ليالي فترة حكمه ، حيث كان الخوف يطارده أينما حل وأنى ذهب ؛ فصار يمضي لياليه ، تارة في الثكنات العسكرية ، وتارة في بعض مزارع الغوطة ، وطورا في أكواخ الحراس الليليين ، وأطوارا في بيوت أصدقائه أو في أماكن مجهولة .

---

ج : اني أكرر عدم استعدادي للاجابة على أي سؤال يوجه الي لذات السبب الذي أوردته في جوابي على السؤال الاول .

س : هل تقصد بأنك لا تعترف على الوضع القائم من أساسه أي انك لا تعترف على العهد الانقلابي والحكم الذي أتى بعده ؟ .

ج : لست في معرض استفتاء يجري بشأن اقرار مشروعية الوضع الحاضر أو عدمه .

س : من هم الاشخاص الغاصبون الذين تقصدهم باجابتك الاولى ؟

ج : اني ألتزم الصمت تجاه أي سؤال يطرح علي .

تليت عليه افادته فأيدها بتوقيعه

س : لقد شكلت اللجنة التي اعترضت على عدم قانونيتها والتي لم تعترف عليها من قبل النيابة العامة العسكرية للتحقيق بجرم يمس كيان الجيش فهل انت مصر على عدم الاعتراف ؟ .

ج : لا أقول شيئاً .

س : هل تعلم أن عدم الاعتراف على لجنة قانونية معاقب عليه وأنت بحكم ذلك موقوف بجرم ممانعة لجنة التحقيق عن ممارسةعملها؟

ج : لا أجيب* .

* ( **الملحق رقم ٣** )

سقط الجواب الاول على رؤوس أعضاء اللجنة كالحجر الصلد، وأفزعهم لأنهم ما كانوا ينتظرونه ؛ وقد ورد في كلماته المقتضبة تقييم شامل لعهد العبودية الذي حرصوا على معرفة رأي الانسان الحر فيه • ثم جاء الصمت بعد ذلك أبلغ من الكلام ••

ولكن أنى للعبيد أن يسلموا بمنطق الاحرار ؟ وهل لهم أن يقنعوا حتى بسكوتهم ، اذا كان السكوت معبرا عن الرفض المطلق لمنطقهم وطغيانهم ؟ ••

★ ★ ★

أعادوا السجين مرة أخرى الى محبسه • وكان واضحا سلفا أنهم لن يكفوا عنه شرهم ، رغم ما أذاقوه اياه من عذاب أليم ، وما تفجر من دمه البريء على وجهه وساعديه وظهر يديه اللتين كان يحمي بهما عينيه من لسعات السوط ، وقدر هو أن موقف التحدي الذي وقفه منهم ومن العهد الاجرامي الذي سخرهم ، ليكونوا أدوات صماء في خدمته وفي ارتكاب جرائمه ، سيزيد في ضراوة تنكيلهم به وفي حدة الاعتداء عليه ، وأن الدم الاحمر القاني ، الذي سال أمام أعينهم ، سيجعلهم كالوحوش ، يستثيرهم منظره ، فيسعون لسكب المزيد منه ، تلغ فيه أيديهم الآثمة الملوثة بدماء الضحايا •

وهكذا كان اذ لم يمكث في غرفته بعض الوقت ، حتى جره السجانون بغلظة فائقة ودفعوه أمامهم بين صفي حرس الشرف المؤلف من المعتقلين الذين لاقوا التعذيب قبله ؛ ويدخلونه الى غرفة المدير ، وفيها يرى هذه المرة ما لا تصدقه عيناه : رقيب وعريف وجندي من الشرطة العسكرية ؛ الاول والثالث يحملان ( فلقة ) مؤلفة من خشبة غليظة ، مربوطة من طرفيها بحبل من مرس والعريف يحمل سوطا جلديا غليظا . يقفون جميعا وقفة تأهب واستعداد بين يدي الملازم

الاول ، مدير السجن الضابط في جيش الوطن ، الذي أقسم يوم تخرجه من الكلية العسكرية بأن يكون جنديا شجاعا وبأن يخدم وطنه باخلاص ، ويدافع عن شعبه ويحارب من أجله بشرف حتى الموت ؛ فها هو ذا يبر بعهده ويفي بقسمه ، اذ يصدر أوامره الى الجلادين بأن « عليكم بهذا الصهيوني الخطير ، اجلدوه ، عذبوه ، لا ترحموه ••• » •

هكذا كان دأب عهود الطغيان في سورية العربية المجاهدة الجريحة ، كلما سقط انسان وطني حر في أيدي زبانية الطغاة ، سارعوا لاتهامه بأنه صهيوني ، أو عميل لاسرائيل ، بينما اسرائيل تبني في أرض الوطن وفي أقدس بقعة منه قلعة شامخة تطل منها على العرب لتستمتع برؤيتهم كيف ينحر الاخ أخاه ، وكيف يلغون في دماء بعضهم بعضا •

ما أشبه اليوم بالامس ، حين اعتدى الجند الفرنسيون على الطالب العربي الفتى في عرض الشارع وفي وضح النهار •

أما اليوم ، وبعد أن أصبح محاميا وعضوا في مجلس نقابته ، يتكرر عليه الاعتداء لا من قبل جنود الاحتلال ، هذه المرة ، بل على أيدي جنود الوطن وفي غياهب السجن وفي ظلام الليل •• يا للفضيحة ، ويا للعار !••

وتمنى ذاك السجين لو أن أمه لم تلده حتى لا ترى عيناه ذاك المشهد المخزي ، لا لأنه هو الضحية ، أو لأن السياط ستهوي على جسده من جديد ، ولكن لأنه كان يجل أبناء شعبه عن التردي في مثل هذا الدرك العميق ، ويربأ برفاق أخيه في السلاح أن ينقلبوا هم وجنودهم البواسل الى سجانين عتاة وجلادين قساة ••

ولكن كان لا بد مما ليس منه بد •• فالاوامر لدى العسكريين هي الاوامر ! ويزيد في صرامة تنفيذها ، في مثل هذه الحالة ، اعتقاد الضابط الغر بأنه عندما يبالغ في ذلك ، انما يحظى برضاء رؤسائه ، لأنه بعمله البطولي يقدم لوطنه وشعبه خدمة أكبر من تلك التي يقدمها في جبهة القتال وفي مقارعة الاعداء • أليس هذا هو الدرس الوطني الذي لقنوه اياه عندما استقدموه من قطعته ، والنهج الثوري الذي رسموه له في أوكار الشعبة الثانية ؟••

أما العريف الجلاد ، وهو متطوع من أهالي جبل الاكراد ، متدين حتى الهوس وبسيط حتى السذاجة ، فقد غرر آمره به وبرفاقه عندما ضللهم وأوهمهم بأن هذا الذي بين أيديهم ليركلوه بعد قليل بأقدامهم ، ويضعوا رأسه تحت نعالهم ، ويسلخوا جلده بسياطهم ، ليس الا صهيونيا ذميما ، خصما للعروبة ، وعدوا للاسلام ••

ويبطح السجين على ظهره بالقوة فوق سطح الارض ، وتوضع قدماه العاريتان في « الفلقة » ، ويشد الحبل عليهما بقسوة وغلظة ، ويعض الحبل الجلد وينغرز في اللحم ، وترتفع القدمان الى فوق عاليا وتنهال عليهما الجلدات متتالية متتابعة ، عشرا ، عشرين ، ثلاثين، أربعين ••• يتوقف الجلاد بعدها عن الجلد كما تقضي بذلك قواعد المهنة ، اذ أن لكل مهنة أصولها ، حتى الجزارون ، ان لهم طريقتهم في ذبح الشياه والخرفان ، حتى يصفى دمها ويطيب أكل لحمها •• وهكذا الجلادون ، فقد دربوهم على ممارسة مهنتهم الشريفة السامية •• انهم من مخلفات جنود الاحتلال ، لا بل انهم وبالتأكيد أشد قسوة وأكثر وحشية ••

فلسع السياط ، والتهاب الجلد ، وتمزق الشرايين الدقيقة ، وتهيج الاعصاب تحت وقع الجلدات الغليظة القاسية ، يؤدي أخيرا الى توقف الاحساس بالالم •

ولا بد من استعمال وسيلة ، فنية ، وعلمية ، تعيد الى الجسد الأشل شعوره ، والى القدمين المتورمتين احساسهما • فيصب الماء البارد على القدمين بغزارة ؛ ويشعر السجين عندئذ كأن ماء غاليا أخذ يسلق جلده من بعد ما اكتوى بلهيب السياط ، ثم يرفع من الارض ويحمل على الوقوف مجددا على قدميه ، ويطلب منه أن يركض في أرض الغرفة المبللة بالماء المسكوب ، ويدفع بالقبضات ، ويلسع ظهره بالسوط ، كي لا يتباطأ في سيره أبدا ••

ثم يمددونه على الارض ثانية ، ويربطون رجليه بالفلقة ، ويعاود الجلاد الكرة ويستأنف كفاحه الباسل • ويهوي السوط من جديد وبعزم وتصميم أشد ، هذه المرة ، وتنهال الجلدات متتابعة ، خمسين، ستين ، سبعين ، ثمانين ••• حتى يفقد المجلود الشعور بالالم ، وتسري في جسمه وأوصاله قشعريرة باردة ، كأنها حُمّى البرداء التي سبق أن أصيب بها أيام صباه • ثم تتكرر العملية ذاتها ، ليعود الاحساس الى القدمين من بعد صب الماء فوقهما ، واكراه السجين الجاري تعذيبه على الجري فوق الارض بسرعة ، وبسرعة أكثر ••

ويلتفت السجين ، أثناء جولة الركض ، الى الملازم الاول مدير السجن ، وكان واقفا عند الباب ، يومىء لمرؤوسيه البواسل ، بأن تابعوا مهنتكم الوطنية ، بلا هوادة ؛ ويطلب اليه الكف عن هذه الخطة الاجرامية البلهاء • ولكن « لا حياة أو لا حياء لمن تنادي » ••

وتستمر الحفلة التي يطرب الضابط المغوار لمشاهدتها ، لأنها أرقى في نظره مما يشاهده على الشاشة السينمائية من أفلام •• ولكن لكل مسرحية ، درامية أو هزلية ، فصولها المتتابعة ، ثم تلي خاتمتها النهائية • فكان فصل الختام في هذه المسرحية الحية ، اركاع الانسان الحر الذي لم يركع من قبل الا لخالقه ، لتهوي السياط هذه المرة

على ظهره واليتيه ، وتنهش من جلده ، وتأكل من لحمه ، وتتـرك خطوطها الدامية وآثارها الزرقاء مطبوعة على جسده ، وينفذ الالم الى صدره ثم الى قلبه ، فيحس وكأن خنجرا حادا قد طعنه في فؤاده.. يا ويح هذا الفؤاد لما أصابه من عنت على أيدي هؤلاء الجنود الذين خفق طويلا بحبهم ، وتمنى لهم الظفر في معاركهم المرتقبة ضد أعداء وطنه ومغتصبي أراضيه المقدسة !.. ان الطعنة التي أحس بها لم تمس شغافه لوحده ، بل انما شعر بأنها أصابت صميم الغضبة الوطنية ذاتها . ويا خيبة ابن الشعب بهـؤلاء الضـباط والرتبـاء والجنود !.. لقد أمدهم هو وقومه وأهله ووالده بالمال والسلاح اينطلقوا في طريق الكفاح والشرف والنصر يذودون عن أرض الوطن، ويقضون على قواعد العدو الدخيل ويطردونه من الارض المغتصبة، ولكنهم ويا للأسف ، قد غيروا اتجاههم بفعل الديكتاتورية الحائنة ، واختاروا السير على درب العار والهزيمة ..

* * *

ربما يكون غليل الطاغية وأعوانه قد شفي بما قاموا به من عمل بطولي ، بعد أن أضحى السجين حطاما لا يقوى على الحركة أو الوقوف ، فأمسكوا به من تلابيبه وجروه جرا الى الغرفة الواسعة ، وألقوه على الفراش ، ولكنه لم يذق طعم الكرى في ما تبقى من الليل. ولم يكد ينبلج الفجر حتى نقلوه مرة أخرى الى الزنزانة الضيقـة ، وتركوه فيها ملقى على أرضها طيلة النهار . وفي المساء حضرت اللجنة ذاتها ، فأخذوه اليها ، محمولا من تحت ابطيه ، لأنه لم يستطع السير على قدميه المتورمتين الداميتين . ويصطف حرس الشرف على الطريق، بين باب الزنزانة وباب غرفة مدير السجن . المنظر الموحش ذاته : السجناء الحليقون ، صفر الوجوه ، يقفون كالاشباح في شبه الظلام

المسيطر على ممرات السجن ، وآثار التعذيب على وجوههم ، ومرارة الالم والعذاب في عيونهم الشاخصة نحو غد مجهول ، ويدفعون به أمام اللجنة ، لجنة الضباط الصغار المكلفة بالتحقيق معه ومع رفاقه الاحرار •

انه لا يستطيع الوقوف ، ويحاول الاستناد الى كرسي قريب منه • وفي هذه المرة يتولى المبادهة ضابط آخر غير الملازم عبد الحق، وغير النقيب رئيس اللجنة الذي لا يحفظون له كرامته ولا يتركون له حتى فرصة ادارة مثل هذه الجلسات الفاجرة • انه الملازم عبد الكريم ، وهو الذي حمل آلة تسجيل الصوت ، وتلصص على زميله، من وراء الستار والتقط حديثه الخاص مع أحد ضباط الصف ، وهرع به الى سيده ليقدمه له عربونا صادقا على ولائه له ، ودليلا قاطعا على سهرة المتواصل على عهده الميمون الحافل بالمغانم والمسرات • فلماذا لا يكرس خدمته للديكتاتور ، بالتطاول على الاحرار والتنكيل بهم ؟ •• أوليس هذا شأن العبيد ، جميع العبيد ، يحاولون اذلال الاحرار لارضاء عقدة النقص في نفوسهم ، اعتقادا منهم بأن اذلال الحر ، اذا تمكنوا منه ، انما يهبط به الى مستواهم ، ما داموا هم غير قادرين على الارتفاع بأنفسهم الى مستوى الاحرار ؟ ••

بالامس كان دور عبد ( الحق ) واليوم جاء دور عبد ( الكريم )، ولكن بأسلوب جديد • انه لم يعمد الى استعمال السوط ، فقد ناب عنه باستعماله في الليلة الماضية جلادون محترفون ، ولكنه لجأ الى صوته الخشن الأجش لينهى بفظاظة الجريح ، المترنح أمامه ، عن الامساك بالكرسي والاستناد اليه ، بدل أن يهب لاسعافه ومسح جراحه التي أنزلتها به أيادي المجرمين الآثمين •

ولكن السجين الجريح ، لا يأبه لكلام الضابط الفظ الذي كان

يتشدق بكلامه بلهجة الآمر ، بل يسحب الكرسي نحوه ويجلس عليه، مطمئنا اللجنة الى أنها ستسمع منه اليوم ما يسرها وما سيفرح لـه قائدها العظيم الذي كان منذ الامس حريصا على تلقي أخبار تقدم اللجنة في مهمتها بواسطة الهاتف • وقبل أن يوجه الى السجين أي سؤال ، يتصدى المواطن الذي أرادوا أن يجعلوا منه متهما ، ويدينوه بجرائم ربما بلغت عقوباتها بعد جمعها وتشديدها العقوبة القصوى ، وينبري بدون تردد أو وجل لتوجيه الاتهام الى عهد الديكتاتورية ، مفندا أخطاءه وأخطاره ، جرائمه وأوزاره ، وعدم جـواز بقائـه واستمراره ، وتصميم أبناء الشعب الاحرار على تحطيمه ، ويؤيـد ما كانت حصلت عليه اللجنة من أفواه زملاء أخيه الضابط المعتقلين قبله والذين حشروا اسمه في افاداتهم التي أدلوا بها قبل اعتقالـه بأيام دون اكراه وبمحض ارادتهم مؤكدين فيها عزمهم وتصميمهم على الاطاحة بالعهد الاجرامي المنحرف • وكان على السجين في نفس الوقت أن يحمي الكثيرين من الضباط الشرفاء الذين وضعوا ثقتهم في أخيه ، وأيدوه في مسعاه الصادق لديهم للاسهام في مؤازرة حركة الضباط ، حال تنفيذها • وبالرغم من كل ما لاقاه على أيدي الجلادين من تنكيل وضغط وعذاب ، لم يبح بأسماء هؤلاء ، وفاء بالعهـد من جهة ، وحذر أن يزج بهم جميعا في السجن ويحرم جيشهم ووطنهم من خدماتهم الجليلة المخلصة من جهة ثانية •

وقد نجحت خطته في اتخاذ موقف الهجوم من عهد الطغيان وصاحبه وأعوانه والمنخرطين في التنظيم السياسي الموالي له والمسمى بحركة التحرير ، وساعدت على ابعاد انظار المحققين ، عن الكثيرين من ضباط الجيش وموقفهم الايجابي من الخطة الهادفة لاسقاط الحكم الارهابي الاسود •

وأمام وضوح البيان ، وازاء قوة الحجة والبرهان ، يتبدل

الوضع وينقلب حال اللجنة رأسا على عقب ، ويتبادل أعضاؤهـا النظرات والايساءات ؛ ولا يكتـم الضابط المغـوار أو المغرر بـه الملازم عبد الحق ، اقراره بصحة كل ما ورد على لسان رجل القانون من نقد للسلطة الحاكمة واتهام للعهد ، ويذهب به الحماس الى حد خلع عمرته العسكرية الحمراء من على رأسه والالقاء بها على المنضدة التي أمامه ، ويلتفت الى زملائه ليعلن : « بشرفي ، ان ما يقوله رياض صحيح » •

★ ★ ★

ينفض اجتماع اللجنة في وقت متأخر من الليل بعد أن يطلب من السجين تدوين تقرير بما قاله في تلك الجلسة مع الوعد بأن مـا أورده من أسباب النقد والاتهام سيكون محل دراسـة واهتمـام المسؤولين لتصحيح الاوضاع وتقويم الاعوجاج •

وبعد ذلك أعادوه الى الغرفة الواسعة ، لينعم فيها بنوم هنيء على الفراش المحشو بالقش فوق السرير الحديدي المرتفع •

وفي اليوم التالي ، أتوه بورق وقلم لاعداد تقريـره ، فانكب على ذلك ووضعه خلال يومين على عشر ورقات كبار ❋ ، وسلمه الى مدير السجن الذي ما فرغ من قراءته ، حتى وعاد اليه ، يلتمس منه العذر عما بدر منه نحوه في الامس ، معترفا بأنه كان جاهلا حقيقة الوضع ، وأنه كان مخدوعا مثل غيره من الضباط •

★ ★ ★

ظل السجين ، بعد توقيفه ، خمسة أيام مضربا عن الطعام ، يأتونه بوجبات ثلاث أو أربع في اليوم الواحد ، ويعودون ليأخذوا الصحاف كما هي دون أن يمسها ، وذلك اشعارا منه للسلطـة

---

❋ **( الملحق رقم ٤ )**

باحتجاجه على أساليبها الوحشية البربرية وعلى سياستها الاجرامية المنحرفة التي لم يتردد في فضحها والتنديد بها في تقريره الخطي ، مع انذار عهد الطغيان بقرب السقوط والزوال ، مكتفيا بشرب الماء من الجرة الكبيرة التي لم يغير محتواها من قبل دخوله الغرفة .

وكان بعض السجانين يحاولون ثنيه عن اضرابه متفننين في اتباع أساليب الترهيب والترغيب ، ولكنه لم يكن ليكترث بكلامهم ، أو يأبه لعواطفهم وزجرهم .. وفي مساء اليوم الخامس ، يأتيه معاون المدير وهو يحمل رتبة رقيب أول ، وكان في السابق مديرا للسجن، ولكنهم لم يطمئنوا له ، بعد سلسلة الاعتقالات الاخيرة ، فأتوا بالمدير الجديد من أنصار العهد العتيد .

والرقيب الاول عزة حسين ، مشهور في جميع الاوساط السياسية والشعبية ، بأنه ارهابي كبير وجلاد خطير ، تهتز لسماع اسمه الاوساط، وترتجف لمجرد ذكره الأوصال .

ولكن ذاك الذي كانوا ينعتونه بالإرهابي الجلاد ، كان أرحم من رؤسائه الضباط . لم يدخل غرفة السجين ليهدد ويتوعد ، ويأمر وينهى ، أو ليشرع السياط في وجه السجين المتمرد ، بل أتاه ليواسيه وليندد بعمل المجرمين الآثمين ، ويقول انه بحكم كونه رجلاً عسكريا ومن أصل شركسي ، يحب الرجال الشجعان ويقدرهم ، وأنه ما جاء الآن ليتملق أو يداهن ، بل انما حضر ليحيي في السجين موقفهالجريء وليطلعه على حقيقة هو قانع بها كل القناعة ، وهي أن اضراب مخاطبه عن الطعام ، لا يدري به أحد خارج السجن سوى أقطاب العصابة المتحكمة المتسلطة ، وأن هؤلاء ليسوا الا حفنة من المجرمين ، لاتهمهم الا مراكزهم ومصالحهم ، وأنهم سيفرحون اذا ما فتك الجوع بهذا الانسان الاسير الذي رآه وهو في محبسه ، ورغم التعذيب الوحشي

الذي أنزلوه به ، قد تمكن من قهرهم وتحدي جبروتهم • وتابع معاون المدير حديثه مؤكدا أن الوطن بحاجة لابنائه المخلصين ، فحرام اذن على هذا السجين أن يفرط بصحته ويعرض نفسه للهلاك ، اذ عليه متابعة الشوط ، فالمعركة شاقة وطويلة وهي لما تنته بعد •

كلام صريح وواضح ، لا يخلو من المنطق ! وقد يكبو الفارس أحيانا ؛ فتكفي همسة مشجعة في أذنه ، ومن أبسط الناس شأنا ، لينهض من عثاره وهو أشد عزما وتصميما • ويعدل السجين عن اضرابه ، ويبدأ بتناول طعام السجن بانتظام في الاوقات والحدود المرسومة في نظام السجن • وتمضي الايام ببطء شديد ، خاصة وأن الاوامر صدرت بأن يبقى السجين معزولا عن باقي السجناء ، وأن يمنع عنه أي اتصال •• وفي الايام الاولى ضنوا عليه بفترات التنفس ، ربما لان حالته البدنية لم تكن لتساعده على المشي ؛ ثم صاروا ، بعد أن بريء من جراحه ، يخرجونه الى باحة السجن ، في بعض الاحيان ، ليقضي فترة التنفس لوحده تحت حراسة السجان •

★ ★ ★

وبعد مضي أربعين يوما أتوه بسجين لا يعرفه سابقا وهو شاب ربعة ، في الثالثة والثلاثين من عمره ، يعمل في التجارة متزوج وله ثلاثة أولاد • كان منظر هذا السجين مؤلما جدا لما يكسو وجهه من علائم الخوف والفزع ، وما يحمله في جسمه من آثار الضرب والسياط • ان ما لاقاه من تعذيب وحشي يعادل أضعاف ما لاقاه نزيل الغرفة الاول : أظافر اليدين والقدمين منتزعة من الاصابع ، واللحم تحتها مهروس بشكل يقشعر له البدن ، ولا يلبث السجين أن يكشف عن ظهره حتى تظهر فيه آثار السياط وقد حفرت في الجسم المكتنز السمين أخاديد عميقة وعريضة اختلط فيها لون الدم بلون الكدمات

الزرقاء والبنفسجية •• وقد تقيحت بعض الجراح ، ثم بدأت تندمل بعد مضي شهر ونصف على حفلة التعذيب •• ومن ير مصيبة غيره تهن عليه مصيبته ؛ فبدأ السجين الاول يواسي ضيفه ويشجعه ويندد بوحشية من تولوا معاملته بهذه الصورة البربرية ؛ ثم يسأله عن هؤلاء الاشخاص الانذال ، ويعرف منه أنهم هم أعضاء لجنة التحقيق ذاتهم، ومن بعدهم الجلادون الصغار • وهنا أيقن السجين الاول أن الامر اذن لم يقتصر عليه وحده ، وأن ما لقيه لم يكن بسبب تحديه لهم وفضحه لعهدهم ، بل ان العهد وزبانيته يسيرون على خطة واحدة بالنسبة لجميع المعتقلين السياسيين ، الا اذا كانوا يحملون رتبا عسكرية •• فالضباط حسب شرعة ذاك العهد يحبسون ويضيق عليهم بشدة ؛ ولكنهم ، ولحسن حظهم ، لا يتعرضون للتعذيب الجسدي ، كما تقضي بذلك التقاليد العسكرية التي ظلت محترمة في ذاك الوقت•

★ ★ ★

بدأ القادم الجديد ، الذي مضى على اعتقاله خمسة وأربعون يوما ، قضاها كلها في زنزانة ضيقة منفردة ، يقص على زميله قصة اعتقاله ؛ وهي نفس القصة تقريبا : له أخ ضابط في الجيش ، مغضوب عليه من السلطان ، يقصى ويبعد الى دير الزور ، ثم الى بغداد ، كملحق عسكري لدى السفارة السورية فيها ، كما أن له أخا آخر نزيل السجن أيضا ، وهو أستاذ في الجامعة ومن أقطاب حزب الشعب ورئيس وزراء سابق أطاح بحكومته الانقلاب العسكري في ٢ كانون الاول ( ديسمبر ) ١٩٥١ • تجرى لقاءات بين الشاب المدني وبين بعض زملاء أخيه الضابط وبعض أعوانه السابقين ، وهم من مرتبات بعض الالوية المدرعة ، ويحصل في تلك اللقاءات اجماع على رفض حكم الطغيان واتفاق على مقاومته والاطاحة به • والخطة التي تداول فيها هؤلاء ، ربما كمجرد فكرة للبحث ، أو كخاطر شيطاني عابر ،

كانت تستهدف جرف الديكتاتور وزبانيته بواسطة احدى الدبابات الضخمة ، المجردة طبعا من أسلحتها النارية ، أثناء وقوفهم على المنصة الرئيسية خلال العرض العسكري المزمع اقامته في اليوم الذي اعتبره هؤلاء المتسلطون عيدا قوميا ، وهو نفس اليوم الذي حصل فيه الانقلاب العسكري الرابع •

وتشاء الصدف في تلك المناسبة المشؤومة وأثناء العرض العسكري اياه الذي جرى في شارع القوتلي في طريق بيروت ، أن تجنح دبابة يقودها سائق غير متمرس ، استعانوا به وبأمثاله بعد أن اعتقلوا معظم زملائه سائقي الدبابات المهرة • وتجتاح الآلية المجنزرة عددا كبيرا من الاهلين المارين فوق الجسر في مدخل شارع سعدالله الجابري قرب مبنى العباسية ، فيتساقط من جراء هذا الحادث المفجع عشرات القتلى ؛ ولا يقل عدد المصابين عن المئة • وكأن أسلحة الديكتاتور التي أقصاها عن مناطق الحدود الجنوبية المتاخمة للاراضي المغتصبة ، أرادت أن تنتقم من الشعب الساخط على حكم الطغيان •

وكانت للطغاة عيونهم المبثوثة في كل مكان ، وآذانهم المترصدة لكل حديث أو همسة ، تؤازرهم أجهزة التجسس السمعية التيزودتهم بها دوائر المخابرات الامريكية ؛ فيتسرب أيضا خبر نشاط تلك الفئة الثانية بواسطة عملاء الشعبة الثانية • ويلقى القبض عليهم وعلى رأسهم الشاب المدني وأخوه الرجل السياسي ، ويزج بهم في السجن، ويعاملون بقسوة وشراسة ، وينكل بالشاب المدني وبالاعداد الغفيرة من ضباط الصف الذين كان على صلة بهم •

وقد حاول المحققون العسكريون جهدهم ، أثناء التحقيق ، الربط بين الفئتين لتشويه سمعة تلك الفئة الاولى المؤلفة من خيرة العناصر الوطنية ، والاعلان عن ارتباطها بحكومة العراق ، ولكن دون جدوى ، لان أي اتصال بين الفئتين لم يكن حاصلا •

والتحقيق في شرعة لجنة الضباط الصغار يجري حسب الاصول والقواعد التي لقنوهم اياها لينغمسوا في أجوائها وينسوا معها فنون الحرب ومبادىء القتال مع العدو : فلقة وسياط وجداول ماء وكماشات لقلع الاظافر ، وسوى ذلك من وسائل التعذيب الهمجية •

وسلام يا لجنة الضباط المكلفة بالتحقيق ، على ما حققه علم الادلة الجنائية من تطور في أساليب التحري عن الجريمة !•• وسلام على مبادىء أصول المحاكمات الجزائية التي تكفل للمدعى عليه في القضية الجزائية حريته في أن لا يتكلم الا وفق ما يشاء وبحضور محام !••

وسلام على الدنيا عندما ينقلب عاليها سافلها ، وعندما يتحكم الباطل بالحق ، وعندما يتسلط الشر في محاولة منه للقضاء على كل ما هو خير وكل ما حققته الحضارة من تطور وتقدم لمصلحة البشرية وحفظ كرامة الانسان !••

* * *

ثم ينقل السجينان معا الى غرفة ثانية تطل على ساحة السجن ، ومنها صارا يريان مختلف السجناء والمعتقلين أثناء فترات التنفس ، وصار أسهل عليهما تعقب أخبار السجن وما يجري في غياهبه من مآس تقشعر لها الابدان ويندى لها الجبين •

ألقي القبض على سائح فرنسي وزوجته ، للاشتباه بأنهما جاسوسان ؛ وزج بكل منهما في زنزانة منفردة ، ومضى أكثر من أربعة أشهر دون أن يحالا الى القضاء • وفي تلك الاثناء مرضت الزوجة ، ولم تعالج ؛ وكانت حجة مدير السجن ، أنه لن يعرضها على الطبيب مادامت حرارتها غير مرتفعة••وتسرب اليأس الى نفس

الاسيرة المريضة بعد أن ساءت حالتها الصحية ، فحاولت الانتحار بقطع شريان معصمها ، ونقلت في حالة الاسعاف الى المستشفى العسكري حيث لفظت أنفاسها • جرى كل ذلك دون أن يسمح لزوج السجينة برؤيتها ، حتى أثناء احتضارها • وبعد وفاتها ، أفرج عن الزوج الارمل الحزين ، وسمح له بمغادرة البلاد دون احالة القضية الى القضاء ، ولكن بعد أن دفع ثمنا لحريته ، حياة نصفه الثاني • ولم تحرك السفارة الفرنسية ساكنا لان الحكومة الفرنسية كانت راضية عن العهد الديكتاتوري المنحرف •

★ ★ ★

أدخل الى السجن رجل مسن وفاقد البصر ، وهو من رجال البدو ، ومعه ابنتاه الصبيتان وطفل صغير كان ابنا لاحداهما • وزج بكل واحد من الاب وابنتيه في زنزانة منفردة • وطبعا كان الطفل المسكين ملتصقا بوالدته طيلة فترة اعتقالها ، يشاركها حياة السجن والزنزانة الرطبة الضيقة • وكالعادة مضت مدة طويلة دون أن يحالوا الى القضاء ، الى أن أتى الى السجن رجال الشعبة الثانية للتحقيق مع أفراد تلك الاسرة المنكودة الحظ • وكان صياح هؤلاء الموقوفين يرتفع الى أعالي الفضاء أثناء التحقيق معهم ، ويملأ السجن فزعا وقلوب المساجين ألما واشمئزازا للأساليب البربرية المتبعة مع أولئك الاشخاص الابرياء الذين لم يكد يجري التحقيق معهم ، حتى تبين للمحققين أن تهمة التجسس التي ألصقها بهم شاب بدوي أرعن ، كانت وشاية كاذبة وجهها الى دوائر الشعبة الثانية لأن العازبة من الابنتين رفضت الاستجابة لنداء قلبه الولهان • فأطلق سراح الاب وابنتيه وحفيده ، بعد توقيف دام أكثر من ثلاثة أشهر استغرق فصل شتاء بكامله ، وكان شديد البرودة وكثير الامطار في

وقت لم تكن تستر أجساد هؤلاء الموقوفين الابرياء الا أسمال بالية٠

★ ★ ★

كان يفرض على معظم المعتقلين السياسيين ، خلال فترة اعتقالهم، منع الاتصال بأي انسان داخل السجن وخارجه ؛ وكانت الرقابة شديدة للغاية ٠ وفي مرة من المرات أدى سجين اسمه العريف أحمد عابد التحية العسكرية للضابط الركن المجاز المعتقل أثناء فترةالتنفس وعن بعد ، فما كان من مدير السجن الذي لمح تحية العريف للضابط، الا أن حاسب العسكري المهذب حسابا عسيرا ، وذلك بضربه ، بهراوة غليظة ، على اليد التي وجه التحية بواسطتها ، فكسر له عظم المرفق ، وتورمت يد السجين ؛ ولكن مدير السجن أصر على عدم اخضاعه للمعالجة الطبية ، خوفا من أن يتقدم المجنى عليه بدعوى جزائية بحقه ٠ ولما ساءت حالة اليد المكسورة ، خشي مدير السجن من سوء العاقبة ، فنقل العسكري المصاب الى المستشفى ، ولكن بعد أن أخذ منه تعهدا بشرفه العسكري ، بأن لا يتقدم بأية شكوى بحقه٠

★ ★ ★

وكان بين المعتقلين عدد من المحامين الاشتراكيين الوطنيين الذين رغم عدم علاقتهم بنشاط الضباط المعتقلين ، كانوا يعاملون معاملة وحشية قاسية ؛ فقد حلقوا لهم شعر رؤوسهم ، وجلدوا بعضهم ، وفرقوهم عن بعضهم بوضعهم في زنزانات ضيقة مع منع الاتصال عنهم٠ وكان من بين هؤلاء ، الاساتذة خليل الكلاس وعبد الفتاح الزلط وناظم الصقال ومحمد عطورة ونائب حمص السابق السيد احسان الحصني والمعلم الابتدائي ( البعثي ) السيد فائز اسماعيل ، بالاضافة الى عشرات بل مئات من المعتقلين من أبناء مختلف المحافظات السورية ، ومعظمهم من الشباب المثقف ٠

كما زجوا بعدد كبير من طلاب الجامعة الذين أعلنوا اضرابا عاما عن الطعام ، وكان ذلك احتجاجا منهم على سوء معاملتهم وحلق شعر رؤوسهم ، فنقلوهم الى تدمر حيث عاملوهم معاملة أقسى وأسوأ ، ثم عادوا بهم الى سجن المزة ، وتابعوا الضغط عليهم ، ولم يفرجوا الا عن أولئك الذين وقعوا على تعهدات خطية بالكف عن محاربة عهد الطغيان ، وعن القيام بأي نشاط سياسي ، وكان عدد الموقعين قليلا .

* * *

وكان الضابط الركن المجاز ، بحكم الشعبية التي له في أوساط العسكريين ، والتي استطاع الحصول عليها بسرعة في أوساط السجانين أيضا ، قد توصل الى تنظيم شبكة للمراسلة بين معظم المعتقلين داخل السجن . وامتد نشاط الشبكة الى خارج السجن حيث كانت الرسائل تأخذ طريقها الى ذويه ، ومنهم اليه والى أخيه . وقد أفاد بعض المعتقلين من هذه الوسيلة وتمكنوا بواسطتها من ايصال الرسائل الى أسرهم ، حتى ولو كانت تقطن بعيدا عن العاصمة وفي أقصى الشمال .

وكان أهل الضابط وأخيه يوافونهما بأخبار البلاد وأحوالها السياسية ، ويرسلون لهما أحيانا بعض المنشورات الموزعة فيأوساط الجماهير وفي صفوف طلاب الجامعة ، والتي يجدر بمن يود الاحاطة بأحوال البلد ، في تلك الحقبة المظلمة القاسية ، الرجوع اليها واستخلاص العبرة منها والتأمل في تبدل المفاهيم ، وتقلب بعض البشر ، وحتى العقائديين منهم .



# كفاح على جبهتين

**« كيف تريدون أن يبنى مجد البلاد ، اذا لم يضح أمثالنا بأنفسهم » .**

« عدنان المالكي »

خاض المحامي السجين المعركة من وراء القضبان ضد الطغاة ولم ينهزم ، ولم يتراجع ، ولم تلن له قناة ، رغم السياط والتعذيب والعزلة ومنع الاتصال . ولكن كان عليه أيضا أن يخوض صراعا من نوع آخر ، مع عدو خفي له أسلحته الخاصة وطرقه العجيبة في محاولة قهر الانسان والفتك به وافنائه .

انه المرض يداهم الجسم البشري ويتسلل الى أعمق خلاياه حتى يجعله خاضعا لمشيئته ، وواقعا تحت رحمته .

ومقاومة السجين كانت في البداية ضد عدو واحد وعلى جبهة واحدة ، وأصبح عليه الآن أن يقاوم عدوين وعلى جبهتين اثنتين : الطغيان والمرض .

والحقيقة ان السجين دخل السجن وهو يحمل معه أعراض مرض

غامض ، كانت تنتابه آلامه الخفيفة ، بشكل وخزة في الجانب الايسن من البطن • وقد راجع عددا من الاطباء لم يتبينوا حقيقة العلة وان كان الطبيب الدكتور ايلي نعمان قد شخص العلة بأنها التهاب الزائدة الدودية ، وأعطى مريضه علاجا مضادا للحيوية ونصحه بأن يجري عملية جراحية لاستئصال هذه الزائدة حذر أن يتكرر التهابها وفي ظروف غير مناسبة ، كالسفر ، وكان يتأهب لدخول أحد المستشفيات ، عندما اختطفته أيدي الذئاب وزجت به في هذا السجن الاسود • وهو عندما دخل السجن ، آثر عدم التحدث عن مرضه وعن نصح طبيبه له باجراء العملية ، لانه لم يرد الظهور بمظهر الضعف • وقد تجلد وتحمل كل ما تحمله من أذى وعذاب ، دون أن يتحدث ولو تلميحا عن حالته الصحية التي تستدعي المعالجة • وكانت الآلام تختفي ، لتعود وتنتاب المريض في فترات متقطعة •

★ ★ ★

ويمضي أكثر من شهرين على وجوده في السجن ، ويبدأ الالم بالاشتداد ، فيشكو المريض أمره آنئذ الى الرقيب الاول عزة حسين الذي عاد لممارسة وظيفته كمدير للسجن ، بعد أن أعادوا الملازمين اللذين تعاقبا على الادارة الى قطعتيهما •

ويأتي طبيب السجن لمعاينة المريض ، وهو ضابط احتياط مدعو لاداء خدمة العلم ، وبحكم قلة تجربة هذا الطبيب المتخرج حديثا من كلية الطب ، يلتبس عليه أمر المرض ويشخص العلة بأنها ليست الا ( قولنجات كلوية ) ربما تكون ناتجة عن البرد ، ويذهب ليرفع تقريرا بنتيجة معاينته وتشخيصه ، ولا يعود •• ويأتي بعده زميل آخر له ، ليس أكثر من السابق تجربة ، ولكنه كثير التعجرف ، وقد عانى المريض من مناورات هذا الطبيب المتعجرف عنتا شديدا • وقد

جاءه ، ذات يوم ، يصف له علاجا بشرط أن يدفع ثمنه ، فوافق على ذلك بأمل أن يتم له الشفاء بواسطته • ولكن الطبيب غاب مـدة أسبوعين دون أن يصف الدواء ، ثم عاد مرة ثانية ليبدي ذات الاقتراح وكانت أعراض المرض بدأت تظهر على جسم المريض ووجهه بصورة أوضح ، وكانت نوبات الالم أخذت تتكرر صباح كل يوم ، وتشتد بشكل كان يقعد المريض عن الحركة فترة تطول يوما بعد يـوم • واستعمل المريض العلاج الذي اشتراه ولم يشعر معه بأي تحسن في حالتـه •

وبعد لأي والحاح شديدين ، وكان قد مضى أكثر من ثلاثة أشهر على وجود المريض في السجن ، وافقت ادارة السجن ، بعـد اذن الرؤساء طبعا ، على اقتراح طبيب جديد ، كان انسانا طيبا للغاية، وهو الدكتور وحيد الشربجي من أهالي كفرسوسة القريبة من دمشق، بنقل المريض الى المستشفى لا للمعالجة ، بل لعرضه على لجنة من الاطباء لاجراء معاينته •

★ ★ ★

كانت اللجنة مؤلفة من عدد من الاطباء العسكريين المحترفين وأحد الاطباء المتعاقدين ، وهو الدكتور رشدي التميمي من أهالي فلسطين ، وطبيب جراح أرمني الاصل كان يعمل في مستشفى الجامعة الاميركية في بيروت ، وهو مدعو لاداء خدمة العلم الالزامية •

كان الدكتور تميمي انسانا رحيما وطبيبا قديرا ، يقارب الستين من عمره ، وهو حتما صاحب تجربة واسعة بعد ممارسته الطويلة لمهنته ، وقد لاحظ منذ الوهلة الاولى ، وبعد الضغط بأصابع يديه على جدار بطن المريض وثني رجله اليمنى ، أن الاعراض الظاهرة هي أعراض الزائدة الدودية ، وشاركه في الرأي الطبيب الجراح • وكان

يمكن على ضوء هذا التشخيص معالجة المرض • ولكن في المستشفى العسكري عامة ، وفي العهد الديكتاتوري خاصة ، الكلمة ليست للمدنيين أو لمن يؤدون خدمة العلم ، بل هي للرؤساء الاعلون ، وعلى الاخص للمقربين منهم من السلطات المتحكمة •

وكان أحد هؤلاء الرؤساء طبيبا مختصا بأمراض المسالك البولية ، وهو مشهور بمداهنته الحكام في كل العهود • فقد خالف هذا الطبيب رأي زملائه ، وأكد بصيغة الجزم أن المرض هو من اختصاصه هو ، وأعطى المريض علاجا ليستعمله في السجن ، بانتظار النتيجة • ولم يجن المريض من العلاج أية فائدة ، بل كانت الآلام تشتد ولا يرى المريض طريقة لوضع حد لها ، ولا يجد الى جانبه أحدا يواسيه في مرضه سوى زميله في الغرفة الذي كان يتألم كثيرا لالمه، ولكنه لا يملك وسيلة للتخفيف عن المريض سوى الصلاة والدعاء• ويتناوب طبيبا السجن العمل ؛ أحدهما يأتي بلطف وكأنه ملاك الرحمة، والثاني يدخل بعجرفته المعهودة وكأنه شيطان العذاب • وكانت زياراتهما تحصل على الارجح في وقت اشتداد المرض ، الذي أضحت نوباته لا تطاق ، وكانت تجعل الجسم يلتوي ليطبق الصدر على الفخذين ، ولا يستطيع المريض خلالها الجلوس أو القيام • فأخذوا أمام هذه الحالة الصعبة ، يعطونه وفي محبسه حقنا مخدرة لتسكين الآلام ، وكانت تساعد على تخفيف حدتها دون أن تقضي على أسباب العلة وأساس المرض ، بل على العكس كانت الحالة تزداد سوءا بعد سوء • وأصبح المريض لا يقدر على تناول طعام السجن المؤلف على الاغلب من برغل وعدس وحمص وفول ؛ فصار يرمي بالاطباق في وجوه السجانين • وكان واضحا أنه اذا ظل على هذه الحال فلن يلبث مرضه أن يستفحل ، وربما أدى الامر من حيث النهاية الى نتائج مدمرة لصحته ومهلكة لحياته •

★ ★ ★

فكر المريض في الامر ، ووجد أنه لا يملك الا سلاحا واحدا ، فعليه ان أراد حسم المشكلة وحل الازمة التي هو واقع فيها ، أن يستعمله وبدون وجل ، وآلى على نفسه أن لا يدعهم يستبيحون حياته بشكل رخيص ، فاما حياة حرة أو موت شريف •

لقد سبق له أن استعمل هذا السلاح قبل هذه المرة عندما وجه رسالته الاولى الى ادارة السجن لفك الحصار عنه ، ولو مؤقتا ، بانزاله الى المستشفى ، وقد نبوا طلبه ، بشكل جزئي ، عندما أخذوه لاجراء المعاينة والتحاليل الضرورية ، ثم أعادوه وفي نفس اليوم ليقبع في غرفته الكائنة في أقصى السجن •

فليجرب هذا السلاح مرة أخرى ولكن بلهجة أشد ، وليوجه رسالة ثانية عن طريق مدير السجن ، وبعد أن ينعته بأنه عبد مأجور ولا يعفيه من مسؤولية حجز حريته ، يطلب اليه أن يبلغ رؤساءه اصرار السجين على طلبه السماح لطبيبه الخاص لمعاينته داخل السجن وعلى نفقته لعدم ثقته بالاطباء العسكريين ، ويؤكد في ختام رسالته ان عيادة طبيبه الخاص له في سجنه ، لن تشكل خطرا على عهد العبودية والهمجية •

★ ★ ★

لم يكد مدير السجن يرفع الرسالة الى رؤسائه ، حتى يأتي ، في صباح اليوم التالي ، قائد فوج الشرطة العسكرية ، وهو الذي كان اعتدى بذاته على السجين أثناء استجوابه في اليوم الاول من اعتقاله • وتوجه الضابط الى غرفة السجين بنفسه ، وبعد التحية والسؤال التقليدي عن الصحة ، دعاه للخروج معه الى باحة السجن ، وهناك أخذ يقرعه على لهجة رسالته• فأجابه السجين ، أنه مريض وأنه لا يطلب من السلطة سوى السماح

لطبيبه بعيادته ومعالجته في سجنه ، وأن العلاج حق لكل مريض ، وأنه لن يدعهم يميتونه ببطء ، وأنه سوف يستمر في تحديهم وفي فضح جريمتهم البربرية هذه . فما كان من ضابط الشرطة العسكرية الا أن أخذ يرغي ويزبد ويهدد ويتوعد .

ولم ينصرف ، حتى جاء بعده الرقيب الاول مدير السجن ، والدمعة تترقرق في عينيه ، معلنا أسفه لانه مضطر لتنفيذ الاوامر رغم صعوبة ذلك على نفسه ، ولكن ما حيلته هو اذا كان المريض نفسه لم يشفق على نفسه وجنى عليها بتهجمه على السلطات في رسالته .

وكانت العقوبة التي فرضها « الضابط الباسل والمواطن الانسان » ، بحق السجين المريض ، هي نقله الى زنزانة ( أبو ريحة )، وهي أسوأ زنزانات السجن على الاطلاق ، يوضع فيها عادة أعتى الاشقياء لاخضاعهم واذلالهم .

لم يأبه السجين لهذه المعاملة القذرة ، بل رحب بالاجراء وعزى نفسه بالحكمة القائلة بأن « الفرج يأتي بعد الضيق » .

ومن ظلام الزنزانة التي ألقوه فيها وحرموه حتى من حقه في حصتي التنفس الصباحية والمسائية ، هرب السجين الى أهله رسالة يعلمهم فيها بالامر ، ويطلب ابلاغ النبأ الى زميله وصديقه الاستاذ عبد الرحمن المارديني ، لاثارة الموضوع في أوساط المحامين ونقابتهم، ووجه رسالة الى زميل آخر كان جارا له في مكتبه ، ليبلغ أخاه مدير المستشفى العسكري أن رسالة الطبيب تقوم على اسعاف المرضى ولو كانوا أسرى وحتى لو كانوا من صفوف الاعداء ، وأن مسايرته مع زملائه الاطباء العسكريين لعهد الطغيان ليست مما يشرفهم .

وتضامن الضابط المعتقل مع أخيه المريض ، واحتج لدى ادارة السجن طالبا نقله هو أيضا الى زنزانة مماثلة لزنزانة أخيه ، كما أعلن اضرابه عن الطعام ، حتى يكف الطغاة عن هذه الطريقة البربرية المخزية في معاملة انسان مريض يحتاج للمعالجة السريعة •

وكان شهر رمضان قد حل يوم دخول المريض الزنزانة ، فبدأ صيامه كأحسن ما يكون الصيام ، خاصة وأن معظم الاطعمة التي كانت تقدم له لم تكن مما يتلاءم مع حالته الصحية •

★ ★ ★

بدأ المريض يعاني من تدهور خطير في صحته • وبالنظر لسوء التغذية ، واحتجاب الشمس ، وفساد جو الزنزانة الضيقة الرطبة ، أصيب السجين بالتهاب خطير في لثته وبدأ الدم ينزف منها بغزارة ، وقد كلفه ذلك خسارة أسنانه كلها في المستقبل غير البعيد ؛ فصار يعالجه ممرض السجن العريف كمال عبد الحميد ، وهو من أصل شركسي أيضا ، وكان مثالا للانسان الحر الشريف ، الذي يؤدي واجب الوظيفة بأمانة ، ولكنه لا ينسى القيام بواجبه كانسان نحو أخيه الانسان •

وتشتد لهجة الاحتجاج من قبل المحامين الشرفاء ، ويتزعم الحملة على الطغيان نقيب المحامين الاسبق الاستاذ فؤاد القضماني[1] •

---

(١) نص مذكرة الاحتجاج :

**بواسطة نقابة المحامين**

**حضرة الزعيم أديب الشيشكلي**

دمشق

الحرية من صنع الطبيعة اقرتها شريعة السماء قبل شريعة الارض والدفاع عنها حق من حقوقنا ولد يوم مولد المحاماة . ولقد

وتضطرب الحالة في السجن ، ويتألم مديره لحالة السجين الـذي تدهورت حالته الصحية وبدأت تضعه على حافة الخطر ، فيضغط

---

رددتم في خطبكم وبياناتكم المذاعة على العالم كلمة الحرية أكثر من أية كلمة سواها : ولما كان قد مضى على توقيف زملائنا المحامين ومنهم الاستاذ رياض المالكي عضو مجلس النقابة نيف وخمسة أشهر بدون اتهام ولا محاكمة ولا دفاع مما يخالف نصوص الدستور والمعاهدات والالتزامات الدولية ومنها شرعة حقوق الانسان وسائر القوانين التي كفلت للآدميين حريتهم وحرمت حجزها عن غير طريق القضاء .

ولما كنا نعتقد والعقيدة تهز الجبال بأن رجال الحكم في الامـم الديموقراطية لا يعفون من الاخذ بأصول العدالة لانهم والمواطنـون سواسية كأسنان المشط وبأن لا قيمة لجميع تلك النصوص أن لم يرعها المسؤولون من أعماق قلوبهم وصميم وجدانهم .

لذلك نرجو أن تأمروا بالافراج عن المحامين المعتقلين حتى لاتبقى القلوب مجروحة إلى الابد وليطمئن الناس على أن في البلاد شرائـع وقوانين تحمي الارواح والحريات والعقائد . والعدل عدل عند كـل جنس وفي كل نفس وقد ولدتنا امهاتنا احرارا .

دمشق في ٨ حزيران ١٩٥٣

**الاساتذة المحامون بدمشق :**

| | | |
|---|---|---|
| فؤاد القضماني | عبد العظيم باجقني | علي بوظو |
| رزق الله أنطاكي | مصطفى البيرقدار | موفق نصري |
| عدنان القوتلي | سيف الدين المأمون | خليل شمشيخ |
| اليان الشويري | أسعد المحاسني | مصطفى الحواصلي |
| عزت الساطي | نقولا نفش | عبد الرحمن المارديني |
| بهجت الكيالي | أنطون وردة | مظهر الشربجي |
| زكي الخطيب | عبد الله موصلي | مظهر قطنـا |
| مأمون الكزبري | ابراهيم البطل | نصوح المملوك |
| مختار العجلاني | داود التكريتي | نصوح الغفري |
| محمد المبارك | ظافر القاسمي | لطفي اليافي |
| هاني البيطار | شفيق سليمان | صباح الركابي |

على رؤسائه بأن يحققوا له أحد أمرين : اعفاءه من مهمته ، أو انقاذ المريض الذي بات مهددا بالموت • فيصدر أمر السلطات ، بعد قرابة شهر بالموافقة على نقل المريض الى المستشفى ، ولكن مع التشديد بضرورة استمرار عزله عن سائر البشر •

★ ★ ★

---

| | | |
|---|---|---|
| فوزي عبد الحميد | زهير العظمة | بديع اللولو |
| فؤاد الخياط | مصطفى أمين | حمدي عنبتاوي |
| عدنان المجركش | سعيد الحكيم | احسان حباب |
| رشيد الساطي | عمر الفرا | حسين الكنفاني |
| سعيد الزعبي | مختار الخياط | حكمت البيطار |
| علي المسكي | عصام المملوك | تاج الدين الجندي |
| عبده قبوات | صفوح الصواف | فريد أرسلانيان |
| حيدر القضماني | خالد الحلبي | أحمد حيدر |
| عادل صدقي | نجاة قصاب حسن | حسين عبد الدين |
| رزق الله نفش | عادل قزيهـا | نوري المهايني |
| ربيع الصلح | حامد ناجي | محمد الخطيب |
| حنبل الشطي | زهير الشلق | زهير الميداني |
| راتب كركتلي | صبحي الحصني | عطا البكري |
| رشاد العيسى | يوسف سياج | أحمد اسماعيل |
| راتب القضماني | عبد اللطيف حمزاوي | مظهر العنبري |
| جورج زريقات | عادل تللو | أسعد الطباع |
| فيصل العظمة | حسن الاغا | خالد القوتلي |
| هلال الفرزلي | خليل جبري | نديم المالكي |
| ملك كبارة | عبد الوهاب محفوظ | فؤاد صنيج |
| عبد الحكيم مراد | عدنان السمان | محمد أمين |
| موفق المهايني | عطا الله درويش | نور الدين الحبال |
| عبد الهادي النحاس | سليمان سليمان | غيث الامام |
| مساعد القدسي | عرفان سلوم | منير باكير |

وفي مستشفى المزة العسكري ، وفي الجناح المخصص للسجناء، والمفروضة عليه حراسة مشددة ، يضعونه لوحده في مهجع واسع كبير ، فيه قرابة عشرين سريرا ، ويخلون من كان فيها من المرضى والسجناء بنقلهم الى السجن •

وتبدأ في اليوم التالي سلسلة من الفحوصات تجـري تحت اشراف اللجنة الطبية ذاتها ، ولكن الكلمة ، كالعادة ليست للاطباء المدنيين ، بل للاطباء العسكريين ، وكان أحدهم الطبيب الاخصائي بأمراض المسالك البولية ، ويبدو أن بعض افرازات تلك المسالك لوثت ضمير هذا الرجل فأفسدته ، لان أسلوبه في معاملة المريض فاق حدود التصور ، وربما تجاوز أساليب الجلادين في خطره وأثره على صحته• وكان ذلك الطبيب في سلوكه الملتوي يبتغي مرضاة السلطان ، غير عابيء بواجبه الانساني ؛ فقد ظل على رفضه لتشخيص زملائه الاطباء، وانطلق في جميع اجراءاته من فكرة ثابتة ، وهي أن المرض هو في الكلية اليمنى وأن العلة ليست في الامعاء •

ورغم احتجاج هؤلاء الاطباء وعدم موافقتهم اياه على رأيه ، أخضع المريض لسلسلة من الفحوص المعقدة التي لا يحسن القيام بها •

وكان هذا النطاسي عائدا من فرنسا بعد بعثة علمية أوفد للاطلاع خلالها على أحدث تطورات الطب ، وآخر منتجات المصانع مـن الاجهزة الطبية • وقد عاد حاملا معه بعضا من هذه الاجهزة الدقيقة التي لا يتقن استعمالها ، في فرنسا ذاتها ، الا عدد محدود جدا من الاطباء الكبار •

فليجعل اذن من مريضه حقل اختبار لتجربة هذه الاجهزة ،

خاصة وأن المريض واقع في الاسر ، ومعزول عن الناس ، وليس من حوله من يستطيع التدخل أو اسداء أي رأي .

الصورة الشعاعية العادية ، في نظر الطبيب ، غير كافية لانها جاءت سلبية ولا بد من مادة ظليلية تزرق في الوريد لتسري في الدم وتصل الى الكليتين ، ولتظهر ما قد يكون مختبئا فيهما من مكنونات. وتزرق المادة في الجسم المتهدم بفعل المرض الطويل ، وسوء التغذية في السجن ، وينبعث في الجسم كله لهيب وكأنه نار جهنم . يكابر المريض ويحاول كتم الالم الحاد الذي انتاب جسمه كله ، والذي كان أشد من لسع السياط ، ولكن الطبيب الحاذق لا تخفى عليه حقيقة ما يجري في داخل الجسم الملتهب ، فيضحك ملء شدقيه ، ويمن على المريض الذي بين يديه بأن هذه المادة محرم استعمالها ، ولكنه استعملها الآن خدمة للمريض نفسه .

وتؤخذ الصورة الشعاعية على الفور ، لتظهر سلامة الكليتين وخلوهما من أية شائبة ، ولكن الطبيب يشتبه بوجود ظل خفيف في الكلية اليمنى ، ولا يصدق أو لا يريد أن يصدق ما كشفته الصورة الشعاعية من حقيقة سلامة الكليتين . فيعود ليخمن أن قد يكون هناك حصوة في المثانة ، أو في مجرى البول ، ويصمم بينه وبين نفسه، وبمعزل تام عن رقابة سائر الاطباء ، على اجراء تجربة جديدة ، لا بل على ارتكاب حماقة لا تغتفر .

قرر الطبيب « العالم » اجراء عملية تنظير ، فخدر المريض تخديرا جزئيا بزرق ابرة المخدر في أسفل العمود الفقري ، وأولج في مجرى البول ميلا مجوفا رفيعا ، ولما اصطدم الميل بجدار الحوض، أدخل فيه سلكا معدنيا وصار يدفعه على امتداد المجرى البولي ، ولكن السلك انحرف عن المجرى الطبيعي وبدأ يدخل في الجسم ،

وقد أحس المريض بذلك ونبه الطبيب الى خطئه ، دون أن يبالي • وصار يعزو تعثر سير الميل الى المادة الصلبة المتكونة في الحالب والتي كانت بنظره هي مصدر العلة والالم ؛ ويستعمل المنظار الكهربائي المكبر بعد سحب السلك ولكن دون أن يرى شيئا • فيقرر نقـل المريض وبالحالة التي هو عليها ، والمخدر لا يعطل الا حواس نصفه الادنى ، والميل داخل بعض الشيء في مجرى البول ، والدم يسيل من جوانبه ، الى الغرفة التي فيها جهاز الاشعة • يحمل المريض على المحفة ، ويسيرون به عبر الممرات ، ويأخذونه الى غرفة التصويـر الشعاعي • ويطلب الطبيب من زميله القائم على ادارة جهاز التصوير أن تكون الصورة الجديدة ظليلية أيضا ، ويزرقون عبر الميل المجوف حقنة من مادة ملونة كان لهيبها شديدا ولكن ليست كالاولى • ويولج السلك المعدني داخل الميل من جديد لينساب فيه بسهولة أولا ثم ينحرف في داخل الجسم • وقد استغرقت هذه الحفلة من أولها الى آخرها قرابة أربع ساعات ، كان المريض خلالها يرى ما يدور حوله ويشعر بما يجري داخل جسمه من تمزق ، وهو مسلم أمره الـى ذلك الطبيب كما يسلم الخروف رقبته الى الجزار •

وجاءت الصورة لتكشف عن الجريمة المرتكبة ، وهي ليست خلو الكليتين والمثانة والحالب من أي جسم غريب فقط ، بل انحراف الميل عن المسلك الطبيعي ، وتوغل السلك داخل الجسم عبر الانسجة والاغشية مسافة غير قصيرة •

ويعلن الطبيب وبتبجح كبير أمام زملائه أعضاء اللجنة الطبية بعد دعوتهم ، ان هذا السجين غير مريض ، وقد أظهرت الفحوصات البارعة التي أجراها له خلو جهازه البولي وكليتيه من أي مرض • وينقل المريض مؤقتا الى سريره في المهجع الفارغ تمهيدا لاعادته الى

السجن ؛ ولكن لم يمض الا قليل وقت حتى كانت حرارة جسمه أخذت ترتفع ارتفاعا ملحوظا ، وبدأت تظهر عليه أعراض الحمى • وقد حدث ذلك بفعل النطاسي البارع وما أدخله في جسم مريضه من مواد غريبة ، وما أحدثه في داخل أعضائه من جراح ، وما قد يكون تسلل مع أجهزته « المعقمة » من جراثيم •

وتستمر درجة الحرارة في الارتفاع حتى تبلغ الواحدة والاربعين وتدوم حالة الحمى أربعة أيام ، يعطى المريض خلالها حقنا كثيرة من مضادات الحيوية ، ويمنع عنه أي طعام ويغذى بالامصال السائلة عبر ابرة تزرق في الوريد وتنساب من فوق رأسه من قوارير كبيرة كانت تعلق عاليا جانب السرير •



ولا تزول أعراض الحمى والالتهاب عن المريض الا ويكون قد أصبح أشبه بهيكل عظمي ، وتشتد نوبات الالم مع ضعف مقاومة الجسم • وتجتمع لجنة الاطباء ، وتتداول بحالة المريض الغريبة ، ويؤكد طبيب الامراض الداخلية ، الرجل الرحيم ، الدكتور تسيمي وجهة نظره ، ويقترح اجراء العملية لاستئصال الزائدة الدودية التي هي مصدر كل هذه الاعراض الغامضة والآلام المبرحة ، ويشرح وجهة وجهة نظره بأن التهاب الزائدة يكون على شكلين : حاد وترتفع معه درجة الحرارة ويزداد عدد الكريات البيض في الدم ، ومزمن وهو يؤدي الى تضخم الزائدة واحتقانها وضغطها على الامعاء وجدار البطن من جهة اليمين وعلى الحالب والساق اليمنى ، دون أن يؤدي ذلك الى ارتفاع في درجة الحرارة أو الى اختلال كبير في عدد كريات الدم الحمراء والبيضاء ، وانه يرجح أن يكون المريض مصابا بهذه الحالة من المرض • ولكن رئيس اللجنة الطبية الضابط لا يوافقه على

هذا الرأي ويرفض فكرة اجراء العملية بالصورة التي اقترحها الطبيب المدني ، وينفض اجتماع اللجنة الطبية دون الوصول الى رأي حاسم.

★ ★ ★

يأتي في اليوم التالي ضابط منتدب من ادارة المستشفى ليضع المريض أمام اختيار من نوع عجيب . يبلغه أن الاطباء ينفون وجود حالة المرض وأنهم لا يجدون تفسيرا لما يشكوه المريض من آلام ، ولذلك فعليه أن يختار اما العودة الى السجن ، أو الموافقة على اجراء فتح استقصائي في بطنه ، عل ذلك يساعدهم على التعرف على حقيقة المرض الذي تشك ادارة المستشفى والسلطات العسكرية بوجوده أصلا .

كان المريض هو الذي يعاني آلام علته التي بدأت تنتابه منذ أكثر من ستة أشهر ، وحتى قبل دخوله السجن ، والتي أضحت الحياة معها لا تحتمل وأصبح بعدها الجسم في حالة خطر ، وزادت في ضعف مقاومته الاساليب الملتوية التي اتبعها الطبيب البولي في الفحوص المحرمة والدامية التي أجراها له وسببت له ذلك الالتهاب الشديد .

ولا يتردد المريض اطلاقا في اختيار الحل الثاني ، فيسلمه الموظف الاداري ورقة ليكتب تعهدا بتحمل مسؤولية ونتائج العملية.

ويسطر المريض كلمات التعهد مع طلب السماح لاهله لرؤيته قبل العملية الجراحية التي أرجأوا اجراءها بضعة أيام ، دون أن يدري سببا لذلك . وقد تبين له فيما بعد أن السلطات العسكرية كانت تعد له ولاخيه ولزملائه اجراءات قضائية من بعد توقف عن التحقيق الاولي دام ستة أشهر ؛ ذلك أن تلك السلطات كانت أعدت

مشروع دستور لاقراره باستفتاء شعبي ، يصوت الشعب معه على انتخاب الزعيم الشيشكلي رئيسا للجمهورية •

★ ★ ★

رافق وضع مشروع الدستور افراج السلطات عن سائر المعتقلين السياسيين • ولكن الرئيس الجديد كان يخشى على كرسي الرئاسة من الاهتزاز ، اذا ما أفرج عن العسكريين المعتقلين ، خاصة وان بينهم ضابطا له القدرة الفائقة على تعبئة وتجميع القوى البشرية ، وان خطر اطلاق سراحه قائم بالرغم من تسريحه هو وزملائه من الخدمة اثر اعتقالهم •

اذن فلتحرك النيابة العامة العسكرية الدعوى الجزائية بحق هؤلاء جميعا ومعهم المحامي طويل اللسان ، ويكلف قاض مدني منتدب للعمل في مديرية العدلية العسكرية بالتحقيق مع المدعى عليهم •

وتقضي مصلحة التحقيق بأن لا يستدعي المحقق المدعى عليهم اليه، كي لا يراهم أحد في الذهاب والاياب ، بل يذهب هو اليهم للتحقيق معهم في زنزاناتهم • ويأتي دور المدعى عليه المريض ، فيسعى اليه قاضي التحقيق وهو في المستشفى ، ويدخل مع مساعده القضائي الى المهجع الكبير ويلقى المريض على سريره •

كان القاضي زميلا للمريض طيلة ثلاث سنوات أيام الدراسة في معهد الحقوق العربي في الجامعة السورية • فيقبل على تحيته بحرارة، ويبدأ بالسؤال عن صحته الغالية ، مبديا أسفه لان يراه في هذه الحالة، فيشكر المريض رفيق الدراسة على عواطفه المعسولة •

وبعدها يأخذ القاضي من يد المساعد العدلي ، اضبارة فيها كدسة أوراق يفتحها ويقلب أوراقها ، ويأخذ وضعية الجد ، ويقول للمريض

انه آسف لأن يجد نفسه مضطرا لمباشرة أعباء مهمته ، وهي التحقيق معه في قضية ذات شأن •

فيرحب المريض بذلك ، ولكنه قبل الشروع بالاستجواب ، يسأل القاضي اذا كان الامر يتعلق بجرم مشهود أم غير مشهود • فيجيب القاضي : « ان الدعوى العامة حركت بصدد جرم غير مشهود »

فيضع المريض القاضي أمام مسؤولياته بقوله : « اني سأعرض عليك حالة جريمة مشهودة أطلب اليك تحريك الدعوى العامة بصددها والمباشرة بالتحقيق فيها فورا ، كما تمليه عليك أحكام القانون » • فيستغرب القاضي هذه المفاجأة ، ويسأل عن حقيقة الجريمة ونوعها • فيطلعه المريض على أنه محجوز الحرية منذ قرابة ستة أشهر وبشكل مخالف لاحكام القانون ، وأنه لذلك يطلب منه تحريك الدعوى العامة بحق جميع أولئك الذين ساهموا في احتجازه ، بدءا من هذا السجان المسلح الواقف على باب المهجع الكبير ، وانتهاء بالديكتاتور المتحكم بمقدرات شعبه •

يتغير لون القاضي ، ويزم شفتيه ، ويغمز زميل الدراسة باحدى عينيه ، مشيرا الى المساعد الذي يجلس بجانبه ، وكأنه يريد أن يحذر من احتمال نقل الحوار الى دوائر الشعبة الثانية « المخابرات » فيسأله السجين : « لماذا تغمز بعينك ؟ لا تخش هذا المساعد ، انه ليس بجاسوس ، بل هو انسان حر شريف ، وأنا أعرفه تماما ومن قبلك • وعليك أنت أن تؤدي واجبك ، ولا تحسبن الا حساب ضميرك » •

يعتذر القاضي قائلا انه مكلف من قبل السلطات بالتحقيق في القضية التي بين يديه ، فيقاطعه المريض قائلا : « ان القاضي الشريف

لا يخضع لتكليف أحد ، بل انما يخضع فقط لاوامر القانون ونواهيه، وما عليه الآن الا أن ينفذ ما يأمره به القانون في مثل هذه الحالة » . ولكن القاضي يصر على استجواب السجين في القضية التي يحمل أوراقها فقط من دون النظر في غيرها ، فيرفض السجين الاجابة عن أي سؤال يوجه اليه .

ويكتفي القاضي بتدوين رفض المدعى عليه الجواب عن سؤاله الوحيد حول ما يسند اليه في الدعوى من جرائم محاولة اغتصاب السلطة العسكرية ، والقيام بأعمال ارهابية ، وانتقاد أعمال القيادة[1]،

---

(۱) نص محضر التحقيق ※ :

**ضبط رقم / ۹ /**

اتجهنا بتاريخ ١٩٥٣/٦/٨ الى مستشفى المزة العسكري حيث كان المدعى عليه رياض المالكي الموقوف قيد التداوي وباشرنا باستجوابه كما يلي :

اسمي رياض بن شمس الدين المالكي من أهالي دمشق عمري ۳۰ سنة محامي غير محكوم سابقاً أعزب متعلم سوري .

استناداً لاحكام البند الثالث من المادة ٦٩ من أصول المحاكمات الجزائية أقرر استجواب المدعى عليه بدون محامي .

س : يسند اليك جرم محاولة اغتصاب سلطة عسكرية والمؤامرة على ارتكاب أعمال ارهابية وانتقاد أعمال القيادة فما هي أقوالك بذلك ؟

ج : انني في حالة توقيف غير مشروع تخولني ملء الحق وفقاً لاحكام الدستور والقانون بأن أرفض الاجابة عن أي سؤال يوجه الي من أية جهة أو سلطة كانت .

تليت عليه افادته هذه فأيدها بتوقيعه ١٩٥٢/٦/٨

**توقيع المساعد** **المدعى عليه** **قاضي التحقيق**
**( توقيع )**

رفض المدعى عليه التوقيع وعليه أوقع
**قاضي التحقيق (توقيع)**

※ **ملحق رقم ( ٥ ) .**

ويعتذر عن تدوين طلبات السجين المتعلقة بالافراج عنه فورا ، وتحريك الدعوى العامة بحق من احتجزوه طيلة المدة السابقة ، بدون مذكرة توقيف قضائية ، وخلافا لاحكام القانون ؛ وحجة القاضي في ذاك الاعتذار أن هذه الامور كلها خارجة عن نطاق المهمة المكلف بها، وعن حدود الدعوى المحركة من قبل النيابة العامة •

ويرفض المدعى عليه التوقيع على ضبط الاستجواب ، احتجاجا على سلوك القاضي وتهربه من أداء واجبه القانوني ، وقلة أمانته في تدوين أقوال المدعى عليه حرفيا كما ترد في افادته •

ولا يحجم عن وصف القاضي بالجبن وبأنه خرج عن كونه قاضيا لمجرد أن أخضع نفسه لاوامر السلطة التنفيذية وأنه بذلك أصبح تابعاً لها • ويتسامح القاضي بعدم تدوين هذا الكلام في محضر الضبط ، ويلملم أوراقه بسرعة ويخرج من المهجع الكبير ، حانقا ممتقع اللون ، ولا يقرىء زميله السلام لدى الفراق ، في حين أن المساعد القضائي الشهم وكان مساعدا أول في سلك الدرك ومنتدبا للعمل في القضاء العسكري واسمه السيد محمد بصلة ، وهو من أهالي ناحية التل القريبة من دمشق والتابعة لمنطقة دوما ، يشد على يد المريض النحيلة مشجعا وينظر اليه نظرة فيها علائم التقدير •

ولا تمضي لحظات ، الا ويدخل السجان حارس المهجع بلهفة، ويسأل المريض عن سبب اغضابه القاضي ، ولا يكتم عن مخاطبه ما سمعه من الرجل الساهر على تحقيق العدالة وحماية حقوق الناس وحرياتهم وكراماتهم ، من أوامر مشددة بأن لا يتساهل هو وزملاؤه السجانون مع هذا المجرم الخطير •



ويمضي على الاستجواب أكثر من عشرين يوما أجريت خلالها العملية الجراحية للمريض، أتاه بعدها عريف من السجن يحمل معه مذكرة توقيف صادرة عن قاضي التحقيق نفسه • ولكن السجين لاحظ أن مذكرة التوقيف تحمل في ذيلها شرحا يفيد كون التوقيف ( شاملا ١٩٥٣/١٢/٢٦ ) وكان هذا يعني في نظره أن القاضي يسلم بشرعية حجز حريته طيلة المدة السابقة • فيهمل الموقوف الشرح المدون خلف احدى قسيمتي المذكرة والمتضمن صيغة اقرار باستلام نسخة عنها ، ويذيل العبارة السابقة بعبارة أخرى تفيد رفضه تبلغ المذكرة لانها « صادرة بصورة مخالفة للقانون والاصول تعرض القاضي مصدرها للشكوى من الحكام » ، ويوقع تحت هذه العبارة•

★ ★ ★

لم يلب طلب المريض السماح لافراد أسرته بزيارته قبل اجراء العملية الجراحية ، وكان قد مضى قرابة ستة أشهر على اختطافه عندما كان يهم ، صباح ذات يوم ، بالخروج من داره •

تولى اجراء العملية الجراح الارمني القدير ، ولكن حسب توجيهات اللجنة المسيرة من قبل الطبيب العسكري ذي الرتبة العالية، العملية ، كما صدر الامر العسكري باجرائها : هي عملية فتح البطن الاستقصائي •

ومن بعد تهيئة المريض للدخول الى غرفة العمليات ، بزرقه حقنة في الوريد ، أخذوه مخفورا تحت الحراسة الى تلك الغرفة ، وعلى طاولة العمليات وتحت المصباح الكهربائي المبهر ، ومن بعد وضع كمامة المخدر على فمه ، بدأ الخدر يسري في عروقه حتى غرق في سبات عميق ، لم يعد يشعر معه بشيء مما يجري حوله •

مضت ساعات طويلة ، لا يدري عددها في حساب الزمن ، بدأ يصحو بعدها على مشهد المهجع الكبير الخالي ، والاسرة الفارغة من حوله ، والسجان واقف في الممر الطويل يرقب سجينه المريض ، وهو ممدد على السرير ، يتطلع اليه من خلال القضبان الحديدية المتشابكة ضمن اطارات الشبابيك ، وممرضة يلفها البياض ، تغدو وتعود ، لترقب حالة المريض الذي بدأ يستعيد وعيه تدريجيا ، وهو في حالة تقيؤ وهذيان من فعل المخدر • انه لم يكن يعي ما يقول ، ولكن الممرضة والسجان ذكرا له فيما بعد أن ما فاه به كان يمكن أن يودي به الى الهاوية فيما لو التقطته آذان عملاء الشعبة الثانية • وطبعا لم يكن المواطنان البسيطان يعرفان حقيقة ما جرى مع المريض في السجن ، وأن ما صدر عنه في اليقظة هناك وهو بكامل وعيه وارادته، هو أخطر بكثير مما تفوه به هنا ، وهو في حالة الغيبوبة والغثيان •



وفي اليوم التالي ، يأتي الجراح ، ويحضر معه القطعة التي اقتطعها من جوف المريض ، ومن طرف أمعائه ، وقد وضعها في زجاجة مملوءة بالكحول •• انها لم تكن سوى الزائدة الدودية • ويصرح الجراح بأنه لم ير مثيلا لها خلال ممارسته مهنته • كانت طويلة ومعقوفة ومتضخمة ومحتقنة بالدم الاسود الفاسد وبالقيح الذي حالت دون انتشاره حقن المضادات للحيوية الذي سبق للمريض وأن استعملها • ويذكر الطبيب أن الزائدة بشكلها الموصوف وبالتفافها حول الامعاء التي كانت في حالة التصاق شديد ، كانت هي مصدر تلك الآلام المبرحة التي ظل المريض يعاني منها تلك الاشهر الطويلة ، وأنه لولا اجراء العملية أخيرا لربما أدى استفحال العلة الى أخطار

لا يقدر الانسان نتائجها ، خاصة وأن الجسم أضحى شديد الهزال وضعيف المقاومة •

كانت العملية ناجحة تماما بفضل الطبيب الجراح الذي كان بذل أقصى ما يستطيع لاقناع اللجنة باجراء عملية استئصال الزائدة منذ اللحظة الاولى التي عاين فيها المريض قبل أشهر • وكان يمكن اجراء تلك العملية باحداث فتح بسيط في جدار البطن • ولكن جهل ونفاق الطبيب البولي ذي الرتبة العسكرية العليا وعناده وتدجيله ، عرضا المريض لما عاناه من عذاب مر وآلام شديدة ، مدة طويلة • ثم أجروا له هذه العملية بأن بقروا له بطنه من الصدر الى الفخذ ، لتطالعهم الزائدة التي أبت عنهجية الاطباء العسكريين التسليم برأي الاطباء المدنيين واقتراحهم باستئصالها منذ البداية ، ولم تكن العملية لتكلف آنئذ أكثر من نصف ساعة من الزمن ، واحداث فتحة صغيرة في البطن ، وانتزاع هذا الجزء الملتهب من الامعاء ، وهو مصدر العلة والالم • استغرقت عملية فتح البطن واغلاقه أكثر من ثلاث ساعات ، فقد المريض خلالها الكثير من دمه دون أن يفكروا بامداده بدم جديد عوضا عن الدم المفقود •

★ ★ ★

تزول آلام الزائدة وأعراضها فور اجراء العملية ، ويتحمل المريض آلام الجراحة ، وهي حتما أخف مما عاناه من آلام السياط • ويلتئم الجرح ، وتفك عنه القطب العشرون ، ومع ذلك يبقى المريض في الجناح المخصص للسجناء في المستشفى ، وينتقل الى غرفة صغيرة كان فيها ضابط سجين يعالج من مرض صدري • ويظل أمر منع الاتصال ساريا ، حتى أن أحد الاطباء العسكريين ، وهو من أقرباء المريض ، يمنع من زيارته ، وهو على سرير المرض •

وفي صباح أحد الايام يلمح المريض في يد السجان عددا من جريدة « الفيحاء » الدمشقية يتضمن في الصحيفة الاولى عناوين بارزة تزف الى الشعب البشرى بأن الزعيم قد بر بوعده بوضع مشروع دستور جديد يعيد الى الشعب حرياته المسلوبة ، وكرامته المهدورة، مع اعداد العدة لاجراء انتخابات عامة لمجلس نيابي من بين أعضاء حركة التحرير ، وانتخاب رئيس للجمهورية من خلال استفتاء الشعب على مشروع الدستور .

فلم يدع السجين نزيل المستشفى العسكري الفرصة تفوته ، وأراد أن يعرب عن رأيه وشعوره حيال هذا الحدث العظيم ؛ فطلب من السجان احضار ورقة وقلم له من ادارة المستشفى ، ووجه خطابا الى مدير العدلية العسكرية الذي كان التقى به في نفس اليوم في أحد ممرات المستشفى عندما أتى لزيارة أحد المرضى وشكا له من حالة العزلة التي أبقوه فيها أكثر من نصف سنة بسبب أمر منع الاتصال المخالف لاحكام القانون والاصول . وقد شجعه المدير اللبق على الكتابة له حول ما يشكو منه ، وسطر السجين رسالة ضمنها رأيه في ظروف اعلان الدستور الجديد وطالب فيها بما يعطيه اياه القانون من حق ، مناشدا مدير العدلية إعمال القانون ، ولا شيء سوى القانون .

★ ★ ★

أخذ السجان الرسالة وسلمها الى ادارة المستشفى ، فتبعه بعد قليل ضابط الادارة الرئيس حناوي ، ودخل على السجين الممدد على سرير المرض ، ينقل اليه نصح مدير المستشفى العسكري بالعدول عن توجيه الرسالة بشكلها الحالي ، لما قد تسببه للادارة من متاعب وللمريض من اجراءات قد تنعكس على صحته التي لم تعد الى حالتها الطبيعية . ويصر المريض على ارسال الرسالة بالشكل الذي خطها

فيه ، طالبا الى الرئيس حناوي أن ينقل الى مدير المستشفى نصحه له بأن لا يتدخل في أمر لا يعنيه ، وأن يوجه عنايته واهتمامه لشؤون مرضاه ، متوعدا في آن واحد بأنه اذا احجمت الادارة عن تحويل الرسالة الى مرجعها ، فان السجين لن يعدم وسيلة أخرى لتوجيهها الى ادارة القضاء العسكري وبشكل أشد ، ربما سيؤدي آنئذ الى خلق المتاعب للادارة نفسها ، وان كان هو شخصيا ومع مرضه مستعد لمجابهة اجراءات السلطة .

وتأخذ الرسالة طريقها الى المراجع العليا . وبعد أيام قلائل يفاجأ المريض بزيارة والدته وشقيقه الاكبر له للاطمئنان عن صحته ، بناء على اذن وافتهم به قيادة الشرطة العسكرية في دارهم ، وكانت تلك الزيارة هي الاولى والاخيرة التي سمح لاهله بها طيلة فترة اعتقاله.

★ ★ ★

ان حياة المستشفى لم تكن لتخلو من بعض الحوادث التي تستحق التأمل والتفكير .

كان جناح السجن في المستشفى متاخما لاجنحة المرضى من الجنود العاديين والمجندين . وكان السجين يلحظ الطريقة التي يعامل بها هؤلاء . والحقيقة ، ان المعاملة لم تكن لائقة كثيرا ببني الانسان. وكانت تجري في بعض الاحيان أمور مؤسفة ومؤلمة ، تقع في المستشفى دون أن تلقى الاهتمام الكافي من ادارته أو من ادارة الصحة العسكرية. وكان ذلك ناتجا عن انصراف المدراء وكبار الاطباء العسكريين الى مداهنة الديكتاتور وزبانيته ، زمرة الضباط الصغار المقربين منه .

فهذا مجند تجرى له عملية جراحية ناجحة وينقل الى سريره، قبل أن يصحو من المخدر ، ولقلة المراقبة والسهر على انعاشه ، يفلت الانبوب المطاطي الموضوع في فمه لتأمين تنفسه ، فينقطع سيل الهواء

عن مجرى التنفس ويختنق المجند ، وينقلب الجسم النابض بالحياة الى جثة هامدة ، لا يلبث جنود المستشفى المناوبون أن ينقلوها على محفة ، ويضعوها في مستودع المشرحة ، ريثما يبلغ أهل المتوفى لزوم الحضور فورا ، لاستلام جثمان ابنهم مع ورقة الدفن المحضرة سلفا قبل حضورهم ، والموقعة من ادارة المستشفى وفيها الشهادة بأن المريض توفي من علته المرضية •

وذاك جندي محترف يشكو من ألم مبهم في أحشائه ، فيجرون له عملية استئصال القرحة المعدية ، ويقتطعون جزءا كبيرا من معدته السليمة ، يحمله أحد المساعدين الممرضين بعد انتهاء العملية وانصراف الجراحين ليطوف به على المتنورين من نزلاء المستشفى ويطلعهم على عملية الذبح الجارية في المسلخ البشري •

⋆ ⋆ ⋆

وضحى ذات يوم ، يسمع في أرجاء المستشفى الكبير ، عويل أشبه بعويل ذئب جريح • انه صوت كئيب يمزق جو المستشفى الهادىء ويدخل الهلع الى النفوس ، فلا هو يشبه أنين المرضى ، وليس يحاكي صياح من كان يجري تعذيبهم في السجن • ويهرع الكثيرون من المرضى العسكريين من أسرتهم ومهاجعهم لاستطلاع الخبر ، كما يهرع معهم السجان المناوب ، ليعود بعد قليل ، ويعلم السجين المريض ، بأن صوت العويل صادر عن مجند يجري فحصه من قبل لجنة طبية تتولى دوريا فحص المجندين والتأكد من لياقتهم البدنية التي تساعدهم أو لا تساعدهم على أداء الخدمة العسكرية ، وأن ( الفلقة ) استعملت مع ذاك المجند لحمله على الاعتراف بعدم وجود العلة التي كان يدعيها ، وهي الصمم • ولكن السجين لا يصدق هذه الرواية التي ظن أنها من نسج خيال الجندي السجان •

وفي صباح اليوم التالي وعندما يطوف الاطباء لعيادة مرضاهم،

ويدخلون الى غرفة السجين المريض ، يسألهم عن حقيقة الرواية التي سمعها بالامس ولم يصدقها ، فلا ينفيها الاطباء ويبررون تصرف اللجنة الفاحصة بجلد المجند المعتل ، بأن كثيرا من المجندين يتمارضون، أو يدعون وجود علل وهمية في حواسهم ، فلا يجد الاطباء وسيلة أجدى من الفلقة والسياط ، هذا اذا لم تكف الصفعات بالايدي على وجوه المجندين لحملهم على الاقرار بالحقيقة ، ولا شيء سوى الحقيقة ، التي هي رائد الاطباء العسكريين في المستشفى ، كما كانت رائد زملائهم المحققين العسكريين في غياهب السجن •

صورة حية من واقع هذا المجتمع البائس الذي تحاول العقلية العسكرية النهوض به ، بواسطة الجلد والسياط ، الى مراقي العزة والسؤدد والنصر ؛ تقابلها صورة خفية كان السجين المريض يعرف بعض خفاياها ، وهي أن بعض هؤلاء الاطباء العسكريين لم يكونوا ليحجموا اطلاقا عن توقيع بيانات كاذبة لمساعدة بعض ذوي المحسوبيات والشفاعات على التخلص من خدمة العلم ، بحجة المرض العضال أو العلل الدائمة ، في حين أن هؤلاء المحظوظين من المكلفين بالخدمة الاجبارية ، كانوا أصحاء أشداء ، وكان المرض الوحيد كامنا في ضمائرهم • واني أعرف واحدا من أولئك المحظوظين السعداء ، وقد تخلص من خدمة العلم بحجة وجود كسر سابق في أحد قدميه • ولكن هذه العلة المقعدة عن أداء الواجب العسكري لم تحل دون قفزة عالية من صاحبها أوصلته ، وفي يوم غير بعيد ، الى مركز السلطة والحكم •



# تحطم الاغـلال

**(( الحكماء يفرضون آراءهم ببطء لتبقى ، والطغاة يفرضون نفوذهـم بسرعة البرق ليزول )) .**

(( هيجـل ))

في الحادي عشر من شهر تموز ( يوليو ) ١٩٥٣ اجتمع مجلس الوزراء في دار الحكومة واطلع على نتائج الاستفتاء والانتخـاب الجاريين في اليوم السابق ، والتي قدمها اليه وزير الداخلية وتبين أن مجموع الناخبين في جميع المراكز الانتخابية قد بلغ / ٩٩٥٤١٧ / ناخبا ، وأن مجموع الناخبين الذين اشتركوا فعلا في الاستفتـاء والانتخاب قد بلغ / ٨٦٤٤٢٥ / ناخبا ، وان مجموع الاصوات التي نالها المرشح للرئاسة الزعيم محمد أديب الشيشكـلي قـد بلـغ /٨٦١٩١٠/، وهو العدد الاكبر من الاصوات . لذلك قرر مجلس الوزراء الاعلان عن :

أولا ــ أن الشعب السوري قد أقر مشروع الدستور المنشور عليه بتاريخ ٢١ حزيران ( يونيو ) ١٩٥٣ فأصبح نافذا فور اعـلان هذا القرار .

ثانيا ـ ان الشعب السوري قد انتخب فخامة الزعيم محمد أديب الشيشكلي رئيسا للجمهورية (١) .

يا للفرحة الكبرى ، تملأ قلوب الاكثرية الساحقة من أبناء الشعب الذين بلغ عدد المقترعين منهم ( ٨٦ر٨٤٪ ) من مجموع عدد الناخبين ، كما بلغ عدد الذين أعطوا أصواتهم بالموافقة على الدستور وعلى انتخاب فخامة الرئيس ٩٩ر٧٠٪ من مجموع عدد المقترعين . وترفع معالم الزينة في جميع أنحاء الجمهورية وتعزف الموسيقى وتصدح الاذاعة بأناشيد الفرح والحبور ، وتطلق المدافع مؤذنة بهذا الحدث العظيم ، وترتج مع انفجار قذائفها أركان المستشفى العسكري، ويبلغ مع دويها النبأ الى مسامع السجين المريض ، فيدرك ، بينه وبين نفسه حقيقة الامر ، وسر اللعبة القذرة التي قام بها مزيفو ارادة الشعب ؛ فهو أدرى بحقيقة هذا الشعب الذي هو صبور وقوي الاحتمال ، ولكنه لا يمكن أبدا أن ينحاز الى جانب الطغاة المستبدين. وقدر السجين أن هذا التزييف الفاضح لن يبدل من جوهر الامور شيئا ؛ وسيبقى الديكتاتور المترئس وأجهزته الفاسدة في واد ، ويظل الشعب المغلوب على أمره في واد آخر ، ريثما ينفض عن كاهله كابوس الظلم ورداء الذل ، ويهب في وجه الطغيان هبة واحدة ، ليحطمه ويقضي عليه ، ويستعيد حريته وعزته وكرامته .

* * *

وتتضافر الظروف والعوامل بعدئذ لتمارس ضغطها على رئيس الجمهورية لحسم مشكلة الموقوفين الذين صدرت أخيرا بحقهم مذكرات التوقيف ، وبمفعول رجعي شامل مدة التوقيف الطويلة السابقة لصدورها . ويقع صاحب الفخامة في حيص بيص ، اذ أن

---

(١) قرار مجلس الوزراء رقم ٥٧٢ تاريخ ١١ تموز ١٩٥٣ منشور في الصحيفة /٣٣٧٥/ من الجريدة الرسمية لعام ١٩٥٣ .

الاخوين المدعى عليهما قد وقفا من قاضي التحقيق موقفا صلبا ، فالضابط منهما رفض ، وهو في الزنزانة ، الاجابة على أسئلة القاضي، مرجئا كلامه الى يوم المحاكمة التي اشترط سلفا أن تجري بصورة علنية ، كما أن أخاه نزيل المستشفى العسكري رفض الاجابة أيضا لانه محجوز الحرية بصورة غير قانونية •

كان واضحا أن المحاكمة لن تكون في صالح العهد الجديد ، وبالرغم من أن قاضي التحقيق كان استعان برئيس وأعضاء لجنة التحقيق العسكرية ، وبدون طلب من أحد ، ليشهدوا زورا وبهتانا وبعد حلف اليمين القانونية طبعا ، بأن ما من أحد من الموقوفين قد جرى تعذيبه من قبلهم أو باطلاعهم ، فان بصمات السياط على جسد الاخ الاصغر كانت أصدق من شهادات الزور التي نطقوا بها ، وكان واضحا أيضا أن المحاكمة العلنية اذا ما جرت وفق الدستور والقانون، فانها ستكون محاكمة للديكتاتور المتوج ولزبانيته المجرمين • وترددت في أعماق أذني صاحب الفخامة العبارات التي ضمنها المحامي الموقوف مذكرته حول عيوب وأخطاء الوضع الراهن والتي ختمها مرددا فيها قول الشاعر :

لا تغترر بليال نام حارسها ولا بدولة فسق أنت فارسها
واحذر ليوث الوغى من أن تلامسها ان الافاعي وان لانت ملامسها
عند التقلب في أنيابها العطب

وكان المحامي قد حفظ هذه الابيات أثناء فترة تدريبه ، اذ كثيرا ما كان يرددها على مسامعه الاستاذ المحاسني الاب ، وقد نسي المحامي في مذكرته ذكر الشطر الاوسط من تلك الابيات •

يضاف الى ذلك أن من بين أعضاء الوزارة الجديدة الذين صار اختيارهم من قبل الرئيس الجديد بعد انتخابه كان الدكتور أسعد المحاسني الذي سمي وزيرا للعدل • كان هذا الانسان وفيا لزميله

المحامي الشاب الذي تدرب في مكتبه ، ومخلصا لشعبه ، فقد فاجأ الرئيس في أول اجتماع له معه ، بعد اسناد الوزارة اليه ، باثارة موضوع المعتقلين السياسيين الذين جرى تحريك الدعوى العامة بحقهم مؤخرا ، من دون سائر المعتقلين الآخرين الذين سبق الافراج عنهم لدى اعلان مشروع الدستور • وأراد الوزير العادل ، تدشين عهد وزارته ، بتبييض جدران السجون ، بانتظار اتخامها بالمعتقلين السياسيين مرة أخرى ، وبعد أشهر قليلة كان قد اضطر خلالها لترك الوزارة ، لان نزعته الحرة لم تطق العمل في ركاب الديكتاتورية ، وفي ظل الطغيان والارهاب •

ولكنه كان قد حقق ، قبل الاستقالة من الوزارة ، وفي الاسبوع الاول من اشغالها ، نجاحا مشرفا ، عندما أحرج باصراره وجرأته ، الرجل الظافر بكرسي الرئاسة وانتزع منه بتاريخ ٢٠ تموز ( يوليو ) ١٩٥٣ مرسوما بالعفو عن الجرائم الواقعة على أمن الدولة الداخلي، والمرتكبة قبل تاريخ الاستفتاء والانتخاب ، فظفر بذلك الموقوفون في سجن المزة العسكري ، كما ظفر معهم السجين الموقوف في المستشفى ، بحريتهم ، وأفرج عنهم جميعا في ذات اليوم •

★ ★ ★

وقد جرت عندئذ اعادة المريض الى السجن حيث تمت هناك مراسم الافراج عن الموقوفين ، بحضور قاضي التحقيق الذي حمل بنفسه أمر العفو ، وذهب الى السجن ليزف البشرى الى من أصدر بالامس القريب قرارات توقيفهم ، ووقع مذكراتها بامضائه ، كما أصدر بعدها قرارا باتهامهم تمهيدا لمحاكمتهم بسلسلة من الجرائم الجنائية، كما أمره بذلك الديكتاتور الساهر في مركز السلطة على كل شاردة وواردة ، والقادر على كل شيء •

وأقبل الموقوفون ، بعد جمعهم وتبليغهم قرار الافراج عنهم ، على زميلهم المريض يهنئونه بسلامة العودة وعلى شفائه من مرضه،

ولكنهم لاحظوا عند رؤيته سحابة من الشحوب الزائد تكسو وجهه الذي غارت فيه العينان ، وامّحت من شفتيه الابتسامة الدائمة التي لم تكن لتفارق محياه في السجن حتى في أشد حالات مرضه ، قبل نقله الى المستشفى ؛ وصوته الداوي المجلجل الذي كان يتجاوب مع أصداء صوت أخيه الضابط المنطلق من الزنزانة المتاخمة لزنزانته، قد ضعفت قوته وانخفضت نبراته . ويسألونه عما حل به خلال فترة غيابه في المستشفى ، غير مخفين دهشتهم كيف أن الجلد والتعذيب والحبس الانفرادي والعزلة في الزنزانة وسوء التغذية والمرض لم يفعلا به مثل ما فعلت المعالجة في المستشفى العسكري . وطبعا لم يخطر ببال أحد منهم أن يكون النطاسيون العسكريون قد حققوا بأجهزتهم العلمية الدقيقة ما عجز عنه الجلادون القساة ، بسياطهم الغليظة وضرباتهم الدامية ، فقد خرج السجين من المستشفى وكأنه هيكل عظمي أو شبح انسان .

* * *

يعود الاخوان الى البيت الابوي ليقبل عليهما الاهل والاصدقاء، وأفواج المهنئين بسلامتهما والمؤيدين لسيرتهما ، والساخطين على ما فعلته أيدي المستبدين العابثين بأمن البلاد ومصلحة الشعب . ويخشى الحكام الطغاة من بوادر هذا التحرك الجماهيري ، المنذر بأشد الاخطار ، فتعود رقابة رجال الشعبة الثانية كأشد ما تكون الرقابــة .

ورغم ذلك يضاعف الضابط المسرح من نشاطه الثوري في سبيل تعبئة القوى الوطنية لاسقاط الديكتاتورية المجرمة ، بينما يعاني أخوه من وطأة المرض الساري في أوصاله ، والذي لاحت أعراضه بشكل وهن شديد في الصحة ، سببته الاساليب الشاذة التي اتبعت في

معالجته ، والتي أثرت على الكثير من وظائف جسمه ، وأورثته نحولا شديدا .

★ ★ ★

يمضي زمن غير قصير يخضع المريض خلاله لمعالجة طويلة على أيدي أطبائه ، ولم يكن بعد قد استعاد صحته ، عندما فوجيء ذات ليلة باردة في أواخر شهر كانون الثاني ( يناير ) عام ١٩٥٤ بالذئاب تداهم بيته مرة ثانية ، في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل لتخطفه من فراش مرضه ومن بين أهله ، وتذهب به سيارة الشرطة المدنية الى مدرسة الشرطة في شارع النصر حيث يلتقي بعدد من المحامين المعتقلين ، ثم ينتقلون جميعا الى سجن مخفر الشيخ حسن ، في حي الميدان ، حيث يوضع كل واحد منهم في زنزانة منفردة . ولم يكد السجين يبدل ثيابه ويستلقي على أرض الزنزانة العارية حتى يفتح باب الزنزانة بغلظة ، ويطلب منه السجان الخروج فورا للالتحاق بركب المعتقلين الآخرين في طريقهم الى سجن المزة .

وفي السجن يوضع المعتقلون وعددهم تسعة في مهجع علوي واسع ، ولم يكد ينبلج نور الصباح ، حتى بدأت وفود المعتقلين تتوالى على السجن الرهيب أفواجا أفواجا ، ومن سائر المحافظات السورية ، من الجزيرة والفرات ، من حلب واللاذقية ، من حمص وحماه ، من درعا والسويداء ، عدا المئات من أبناء دمشق . لقد تحركت الجماهير بعزم وتصميم ، وطار صواب الرئيس المنتخب قبل ستة أشهر بنسبة ٩٩٫٧٠٪ من أصوات الناخبين ، أي باجماع الشعب ، كما ادعت ذلك وقررت أجهزة التزييف .

فجاءت الاعتقالات الواسعة التي شملت معظم فئات الشعب ، المحامين والاطباء والصيادلة والمهندسين ، أساتذة الجامعة والمعلمين ،

العمال والفلاحين ، الطلاب والمثقفين ، قادة الاحزاب وكبار السياسيين ، جاءت لتكشف الستر عن حقيقة التأييد الجماهيري لسلطان الطغمة العسكرية المتحكمة بمقدرات الوطن ولتفضح تزييف ارادة الشعب ، وقد لجأ اليه الزبانية يوم الاستفتاء والانتخاب في محاولة منهم لتغطية افلاسهم السياسي والادبي •

★ ★ ★

ولم يكد يمضي من شهر شباط ( فبراير ) من ذلك العام ستة وعشرون يوما ، الا وكان عرش ذلك السلطان الزائف يتهاوى تحت وطأة غضبة الشعب ، وأمام أول صرخة ونداء يصدران عن اذاعة حلب الشهباء الاضافية بالاعلان عن تحطيم عهد الديكتاتورية العسكرية البائدة •

فما كان من الديكتاتور الباسل ، الا أن ولى الادبار حاملا معه ماخف حمله وغلا ثمنه ، ولم يبق في الساحة الا الضابطان الصغيران، قائد الفوج المدرع في القابون ، وقائد فوج الشرطة العسكرية ، اياهما ، يحاولان معا وراثة التركة المثقلة بالمخازي والآثام ، عن طريق السيطرة على بعض أنحاء العاصمة ، وعلى دار الاذاعة في محاولة منهما للوقوف في وجه التيار الشعبي الجارف •

ويلتحق بهما في معسكر القابون الذي يصبح مقرا لقيادتهما نفر من فلول حركة التحرير ، وعلى رأسهم يوسف مزاحم الذي كان جابيا لدى أمانة العاصمة ، وأضحى في عهد « الحرية » قطبا بارزا من أقطاب حركة التحرير • وتتفتق عبقرية هذا الدعي الحاقد على حرية شعبه عن فكرة أخذ عدد من الرهائن من بين المعتقلين في سجن المزة ، للضغط على رجال السياسة وأقطاب الاحزاب المجتمعين في المؤتمر الكبير الذي عقد يومئذ في حمص ، وللتهديد باعدام الرهائن

ان لم يتراجع المؤتمر عن مقرراته باعادة الحياة الدستورية الى البلاد، وان لم يذعن مؤتمر الاحزاب والاقطاب لمشيئة الضابطين الصغيرين المتمردين على ارادة الشعب •

وبينما كان المعتقلون في سجن المزة ينتظرون على أحر من الجمر فتح باب السجن الذي أطبق عليهم ، منذ قرابة شهر ، يدعو مدير السجن الى غرفته خمسة من بين مئات المعتقلين ، وهم السادة أحمد فؤاد القضماني ورزق الله الانطاكي ومحمد الجيرودي وسامي الدروبي ورياض المالكي ويبلغهم آمرا تلقاه من رؤسائه بارسال المعتقلين الخمسة الى مبنى رئاسة الاركان العامة ، ويوهم المدير هؤلاء السجناء بأن الغاية من الدعوة هي المفاوضة مع المسؤولين في الاركان العامة للجيش السوري ، لحل الازمة السياسية الناتجة عن قرار رئيس الجمهورية الشجاع •

ويوضع الجميع في سيارة مدرعة ، يستطيها جنود مدججون بخوذهم الفولاذية وأسلحتهم الحربية الاوتوماتيكية ، وتنحدر الآلية المدرعة في الطريق الاسفلتي الملتوي وشديد الانحدار • وعند السهل المتاخم لهضبة السجن ، يتصدى جنود آخرون مدججون بالاسلحة أيضا لقطع الطريق على المركبة ، ويشهرون مدافعهم المضادة للدرع في مواجهة سائقها ، الذي يضطر للتوقف تحت التهديد باطلاق القذائف المحرقة على مركبته بمن فيها •

ويؤمر الركاب بالنزول منها ، ويفاجأ الجنود المهاجمون بوجود خمسة أشخاص مدنيين ، فيأتي قائداهم وهما الرئيسان محمد ماجد قباني وفؤاد ملاطيه‌لي اللذان يتعرفان على بعض هؤلاء الاشخاص، فيستغربان نزولهم من السجن في ذلك الظرف المشحون بالخطر • وعندما يفهمان منهم وجهة سيرهم يحذرانهم من الوقوع في الفخ المنصوب لهم ، ويحتجزان السيارة العسكرية المصفحة مع جنودها

المسلحين ، ضمن معسكر سرية التسليح المنضمة الى القوات الثائرة التي ما أن أعلنت عن حركتها الانقلابية من اذاعة الشمال حتى أيدتها معظم قطعات الجيش بأكثريتها الساحقة .

ويأمر الضابطان الحران الشجاعان أحد مساعديهما بالتوجه صحبة الاشخاص المدنيين الخمسة لايصالهم الى المدينة بواسطة شاحنة عسكرية ضخمة يحرسها بعض جنودهما البواسل . وتذهب بهم السيارة الشاحنة منطلقة بسرعة من المعسكر الى الطريق الموصل من كيوان الى حي المهاجرين عبر الحواكير الخضراء والبساتين الغناء. وينزل الاسرى المحررون ضيوفا على الطبيب الشرعي الدكتور سليم العطار ، وهو نسيب الاستاذ القضماني ، ومن هناك يتفرقون كل الى وجهته ، بعد أن نجوا جميعا من مخالب مجرم قاتل مجنون ، كان واقعا في تلك الحقبة الحالكة المضطربة تحت تأثير سياسي متطفل مأفون .

★ ★ ★

عاد كل منا الى داره ، بالرغم من التحذير الذي سمعناه من الضابطين الشجاعين الرئيس قباني والرئيس ملاطيه‌لي حول احتمال عودة القراصنة المتمردين لالقاء القبض علينا في بيوتنا .

وفعلا لم يمض على دخولي الدار بضعة دقائق ، الا ودعيت للكلام على الهاتف . وكان المتكلم مدير الشرطة والامن العام المقدم الجوي طلعة عبد القادر ، الذي عين يومئذ في هذا المنصب ، لان المدير السابق ، وهو السيد حمدي الصالح ، رفض قمع حركة الجماهير المحتشدة والمتظاهرة في شوارع المدينة ، فهو كقاض سابق ، وبحكم علمه وثقافته ، يدرك أن ليس من الحكمة في شيء أن يقف هو وقوات الامن الخاضعة له ، في طريق شعب حر أبي هب بكامله لاسترداد حريته وكرامته .

فقد انطلقت جماهير الشعب تؤيد ثورة الجيش في الشمال ، وتقول كلمتها لافي زعامة الديكتاتور الهارب فحسب ، بل وفي عهد التزييف والتلفيق الذي أقامه ، موهما نفسه وأتباعه بأنه أضحى عهدا دستوريا شرعيا •

لقد اقتحم المتظاهرون مبنى المجلس النيابي ، وطردوا منه ممثلي عهد الطغيان الذين دنسوا بيت الشعب بعد انتخابات نيابية مزيفة كان أكثر الناجحين فيها من أعضاء حركة التحرير ، ولم يكن قد مضى على فرحتهم بدخول المجلس أكثر من نصف سنة •

وهاجم المتظاهرون منزل رئيس مجلس النواب الذي أعلن عن تسميته رئيسا للجمهورية ، خلفا للرئيس الفار ، وعملا بالدستور الملفق الذي سقط أيضا وهو ابن أشهر معدودات • ولم ينج الرئيس الخلف بجلده ، الا عندما أشفق المهاجمون على والدته المسنة التي كانت تصيح في المهاجمين أن يتركوا لها ولدها حيا ، وأنها بالمقابل ستنهاه عن مقاربة السياسة للابد •

أما وزراء العهد الاسود الذين كان بعضهم يملأ الدنيا قبل أيام صياحا ، بأن قافلتهم تسير ، وتهديدا بأن من لا يعجبه الحال فما عليه الا أن يتجه الى الصحراء ، فقد أفلت زمامهم بمجرد أن تخلى عنهم رأس قافلتهم ، وذابوا أمام غضبة الجماهير ، كما تذوب أكوام الملح أمام مياه السيل العرم •

واتجهت الجماهير بعد ذلك لتحاصر دار الاذاعة السورية في دمشق ، وتطفيء بعزمها وارادتها ، أصوات الشؤم المنبعثة عبرالمذياع، وكأنها نعيب البوم ، أو فحيح الافاعي ، تحاول بث سمومها في صفوف الجماهير الغاضبة الثائرة على الطغيان والمصممة على ازالة كل آثاره وذيوله •

★ ★ ★

لم يكن المقدم الجوي طلعة عبد القادر ، وهو صديق لي من أيام الدراسة ، بأقل من سلفه ادراكا لحقيقة الموقف • انه لم يأبه لاوامر القراصنة ، وقد صعب عليهم أن يروا تداعي البناء الذي شيدوه مع الديكتاتور بالظلم والارهاب والتدجيل والخداع ، فأرادوا بذل المحاولات ، ومواصلة الجهود لتدعيم البناء المتصدع وانقاذه من الانهيار التام ، ولو كلف الامر شعبهم الدماء والضحايا • ولكن ضباط الجيش الشرفاء لم ينصاعوا لاوامرهم ، كما أن المواطنين الاحرار لم يستجيبوا لنداءاتهم المتكررة المرسلة عبر اذاعة دمشق •

بعد أن هنأني مدير الشرطة والامن العام على سلامتي ، دعاني للتوجه فورا لمقابلته • فأجبته بأني واصل لتوي من السجن ، فاذا كان المراد اعادتي اليه ، فأنا باتنظار رجاله لمرافقتهم ، مرة ثالثة ، الى الاسر • فأكد لي أنه لا يريد اعتقالي ، وأنه فرح شخصيا لظفري بحريتي ، وأنه يتصل بي الآن مستنجدا بشخصي لتهدئة خواطر المتظاهرين ، والتخفيف من حدة الموقف المتفجر في المدينة كالبركان•

فأكدت له بدوري أن هذه ارادة الشعب ، ولن تقف عثرة في طريقها ، ولن تستطيع قوة أن تتغلب عليها ؛ فان أراد هو نفسه أن يخلص لقضية هذا الشعب ، فما عليه الا أن ينضم الى صفوف الاحرار من أبناء وطنه ، ويلتحق برفاقه الضباط الثائرين في وجه الديكتاتورية والطغيان •

فعاد الضابط الحر ليقسم بأنه لن يكون الا ، كما أعرفه سابقا، عنصرا وطنيا ، وأنه لن ينحاز الى أعداء الشعب ، ولكن همه الآن هو اطفاء النار التي بدأت تتأجج في المدينة ، من خلال غضبة الجماهير• فطمأنته بأن الجماهير لا يمكن أن تخون نفسها وتخرب ديارها ، وأنه اذا أراد فعلا حسم الازمة وقمع الفتنة ، فما عليه الا أن يوجه

خطابه ونصحه الى الضابطين الصغيرين المتمردين في وجه ثورة الشعب ، ليرجعا عن غيهما ويعودا الى السبيل القويم •

★ ★ ★

لم تمض ساعات قلائل الا وكان كل شيء قد تم ، وفق ارادة الشعب الحر الشجاع ، وخلافا للمخطط الامبريالي الامريكي الذي اعتمد الطاغية أديب الشيشكلي ليحكم شعب هذا البلد المجاهد ، بالحديد والنار •

انقلبت الآية وسقط الديكتاتور وسقط معه عهد الطغيان والاجرام ، وتلاشت خلال ساعات جميع المؤسسات والاجهزة الضخمة الفارغة التي أوجدها بالخداع والتزوير : الدستور ، والمجلس التشريعي ، ومجلس الوزراء ، والمحكمة العليا ، البناء الكرتوني بكامله ، وقد دأبت الدعاية النشيطة وأجهزة الاعلام الضخمة على تصويره للعالم بأنه صرح شعبي ديمقراطي شامخ ، وطيد ، دائم ، لا يقهر •

لقد انهار هذا البناء الكرتوني الهش الشفاف ، وتلاشت معه أحلام صاحبه وأعوانه ، وتبخرت بسرعة أصوات التأييد البالغة /٩٩٫٧٠ بالمئة والتي زعم المزيفون أن رئيسهم المفدى ودستوره الملفق فازا بها يوم الاستفتاء ، ولم يبق الى جانبهم الا نسبة تافهة ٠٫٣٠ بالمئة أو أقل ، وبالحري لم يبق في الساحة الا شخصان اثنان، وهما الضابطان الصغيران ، ضابط فوج الشرطة العسكرية ، وضابط الفوج المدرع ، اللذين ما لبثا أن انهارا أيضا بعد ساعات من انهيار العهد الفاشي الذميم الدائر في فلك القوى الاستعمارية وزعيمتها العظمى الولايات المتحدة الامريكية •



ولكن أنى للدول الاستعمارية أن تسلم بالهزيمة بهذه السهولة؟ وكيف يمكن أن تتخلى الولايات المتحدة الامريكية زعيمة الاستعمار الغربي والامبريالية العالمية ، عن قلعة هي من أقوى قلاع الامة العربية صلابة ، وعن بقعة كانت في نظرها بؤرة اشعاع وطني ، وتطلع قومي ، ونضال تحرري ؟•

فلتحشد أمريكا وحلفاؤها اذن كل طاقاتها وجميع عملائها ، للانقضاض على الشعب الذي تغلب على الديكتاتورية المنحرفة المستبدة واعاد بناء الحياة الديمقراطية الى ربوع بلاده •

ولينشط جميع هؤلاء العملاء من جديد لانهاك الشعب ، واضعاف كلمته ، وعدم اعطائه الفرصة لبناء مجتمعه الديمقراطي ، وتدعيم قوته العسكرية التي ستتولى ، بحزم وعزم ، الذود عن حياضه ، وصد كيد أعدائه ، والاستعداد بجدية وتصميم لتحرير الارض المغتصبة •

ان الطابور الخامس يعد عادة لمثل هذا الغرض ، فلتتحرك اذن عناصره على اختلاف مواقعها ومراكزها ، وبدون كلل ، لحرمان الشعب ثمرة جهاده ، وللحيلولة دون تحقيق أهداف كفاحه ، ولتحطيم أي أمل من آماله •

★ ★ ★

ومن خلال المعركة مع الديكتاتورية ومن أعماق السجون ، انبثق أمل كبير ، سرعان ما اهتدى اليه الاحرار من أبناء هذا الشعب ، فأصبحت الانظار ترنو اليه وكأنه الشعلة المضيئة في ظلام الليل البهيم •

عرفه أترابه منذ صغره في الحي ، وفي المدرسة ، فوجدوا فيه طالبا مجدا مجتهدا •

عرفه أصدقاؤه وزملاؤه فوجدوا فيه صديقا صادقا وفيا مخلصا•

عرفه جنوده فوجدوا فيه مقاتلا شجاعا ، لا يتردد في خوض معارك جيشه وفي اقتحام المخاطر ومجابهة الموت بدون خوف أو وجل •

عرفته الكلية العسكرية في بلده ، والمعاهد الحربية العليا في ديار الغرب ، فوجد فيه مديروها والقائمون عليها نموذجا فذا لطالب ناجح وضابط متفوق حتى على الضباط الكبار الاجانب ، ولقائد يرجى منه خير عميم ونفع كبير لوطنه وجيشه •

عرفته دوائر الاركان في قيادة جيشه فوجدت فيه قائدا يتحلى بجميع الصفات التي تؤهله لكسب ثقة الجميع ، رؤسائه وزملائه ومرؤوسيه ، وتمكنه من جمع الشمل ، وتوحيد الصف ، واعلاء كلمة النظام والانضباط •

عرفته جدران السجون والمعتقلات في عهد الظلم والديكتاتورية والطغيان ، فعرفت فيه مناضلا حرا شجاعا ، يرفض المهادنة أو المداهنة مع أعداء الحرية ، ولا يرضى عن حرية شعبه بديلا •

عرفه الاعداء ممثلين بسفاراتهم والملحقين العسكريين لديها ، فعرفوا فيه مواطنا عفيفا ، صريحا جريئا ، يرفض بإباء الاغراءات على اختلاف أشكالها ووجوهها الخلابة ، ويصارح الجميع بأن الوطن هو فوق الجميع •

ان انسانا له مثل هذه الصفات والخصال كلها وأكثر ، جدير بأن يلعب دورا ايجابيا حاسما في معارك جيشه وحياة شعبه ، وبأن يشكل أملا جميلا من آمال هذا الشعب •

انه فارس متمرس شجاع ، خاض بعض معارك جيشه المتعددة، فانتصر فيها ببسالة •

قاتل مرارا في الاراضي الفلسطينية ، في حرب عام ١٩٤٨ ، وسجل انتصارات باهرة ، واختلط دمه بثرى الارض المقدسة .

أسهم مع شعبه في محاربة الديكتاتورية والطغيان ، ولم يكف عن الكفاح حتى سقطت الديكتاتورية وزال عهد الطغيان ، وتحطمت معهما خطط الامبريالية الامريكية .

وها هو قد عاد الى قواعد جيشه ، والى صفوف زملائه وطلابه، وكله حماس واندفاع للتعاون معهم جميعا بقصد اعادة بناء هـذا الجيش والاستعداد لمعركة الثأر والتحرير .

ولكن للصهاينة ثأرا كبيرا ضد هذا المقاتل الشجاع ؛ فقد أباد من جنودهم المئات على روابي كعوش وعلى التل الذي سمي باسمه « تل المالكي » .

كما أن للدولة العظمى ، أم الحرية والديمقراطية ، الولايات المتحدة الامريكية ، ثأرا أكبر ضده ، وهو الذي شق عصا الطاعة في وجه صنائعها الذين أغدقت عليهم وحركتهم واستخدمتهم ضد أماني ومصالح شعبهم ، ضمن مخططها الهادف للسيطرة على هذه المنطقة، ولسلب شعبها حريته وكرامته وثرواته وخيراته . وهو منذ عودته الى الخدمة في جيش وطنه ، بعد اسقاط الديكتاتورية الخائنة ، لم يكف عن المجاهرة في مجابهة التحدي الامبريالي وعـن التصـدي لاحباط المؤامرات الاستعمارية وفضح المشاريع العدوانية ، كمشروع الدفاع المشترك عن الشرق الاوسط ، ومشروع حلف بغداد ، بجرأة وعلانية كان لهما الاثر الكبير في تعبئة صفوف العسكريين وجعـل أكثريتهم كتلة متراصة مصممة على خوض المعركة الكبرى ضد قوى البغي والعدوان .

وازاء الضغوط المتعددة والاغراءات المتنوعة والمحاولاتالمتكررة

التي كان يبذلها معه الامبرياليون الامريكيون لثنيه عن خطته وعزمه وصلابته ، لم يحجم عن أن يطلق في وجوههم صيحته المشهورة : « لا .. لن تجعلوا من بلادنا غواتيمالا ثانية ، ولن تمروا الا على أجسادنا » . فلتنشط اذن دوائر المخابرات الامريكية وحلفاؤها وعملاؤها جميعهم ، وطابورها الخامس كله ، لاطفاء هذه الشعلة المضيئة والقضاء على هذا الامل الكبير ، تمهيدا للقضاء على آمال أكبر ، وأهداف أسمى ، نذر ذلك الفارس الشجاع نفسه وحريته ودمه وحياته للاسهام مع شعبه في خوض المعارك الضارية لتحقيقها أو الموت دونها .

# ٩

## جناية كبرى وطابور خامس

**ان قعدتم عن اللعين فأنتـــم    شـــركاء اللعــين بالآثـــام**

« ابن الرومي »

بعد ظهر يوم الخميس الواقع ٢١ نيسان ( ابريل ) ١٩٥٥ يجري اتصال هاتفي بين دمشق وصيدا! • كانت المتكلمة على الخط مـن الجانب اللبناني فتاة عالية الثقافة رفيعة التهذيب ، من آل الحجار ، وهم أسرة ذات محتد كريم ، ومسلك قويم ، يتصف جميع أفرادها بالوطنية والنبل والاستقامة ، وكان أخوال الشابة من آل شهاب وهم أيضا أسرة مجد ووطنية وكفاح ، التحق مناضل من أفرادها بالثورة السورية وأبلى فيها أحسن بلاء ، وتعرض بسبب ذلك لعقوبة الاعدام، وتشرد في المنفى سنينا طوالا بعيدا عن وطنه وأهله ودياره وهـو المجاهد الثائر السيد نسيب شهاب • كان المخاطب على الجهة الثانية من الخط ، خطيب المتكلمة ، وقد عقد قرانه عليها قبل أيام ولم يزف اليها بعد ، وهو ضابط كبير في الجيش السوري ، وطني مقدام ، يحمل في مؤخرة رأسه ندبة جرح بليغ أصيب به ، بسلاح الغـدر الصهيوني في حرب عام ١٩٤٨ ويحمل على صدره عددا من شارات الاوسمة التي نال معظمها بسبب بسالته في القتال •

انه العقيد الركن المجاز عدنان المالكي ، رئيس الشعبة الثالثة في الاركان العامة للجيش السوري • انه واحد من أشهر ضباط جيشنا الاحرار • وقد تركزت عليه الاضواء ، بشكل خاص ، لانه استطاع باستقامته ووطنيته ، وحماسه ، واخلاصه ، وشجاعته ، وعلمه ، وثقافته ، ووفائه ، أن ينال ثقة الاكثرية الساحقة من العسكريين ، ضباطا ، وصف ضباط ، وجنودا ، فأصبح أملا كبيرا من آمال شعبنا وطد عزمه وكرس وقته وجهده لان يسير وأترابه وزملاؤه في طريق واحد ، طريق اعادة بناء الجيش الذي صدعته الانقلابات العسكرية ، وأنهكته الديكتاتوريات الفردية ، لينتقل بعد ذلك مع القوات المسلحة الى طريق آخر ، لابد من سلوكه لكل عسكري يعتزم أداء واجبه كاملا نحو وطنه ، خاصة اذا ما كانت أقدام الغزاة تطأ أرض هذا الوطن ، ألا وهو طريق الحرب والقتال ، الطريق الموصل وحده الى النصر ، فمن سقط فيه كان شهيدا ، ومن ظل على قيد الحياة وجبت عليه مواصلة السير فيه الى نهايته •

وكان بين الخطيبين السعيدين ، وهما في زهوة العمر يتألقان في شبابهما ، وكأنهما زهرتان من أزهار الربيع ، اتفاق على أن يلتقيا صباح اليوم التالي ، في صيدا ، المدينة اللبنانية الطيبة المعطاءة ، التي يفوح من بياراتها أريج أزهار البرتقال والليمون • فالى اللقاء غدا في المدينة الوادعة الهادئة المطلة على شاطيء البحر الابيض الصافي الجميل •

★ ★ ★

ولكن أجهزة الرصد في وطننا العربي هي دائما بالمرصاد ، لكل وطني صادق ، ولكل انسان أمين ، ترصد حركاته ، وتحصي أنفاسه• وقد توصلت تلك الاجهزة على ما يظهر لمعرفة عزم الضابط الكبير على قضاء عطلته الاسبوعية خارج بلده وبعيدا عن مركز عمله المضني

الشاق ؛ فلم تكد تمضي فترة قصيرة من الوقت ، الا ويجري اتصال هاتفي ، من نوع آخر .

ويجيب على الهاتف أحد أفراد أسرة الضابط ويسأل عن المتكلم ، فيأتي الجواب من الجهة الثانية من الخط الهاتفي : « السفارة المصرية يا افندم .. نريد التكلم مع رئيس الشعبة الثالثة » .

فيهرع الضابط السوري لتلقي المخابرة ، ويحسب أن هناك مسألة هامة ومستعجلة يريد المسؤولون في السفارة بحثها معه .

وبعد تبادل التحيات والاشواق ، يسأل المتكلم المصري مخاطبه السوري أين سيمضي عطلته الاسبوعية ، غدا الجمعة ؛ فيأتي الجواب: « في صيدا ان شاء الله ، وسأتوجه اليها صباحا باكرا ولن أعود الى دمشق الا في المساء » .

يعلق المتكلم بلهجته المصرية المحببة : « لا يافندم ، مايصحش نسافر بدري وتسيبنا لوحدنا ، وسيادتك عارف بأن فريق السواحل المصري سيلتقي غدا مع فريقكم العسكري في مباراة لكرة القدم ، تجري على أرض الملعب البلدي » .

ويجيب الضابط السوري : « لكن ياباشا ( وهذه كلمة اعتاد الضابط استعمالها لدى مخاطبة أي من زملائه أو أصدقائه ) أنا عندي موعد مع خطيبتي ، وقد اتصلت بها لتوي ، واتفقت معها على اللقاء غدا في صيدا » .

ويأتي الرد سريعا : « معليش يافندم ، انت حتلغي الموعد ، وحتلبي دعوتنا ، لانه ما يصحش تجري المباراة بين الفريقين العربيين وتكون سيادتك غايب . واحنا ما زلنا فاكرين حضورك مباراةفريقكم العسكري مع الفريق التركي ، وازاي ألهبت حماس الجمهور الدمشقي والفريق السوري . فلازم تعمل كده تاني في المباراة معانا » .

يحاول الضابط السوري الاعتذار ولكن دون جدوى ؛ وأمام اصرار مخاطبه المصري ، يعد بحضور المباراة في اليوم التالي •

★ ★ ★

في صباح يوم الجمعة في ٢٢ نيسان ( ابريل ) ١٩٥٥ يتصل الخطيب بخطيبته ، معتذرا عن اضطراره لالغاء الموعد معها • وفي اليوم نفسه يتوجه أفراد أسرته جميعا ، فيما عداه هو ووالديه المسنين ، الى منطقة الحمة المتاخمة للاراضي الفلسطينية ، والمشهورة بمياهها المعدنية • ويقضي الضابط سحابة النهار في داره ، حيث يستقبل بعض زائريه ، وينكب بعد ذلك على دراسة أوراق كان أرسلها له من سويسرا ضابط سوري مخلص ، تبين فيما بعد أنه الملازم الاول زياد الحكيم ، وهي تشير الى التلاعب الخطير الجاري من قبل رئاسة الاركان العامة في شراء بعض الاسلحة الفاسدة من معامل الاسلحة السويسرية والفرنسية ، ومن مخلفات جيوش الحلفاء •

وفي تمام الساعة الرابعة والعشرين دقيقة ، وبينما كان أفراد أسرة الضابط يجلسون على ضفة نهر اليرموك ، تنتشي صدورهم بشذى رياحين الربيع ، وتكتحل عيونهم بمنظر المياه الهادرة في الوادي الضيق الجميل ، وهضاب فلسطين وسورية والاردن تعانقه من كل جانب وكأنها تخشى عليه من أن تمتد اليه يد العدوان وتغتصب الاراضي المحيطة به وتسلب منها مياهه ، اذا بالمحامي ، شقيق الضابط ورفيقه في الصبا وفي المدرسة ، وفي السجن ، يشعر بانقباض شديد في صدره ، ويطلب من أهله التأهب للعودة فورا الى دمشق • يحتج الجميع بأن الوقت مازال مبكرا ، وأنهم يفضلون البقاء في مكانهم ، ليتمتعوا بمنظر غروب الشمس عن تلك البقعة الجميلة المقدسة من أرض وطنهم • ولكن الاخ يصر على العودة فورا لانه لم يعد يطيق البقاء في هذا المكان ولا لحظة واحدة ، ودون أن يتمكن من تعليل هذا الشعور الطارىء الغريب • ينهض أفراد الاسرة على مضض ،

ويأخذ الجميع طريق العودة بسيارتهم . ولكن لم تكد المركبة تبدأ في الصعود وببطء شديد ، على الطريق الجبلية الملتوية والشديدة الانحدار ، حتى يوقفها حرس أحد المخافر الامامية ، ويأتي ضابط شاب برتبة ملازم ، ويهمس في أذن المحامي بضرورة الاسراع بالعودة الى دمشق ، كما أبلغه ذلك قائد الجبهة الموجود حاليا في القنيطرة ، ودون أن يوضح السبب . ولدى الوصول الى مقر القيادة في القنيطرة يلتقي المحامي بقائد الجبهة العقيد نوفل شحم الذي كان ينتظره على باب مقر القيادة ، فيتلقى منه الخبر المذهل بأن أخاه أصيب بجراح بليغة بسبب اطلاق النار عليه في الملعب البلدي ، وأنه موجود حاليا في المستشفى العسكري . لقد ابلغ القائد شقيق زميله نصف الحقيقة، وأخفى عنه النصف الباقي والاكثر سوءا ، تفاديا لهول الصدمة .

★ ★ ★

وتسير السيارة منطلقة الى دمشق بسرعة فائقة ، ويدخل المحامي الى المستشفى راكضا بعد أن يبعث بباقي أفراد أسرته الى الدار . وفي احدى قاعات المستشفى يشاهد جثمان أخيه مسجى ضمن نعش ملفوف بعلم بلاده ، وهو الراية التي كان الضابط الشهيد استلمها، قبل تسع سنوات ، من يد رئيس جمهورية بلاده ، وأقسم على أن يحميها بروحه ودمه ، وهو ذا قد بر بعهده ووفى بقسمه ، وهاهم بعض زملائه من رفاق دورته في الكلية العسكرية يقفون بألبستهم الرسمية ، وقفة استعداد شاهرين سيوفهم ، حول جثمان زميلهم الذي رافقوه في بعض ساحات القتال حيث قاتلوا معه بشجاعة فائقة، وجنبا الى جنب ، يوم خاض الجيش العربي السوري معاركه الباسلة ضد قوى العدوان الصهيوني عام ١٩٤٨ .

كانت برودة الموت تسيطر على كل من في القاعة وما فيهـا . ويبقى العلم الوطني مزهوا بالجسد الحار الجاثم بين طياته وتحت

ألوانه الزاهية ، والسيوف البيضاء مشرعة من فوق النعش ، تمسك بها بحزم قبضات أصحابها الضباط الشرفاء ؛ وهي كانت على موعد لتعانق بعضها بعد أيام قليلة ليمر من تحت قنطرتها المعدنية اللامعة موكب العروسين الشابين ، الضابط الشجاع وخطيبته المثقفة • ولكن واحسرتاه على تلك السيوف ، وعلى عيون أصحابها الممتلئة غيظا وغضبا ! انها لن تفرح بذلك المشهد الموعود ، بل انها ستمضي في الغد لتشييع الفارس الشهيد الذي سيزف الى السماء ، حيث مثوى الصالحين والشهداء ، من دون عروسه الحزينة التي ستبقى على الارض لتعاني مما جنته يد الغدر والخيانة •

ألا ما أظلم الانسان لاخيه الانسان !••

ويستعرض الاخ المحامي ، بينه وبين نفسه ، الشريط النضالي الطويل لمسيرة شعبه ، ودرب الكفاح البطولي الذي سار عليه أخوه وقد سفكوا دمه بخسة ونذالة • ويتذكر أحداث الايام الاخيرة المتسارعة ، والمخابرة المشؤومة الواردة من السفارة المصرية ، والتي دفعت الامور في هذا المجرى الدامي الخطير ويقول : « لقد فعلتها الولايات المتحدة الاميركية اذن ، ونفذت تهديدها الذي أبلغته للضابط الشجاع والانسان الوطني قبل أيام قلائل زوجة الملحق العسكري الامريكي لدى سفارة الولايات المتحدة الامريكية في دمشق وبشكل نصح رقيق ، عندما أعلمته أن هناك خطرا يحدق بحياته ، وأنها ترى من مصلحته أن يغادر البلاد هو وعروسه • »

كانت دعوة صريحة للهرب من ساحة الكفاح الوطني • ولكن الابطال لا يهربون من معارك قومهم ، حذرا من الخطر ، وخشية من الموت •

هكذا تعلم عدنان من أبيه الصادق الامين ؛ وهذا ما علمه البطل

الشهيد يوسف العظمة لجميع أبناء وطنه ، عندما قدم نفسه قربانا خالصا ، ومحا بدمه الطاهر الزكي ، عار الهزيمة التي جرها الخونة والمتخاذلون على أرضهم ، عندما داهمتها جحافل فرنسا بقيادة الجنرال غورو •

لقد صمم عدنان على البقاء في ساحة المعركة ، وكان عارفا سلفا أنه سيدفع حياته ثمنا لتصميمه وصموده •

وهاهم الخونة ، المتلبس بعضهم بلباس الصداقة والعقيدة ، يستدرجونه بخسة ومكر ، الى الملعب البلدي ، لا ليشهد المباراة الرياضية في كرة القدم ، ويزكي حماس جمهور هواة هذهاللعبة المحببة لنفوس أبناء مدينته ، بل ليشهد الجمهور الكبير المحتشد في ذاك المكان الرحب الفسيح ، مصرع الوطني الغيور على بلده ، والمتحمس لقضايا شعبه ، والمتفاني في خدمة وطنه ، وليعطوا المواطنين درسا علنيا في كيف تكون خاتمة الحماس والاندفاع في خدمة الوطن ، ويطفئوا بذلك الشعلة الوطنية المتأججة في نفوس المواطنين •

ألا بئس ما بيته الخونة الجبناء ، وتبت يدا المعتدي الاثيم !•

ويعود المحامي الى داره ، حزينا ، كسير الخاطر ، مشطور الفؤاد • وهناك يجد أبويه وأخواته ، والاهل والجيران والاصدقاء من حولهم ، في مشهد مفجع أليم • فيتجلد ويتحامل على نفسه ويقبل على الام الثكلى المتفجعة ، والاخوات المنتحبات بعد أن يبعد الناس من حولهن ، ويشرع بتهدئتهن ، ولكنه لا ينجح في ذلك ، الا بعد أن يقسم لهن بأنه ذهب بنفسه الى المستشفى ووجد عدنانا حيا لم يمت ، ولم يكن ، في الحقيقة الا صادقا في قوله لان أخاه قد سقط شهيدا في ساحة الكفاح والواجب ، والشهيد في عقيدتنا وديننا حي خالد أبدا •

★ ★ ★

ويأتي يوم الغد ، وتسير الجنازة في موكب عسكري رسمي وشعبي كبير يتقدمه رجال الدولة الرسميون ويحتشد فيه الالوف من أبناء شعبنا الطيب المجاهد • ينتقل الموكب أولا بواسطة السيارات من المستشفى العسكري في المزة الى مدخل سوق الحميدية في آخر شارع النصر ، ثم يتابع القوم السير على الاقدام حتى المسجد الاموي، حيث يصلى على الجثمان الطاهر ، ثم يخرج المشيعون ، في مسيرة مهيبة ، صامتة ، وراء النعش وحمله الغالي ، ويمضي الموكب عبر شوارع دمشق الممتدة حتى يصل الى مدفن الاسرة في حي المهاجرين، بعد أن يمر الجميع والنعش المحمول على عربة المدفع من أمام منزل الشهيد ليلقي أهله عليه نظرة الوداع ، قبل أن يوارى الثرى •

★ ★ ★

يجري في القضية تحقيق قضائي ، بطيء ومتشعب ، يتناول عددا كبيرا من أعضاء الحزب القومي السوري ، وقد أقدم فريق من أعضائه الكبار ، على التخطيط للجريمة الخيانـة وورطوا الاعضاء الصغار بتنفيذها • ومن ثم تجري محاكمة علنية أمام محكمة عسكرية خاصة ، وتنشر وقائع جلسات المحاكمة في الصحف والاذاعة •

كان بود أهل الشهيد أن لا يحضروا المحاكمة مودعين فقيدهم في ذمة الوطن وتاركين جريمة قتله في ذمة القضاء ، ولكن ضغط الرأي العام وتطوع عدد كبير من المحامين السوريين واللبنانيين لتبني القضية الكبرى العالقة أمام القضاء ، باعتبارها قضية وطنية ، لا قضيـة شخصية ، حملني على الاقتناع بضرورة متابعة الدعوى ، بعد موافقة والدي، ذي الواحد والثمانين عاما ، والذي هدت الفاجعة قـواه الجسدية دون أن تؤثر على قدرته الفائقة على التمييز والمحاكمة •

كنت وأنا الاخ المفجوع بفقد أخيه أحرص على أن تمثل جهة

الدفاع في الدعوى أشد من حرصي على تمثيل جهة الادعاء الشخصي• ولذلك فاني لم أعارض أبدا ولم أتبرم من تولي زملاء لي ، جلهم من أصدقائي الشخصيين ، مهمة الدفاع عن المتهمين • وقد شجعت بنفسي المحامي الجنائي الشهير الاستاذ هاني البيطار على القيام بهذا الواجب المقدس ، عندما عرضت عليه وكالة بعض هؤلاء المتهمين • أليست الغاية من الدعوى كلها ، اظهار الحقيقة واتباع طريق الحق الذي كافح عدنان ومات من أجله ؟ •

ولذلك عندما عمد محامو جهة الدفاع اللبنانيون الى الانسحاب من الدعوى ، في سياق حملة دعائية ضخمة تولت القيام بها الصحف اللبنانية الموالية لخطهم واتجاههم السياسي ، في محاولة للضغط على المحكمة ، سعيت لدى نقابة المحامين وكان يتولى رئاستها آنئذ المحامي الكبير الاستاذ ظافر القاسمي ، لعقد اجتماع مشترك مع الزملاء اللبنانيين ، في مقر النقابة لبحث شكواهم • وفي ذلك الاجتماع أبديت لهم استعدادي للتضامن معهم والانسحاب من المحاكمة مع جميع وكلاء الادعاء الشخصي الكثيرين ، فيما اذا صحت أسباب الشكوى • وبنتيجة المداولة ، عاد وكلاء الطرفين لمتابعة أداء واجبهم أمام ذات المحكمة حتى نهاية المحاكمة ، وصدر الحكم في النتيجة قاضيا بتجريم بعض المتهمين وادانتهم بالاشتراك في ارتكاب جريمة الاغتيال وبتبرئة البعض الآخر ، كما أدين البعض بجرائم أخرى لها صلة بنشاطات أعضاء الحزب القومي السوري ، الذين جنى عليهم قادتهم ، يوم قلبوا الحزب من مدرسة سياسية لها عقيدتها ، وفكرها ، ونشاطها السياسي العلني ، تعكسه صحفها ونشراتها ، الى وكر للخيانة ، مسخر لخدمة مخططات الاستعمار الغربي والى عصابة للاجرام ، ولغت أيادي بعض أفرادها بدم انسان وطني كان يعلق عليه وطنه وشعبه أعظم الآمال ، كل ذلك بتدبير وتحريض من رئيس

الحزب المجرم الفار جورج عبد المسيح ، الذي خان حزبه ، كما خان وطنه ، عندما أخذ على عاتقه هو وشركاؤه من أقطاب الحزب ، ومن الاغرار من قواعده تنفيذ جريمة كبرى ، لم يذهب ضحيتها أخي الشهيد عدنان وحده ، بل كان من حصادها القضاء على الحزب الذي أولاهم زعامته وثقته ، وطعن البلد العربي الذي فتح للخائن عبد المسيح دياره ليقبله فيها لاجئا سياسيا ، يوم فر من لبنان والتجأ الى سورية ، هربا من حكم بالاعدام صادر بحقه عن احدى المحاكم اللبنانيــة •

ان الاحكام التي تتابع صدورها ، بحق هذا المجرم الخطير والخائن الحقير ، لم تصدر عن القضاءين اللبناني والسوري وحدهما، بل ان هناك حكما يعتبر أهم من تلك الاحكام جميعها ، هو الذي صدر ، عام ١٩٥٧ ، عن محكمة حزبية ، شكلها الحــزب القومــي السوري في لبنان ، فقضت بعد عقد جلساتها السرية ، بعيدا عن ضغط الرأي العام ، وعن حملات الدعاية الصحفية ، بادانة المجرم جورج عبد المسيح بتزعم العصابة التي أقدمت على ارتكاب جريمة اغتيال الرجل الوطني البطل الشهيد عدنان المالكي •

لم ترتكب الجريمة لصالح الحزب الذي خدع أعضاؤه بسراب السلطة ، وقد أوهموهم بأنهم أصبحوا قاب قوسين أو أدنى مــن أبوابها ، وان العقبة الكأداء والعثرة القوية في طريق وصولهم اليها، هو شخص عدنان • بل انما خططت الجريمة بدقة من قبل دوائــر المخابرات الاستعمارية ، وقد هيأ الجو لارتكابها ، وفي وضح النهار، خونة وعملاء كان بعضهم يحتل مركز السلطة أو القيادة العسكرية هنا في دمشق ، وكان البعض الآخر يحتل مكان الزعامة والصدارة في بعض الاقطار العربية •

ولذلك سهل على زعيم العصابة وشركائه الكبار الهرب مــن

قبضة العدالة ، وقد تولت حمايتهم في لبنان ذاته ، حيث كانت تنتظر بعضهم أحكام جنائية قاسية ، صادرة عن القضاء اللبناني ذاته ، دول وسفارات من بينها من كان يرفرف على مبانيها العلم العربي •

★ ★ ★

بعد انتهاء محاكمة القتلة أمام المحكمة العسكرية ، واثر المرافعة التي ألقيتها وانتقدت فيها تصرفات القيادة العسكرية التي ساعدت على ارتكاب الجريمة الشنعاء ، زارني في داري الضابط السابق النقيب برهان أدهم ، وبعد أن عبر لي عن شعوره الخاص ازاء الحادث المفجع الذي أودى بحياة أخي ، روى لي طرفا مما كان يجري من تآمر في الخفاء ، وصرح بأن المتآمرين حاولوا استدراجه للاشتراك معهم في نشاطهم ، ظنا منهم بأن كونه من أنصار عهد الشيشكلي قد جعل منه عنصرا موتورا ضد العهد الديمقراطي الذي نشأ في البلاد بعد سقوط الحكم الديكتاتوري السابق • وقال لي السيد أدهم أنه في سياق ذاك النشاط ، قد حضر الاجتماع الذي عقد في دار المقدم حسين الحكيم بحضور عدد من المتآمرين كان من بينهم بعض العسكريين ومن جملتهم المقدم غسان جديد ، وذكر أنه كان من المتفق عليه أن يحضر معهم رئيس الاركان العامة الزعيم ( العميد ) شوكة شقير بنفسه ، وان المجتمعين كانوا على اتصال به في داره أثناء الاجتماع • والطريف أن رئيس الاركان العامة كان أدلى بافادته ، كشاهد أمام المحكمة العسكرية بعد أن حلف اليمين القانونية ، وذكر أن رئيس الشعبة الثانية كان أطلعه على نص المكالمة الهاتفية التي جرت بين دمشق وحمص ، والتي ورد فيها أن اجتماعا سيعقد في دمشق ، في دار السيد حسن الحكيم ، وأنه أصدر أمره اليه بأن تقوم مفرزة من رجال الشعبة الثانية بمراقبة دار السيد الحكيم ، وهو رئيس وزراء سابق معروف باتجاهه اليميني المحافظ والذي هو في

الحقيقة عنصر وطني صادق لا يرقى الى اخلاصه الشك ولا يمكن أن يكون محل شبهة •

لقد استفاد الآمر الاعلى من الالتباس الحاصل بين الاسمين ، حسن وحسين ، ليبعد أنظار الشعبة الثانية عن المكان الحقيقي الذي سيعقد المتآمرون فيه اجتماعهم ؛ وربما كانت لمكالمة رئيس الشعبة الثانية معه الاثر القاطع في عدم حضوره الاجتماع الموعود • فاذا صحت الرواية التي رواها الضابط برهان أدهم ، ولا أظنه الا صادقا فيها ، ألا يحق بعدها القول بأن « حاميها كان حراميها » •

لقد كان عدنان يردد في سجنه وفي رسائله التي كان يبعث بها من المعتقل الى والدته قول الشاعر الكبير الاستاذ عمر أبو ريشة :

لا يلام الذئب في عدوانه      ان يك الراعي عدو الغنم

★ ★ ★

لقد نشأنا على خطة لم نحد عنها في كل مراحل حياتنا ، وهي تقوم على مجاهرتنا بقول الحقيقة ، بكل صراحة ووضوح ، وبدون خوف أو مواربة ، نقول الحق ولو على أنفسنا ولا نخشى في ذلك لومة لائم •

قلتها مرارا وتكرارا في وجه رئيس الاركان العامة ، ولا هدف لي سوى اعلان الحقيقة • قلتها له يوم اغتيال عدنان بالذات ، عندما أتى الى دارنا معزيا على رأس وفد كبير من كبار ضباط الجيش ، ومن بينهم معاونه الزعيم توفيق نظام الدين ، قلتها له بحضورهم :

ــ أتدري من قتل عدنان ؟

وكأنه أدرك أني أعرف ما يجول في نفسه ، فلم يحر جوابا • فتابعت كلامي قائلا : « انك أنت الذي قتلته بأساليبك ومناوراتك •

أنت تعلم أكثر من غيرك أن البلاد تخوض معركة من أخطر معاركها ضد أعدائها ، وأن مثل هذه المعركة تتطلب السير في طريق واحد ، طريق تعبئة جميع القوى والامكانات لمجابهة أولئك الاعداء ، ولكنك اخترت أنت وفي جو المعركة الضارية التي يخوضها شعبنا طريق اللعب على الحبال وساهمت في تمزيق وحدة الصف في الجيش الذي يعده الشعب للقتال ، وكان من حصاد هذه اللعبة ، قتل عدنان . »

قلتها ثانية أثناء المحاكمة التي جرت أمام المحكمة العسكرية المشكلة لمحاكمة القتلة المجرمين .

قلتها مرة ثالثة في قضية الرشوة واختلاس أموال الجيش التي أحيل بموجبها رئيس المحاسبة في الجيش المقدم أحمد قصيباتي الى المحكمة العرفية ، تلك القضية التي عبرت عن خطرها وبشاعتها الفقرة الاولى من مطالعة النيابة العامة العرفية وقد ورد فيها :

« في الفترة التي كان بها الجيش السوري أحوج ما يكون الى المؤازرة والدعم ، الى القوة والسلاح ، الى المال والرجال ، ليتمكن من مجابهة العدو الذي أخذ يتسلح ويتقوى بما يقدمه له الامريكان من سلاح ومال ، في هذه اللحظة العصيبة نرى فئة من الاشخاص أصحاب النفوس الضعيفة يتآمرون على الجيش بسرقة أمواله ، أمواله التي جمعها من فقراء الشعب . فكم من رجل لا يملك سوى قوته اليومي تبرع به لجيشه الذي أخذ على عاتقه الدفاع عنه والذود عن حياضه ، وكم من امرأة ادخرت لايامها السوداء قطعة حلي لاتملك غيرها تسرع والدمعة في عينيها فرحا تقدم ما ادخرته ، وكم من طفل حمل حافظة نقوده وقدمها هبة ليزيد من قوة جيشه .

لقد أخذت هذه الفئة على عاتقها اضعاف الجيش ماديا ومعنويا باختلاس أمواله بشتى الوسائل . » .

هذا ما استهل به ممثل النيابة العامة كلامه في تلك القضية الخطيرة ، ولكن للنائب العام حدودا مرسومة لم يكن ليستطيع تجاوزها أو الانطلاق بعيدا عن نطاقها المحدد في قرار الاتهام ، أو في أمر الملاحقة الصادر عن رئيس الاركان العامة ذاته . لذلك فقد حصر مطالبته بالمتهمين الواقفين في قفص الاتهام من دون غيرهم من الشركاء والمتدخلين .

ولكن اذا كان قلم النائب العام أسيرا مقيدا ، فان لسان المحامي وقلمه طليقان من أي قيد ، اذا كان هدفه الدفاع عن الحق المطلق والكشف عن الحقيقة المجردة . لذلك وبدافع من الحرص على تحقيق هذا الهدف ، سلطت الاضواء في تلك القضية على الدور المريب الذي لعبه ذاك المسؤول الاول في قيادة الجيش لطمس معالم الجرائم التي ارتكبها المتهمون في سواد الظلام وكان رئيسهم مطلعا عليها ، وذلك في المذكرة التي اشتركت في اعدادها مع بعض الزملاء دفاعا عن المخبر الرئيسي في الدعوى ، وهو لبناني الاصل وايطالي الجنسية ، وهو الذي فضح جرائم المتهمين وأعلمنا باشتراك رئيس الاركان العامة معهم في صفقاتهم وتلاعبهم .

كان لا بد من المجاهرة بهذه الحقيقة على الملأ ، لتطوى بعد ذلك من تاريخ الجيش السوري ، صحيفة سوداء قاتمة ، عندما نحي ذاك المسؤول الكبير عن مركزه الخطير الذي استغله لتمزيق وحدة جيشه ، وغرس بذور الانقسام بين ضباطه ، واثارة بعضهم ضد البعض الآخر ، في خطة خبيثة ترمي الى تحقيق أهداف العدو الذي يبني استراتيجيته الكاملة على أساس انهاك العرب بخلافاتهم الداخلية واضعاف قدراتهم القتالية .

لقد جاء ذاك الرجل الى سورية بصفة مقاتل مندس في جيش الانقاذ ، فأودعت اليه وفي غفلة من الشعب وعلى يد ديكتاتور خائن،

أغلى أمانة ، وهي قيادة جيشنا ، في أحلك ظرف تمر به الامة العربية، فخان الامانة ، وكان بحد ذاته طابورا خامسا لعب دورا ستكشف الايام عن أنه كان من الوسائل المباشرة التي مهدت بها دوائر المخابرات المعادية السبيل لاضعاف قدرة جيشنا على القتال •

ولم يستغرب العالمون بحقيقة هذا الرجل المارق ، الخبر المذهل الذي أذاعته وكالة الانباء الليبية بعد نكسة حزيران ( يونيو ) ١٩٦٧، وفضحت بموجبه سفره الى العاصمة الايطالية للالتقاء بممثلين عن دولة العصابات الصهيونية وبحث المراحل المقبلة لمخططهم العدواني وسياستهم التوسعية الرامية الى اعادة تخطيط دول المنطقة واقامة دويلات طائفية صغيرة تشكل حزام أمان لحماية كيان اسرائيل وأمنها واستقرارها •

ولكن خسىء جميع المتآمرين في الظلام ، فان حلم الصهاينة سيتحطم على صخرة كفاح شعبنا ولن يكتب لدولتهم البقاء والاستقرار ، وستفشل سياستهم وخططهم الرامية الى تمزيق سورية الى دويلات طائفية • فقد كان لابناء الطوائف السورية شرف تحطيم تلك الخطط ، وساهموا مع جماهير شعبنا الواسعة باحباط تلك السياسة الاستعمارية الفاشلة أيام الاحتلال الفرنسي •

فكما حطم أبناء جبل العرب الاشم ببسالتهم ووطنيتهم ، حملات الجيش الفرنسي الواحدة تلو الاخرى ، كذلك فعلوا بالنسبة للسياسة التي فصلت محافظتهم الباسلة عن باقي أجزاء الوطن • وهكذا سيفعلون وهم متحلون بابائهم العربي ، ووطنيتهم الصادقة ، بالنسبة لكل مخطط يناهض أهدافهم القومية في الوحدة الشاملة والتحرر الكامل •

ولن تشذ من حيث النتيجة عن هذا الخط الوطني أية

طائفة أو فئة من أبناء شعبنا ، وستبوء جميع المشاريع الاستعمارية والخطط الصهيونية بالفشل الذريع .

* * *

تذكرت بعد حديث الضابط السيد برهان أدهم ، يوم أن زارني في مكتبي صديق لي في أوائل عام ١٩٥٥ ، وأطلعني على الاثر السيء الذي تركه تسريح المقدم غسان جديد من الجيش في الاوساط السياسية موضحا أن النقمة في تلك الاوساط منصبة في الدرجة الاولى على أخي عدنان الذي كانت تعزى اليه جميع الاجراءات التي تقوم بها القيادة العسكرية . ولخلو ذهني من أية فكرة حول موضوع تسريح الضابط الموما اليه ، لم أعلق على كلام صديقي بشيء . ولدى العودة الى الدار اجتمعت بعدنان وسألته عن قصة ذاك الضابط المسرح بعد أن ذكرت ما سمعت عن الضجة التي سببها تسريحه ، فقال لي : « ان هذا الشخص حقير ولا يستحق أدنى اهتمام ، والضجة التي تتحدث عنها ليست الا مصطنعة ، وهي بالتأكيد ليست ناتجة عن الغيرة على مصالح الجيش وقضايا الوطن ، بل انما هي جزء من التآمر الجاري على الجيش والبلاد معا ، ولا تستغرب اذا قلت لك ان قرار التسريح الصادر يستهدف التآمر علي أنا أكثر مما يستهدف وضع هذا الضابط بالذات » . كان يحدثني بمرارة وألم واضحين ، وقد أوضح لي كيف أن اضبارة الضابط عرضت على المجلس العسكري الذي كان أخي عضوا فيه ، مع اقتراح بتسريحه نظرا لما كانت تعج به مستندات تلك الاضبارة من ارتكابات وفضائح كان أقلها النصب والاحتيال والاختلاس ناهيك عن النشاط التخريبي الذي كان يقوم به بالتعاون مع بعض الفئات المتآمرة على سلامة البلاد . وقد أكد لي أخي أنه كان معارضا فكرة التسريح كل المعارضة لسببين : الاول من حيث المبدأ ، لان أخي كان يرى في التسريح الكيفي سيفا ذا

حدين ، وقد سبق أن أصيب به هو وبعض زملائه من ضباط الجيش خلال عهد الشيشكلي ؛ والثاني لانه كان يرى سلفا أن تسريح الضابط جديد سيجعل منه ضحية في نظر الاوساط السياسية التي يهمها الاصطياد في الماء العكر ؛ وقد أكد لي أنه بنتيجة معارضته الشديدة لفكرة تسريح ذاك الضابط بالذات واصراره على أن القضاء وحده هو المرجع الوحيد لمحاسبة المواطنين ، مدنيين وعسكريين ، على أخطائهم ، جرى طي البحث من جدول الاعمال في تلك الجلسة ، وأن المفاجأة الكبرى بالنسبة له كانت لدى اطلاعه بعدئذ على قرار التسريح موقعا من كل من رئيس الجمهورية ووزير الدفاع ورئيس الاركان العامة .

★ ★ ★

ان تسريح الضابط غسان جديد من الجيش دون احالته الى القضاء كان في الواقع جزءا من مؤامرة كبرى ، حيكت في الظلام ، وكان الهدف منها القضاء على الجيش ووحدة ضباطه ، بازكاء نار الخلافات بينهم ، واعطاء الفرصة للقوى والعناصر المعادية للشعب ، بأن تلعب لعبتها وتمارس دورها في ضرب القوى والعناصر الوطنية وفي اضعاف قدرة الشعب على مجابهة الاخطار التي تهدد كيانه ومستقبله ، وتحول بينه وبين تحقيق أهدافه . وقد اتضحت لي بعد حادث الاغتيال المشؤوم بعض أبعاد تلك المؤامرة وادوار بعض عناصرها ، عندما روى لي السيد محمود صافي ، وكان يؤدي خدمته العسكرية سابقا تحت امرة أخي ، نقلا عن عسكري مقرب من شخص رئيس الاركان العامة ، عن المقابلة التي أجراها وفد من قادة الحزب القومي السوري مع رئيس الاركان للاحتجاج ضد تسريح « ضابط فذ » وركن خطير من أركان حركتهم ؛ فقد تنصل رئيس الاركان من مسؤولية القرار الذي صدر مقترنا بتوقيعه الذاتي دون أن يفوته

طبعا احالة تلك المسؤولية على الضابط الذي كان بزعمه هو المسيطر في الجيش والقيادة ، وهو عدنان المالكي •

وبعد ذلك وعندما شرع باجراء محاكمة القتلة ، اتضح بما لا يدع أي مجال للشك أن تسريح غسان جديد ، كان حلقة من حلقات مؤامرة الاغتيال ، وأنه كان الشرارة التي أولعوا بها النار في دماغ القاتل الاداة يونس عبد الرحيم ، وكان يهيأ منذ أشهر لتنفيذ جريمة الاغتيال ، وكان الحافز القوي الذي حمله على الاقتناع بضرورة ارتكابها هو تسريح معتمد الحزب الذي كان القاتل مهووسا بمبادئه •

وعندما سئل الشاهد رئيس الاركان العامة عن علاقة رئيس الشعبة الثالثة العقيد عدنان المالكي بتسريح المتهم غسان جديد ، نفى أن تكون له أدنى علاقة بهذا التسريح ، وعل صدقه في شهادته في هذه الناحية كان ناتجا هذه المرة عن تذكره بأنه أقسم اليمين أمام المحكمة بأن يقول الحقيقة أو خوفه من افتضاح أمره بين أعضاء مجلس الدفاع ، فجاء قوله الصادق هنا مخالفا لما كان سمعه منه وفد القوميين السوريين لدى مراجعتهم له قبيل اقدام زمرة من حزبهم على ارتكاب جريمة الاغتيال •

* * *

وبعد صدور الاحكام بمدة ، جاءني السيد حسن حسامي وهو شاب عامي ، يتحمس للقضايا الوطنية ، ولمن يعتقد فيهم الاخلاص لهذه القضايا ، طالبا رأيي في مسألة على غاية تامة من الاهمية والخطورة وهي تتعلق باستعداده لقتل المجرم الفار غسان جديد المحكوم عليه بالاعدام غيابيا من قبل المحكمة العسكرية لتحريضه على جريمة اغتيال أخي • ولما سألته عن قصده من ذلك ، أجابني : « الثأر لدم رجل وطني قتل ظلما وعدوانا » • فظننت بادىء الامر أن الزائر ، معحسن

ظني به دائما ، يريد ارضائي بالكلام والعواطف . وقلت له : « ان هذا المجرم محكوم عليه بموجب حكم قضائي ، وهناك مذكرة استرداد صادرة بحقه عن السلطات السورية وموجهة الى السلطات اللبنانية ، فان كنت حقا راغبا في خدمة العدالة ، وقادرا على الوصول الى هذا المجرم العاتي ، للدلالة على مكان وجوده بغية تمكين السلطات العامة السورية واللبنانية من القاء القبض عليه ، فأنا مستعد ، وبالتعاون مع هذه السلطات لمؤازرتك في الامر ، وتأمين ما تحتاجه في سبيل ذلك من مساعدة » . فأجابني : « أنا قصدتك لاخذ موافقتك على القتل ، فان وافقت ، سآتيك برأسه ضمن سلة وأضعه أمام قدميك ؛ وأنا لا أريد في سبيل ذلك لا مالا ولا أية مساعدة » . وتجاه رفضي للطريقة المقترحة وتمسكي برأيي بأن القاء القبض على الجاني المجرم المحكوم عليه والمطلوب للعدالة هو السبيل الوحيد لارضاء قناعتي ، صارحني بأن القتل أسهل عليه ، لان هناك من سيساعده على القيام بتنفيذه ؛ ولم يكتم عني أن فكرة القتل ليست فكرته ، وان كان يحبذها هو انتقاما لروح عدنان ، وان الخطة مدبرة ومرسومة في لبنان ، وسيشترك في تنفيذها الرجال المكلفون بحراسة الشخص المقصود من جماعة القوميين السوريين أنفسهم ، وأن بعضهم فاتحه في الامر عندما كان في بيروت التي يتردد عليها ، بين حين وآخر ، بحكم عمله ووعده بأنه سيجزى على تولي عملية الذبح بمكافأة نقدية سخية ان عمل على تنفيذ الخطة المرسومة له . ونظرا لعدم اقتناعي بالفكرة أصلا ، نهيته عن التورط في مثل هذه الامور لما قد تجره عليه شخصيا من آثار سيئة ، وعلى القضية التي نكافح من أجلها والتي ذهب عدنان ضحية اخلاصه لها .

وكنت ، بيني وبين نفسي ، على شك من صحة الخطة البوليسية التي سمعتها من فم انسان لم أكن لاشك في صدقه واخلاصه في

يوم من الايام ، ولكني خشيت أن يكون واقعا تحت تأثير شبكة جديدة من شبكات التخريب ؛ ولم أستطع تقدير المراد من حبك تلك القصة التي كانت في نظري آنئذ أقرب الى الخيال • وقد انصرف السيد حسامي مقتنعا بالعزوف عن التفكير في مسألة القتل•

ولم تكد تمضي على ذلك الحديث أسابيع قليلة الا وطالعتنا أخبار الاذاعات ووكالات الانباء والصحف بخبر مصرع المجرم غسان جديد على يد بعض عناصر الشعبة الثانية السورية ، وقد لاحت في الافق وفي لحظة قتله اشارات استفهام عريضة حول علاقة العناصر التي كانت تتولى حراسة مقر جماعة القوميين السوريين من زمرة المجرم الفار جورج عبد المسيح بالحادث •

ولم يفت بعض الصحف اللبنانية النشيطة في تسقط الاخبار واستقصاء الحقائق ، الاشارة الى اليد الخفية التي امتدت الى سيارة القتيل لحظة اطلاق النار عليه لانتزاع حقيبة خاصة كان يحرص على حملها معه ليلا نهارا •

ولا أدري اذا كان المحقق اللبناني قد توصل لمعرفة هوية صاحب تلك اليد ومضمون تلك الحقيبة ، لان ما كان فيها من وثائق وأسرار وأموال ربما كان سيساعد على معرفة حقيقة الدوافع الكامنة وراء جريمة اغتيال أخي عدنان وعلاقة قتل المجرم غسان بجريمته السابقة، لقد جاء مصرع هذا الجاني ، بعد رفضنا لفكرة قتله ، مصداقا لقوله تعالى : « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل انه كان منصورا » •

★ ★ ★

كان حرصي مع أهلي شديدا ومنذ البداية على أن يأخذ العدل مجراه الطبيعي أمام القضاء ، كما كان حرصنا أشد على أن تصان

حقوق الدفاع للمتهمين كاملة غير منقوصة . وبعد هذا الحرص، كان علي أن أقف موقفا صارما من أية محاولة تستهدف افساد سير العدالة في أية مرحلة من مراحل القضية . وبعد أن صدرت الاحكام عن المحكمة العسكرية واستنفد المحكوم عليهم وسائلهم في الطعن بها لدى محكمة النقض ، وأضحت بعد ذلك قطعية وواجبة التنفيذ، تسربت الى الصحف أخبار عن المحاولات التي جرت لدى رئاسة الجمهورية للتشكيك في صحة تلك الاحكام تمهيدا لالغائها ، وكان بامكان السيد رئيس الجمهورية أن يمارس حقه الدستوري بالعفو أو بتخفيض الإحكام الصادرة بعد استطلاع رأي لجنة العفو حسب أحكام القانون والاصول . ولكن سيادته انساق وراء حملةالتشكيك المصطنعة ، وعمد الى تشكيل لجنة ادارية ، أراد أن يضعها فوق سلطة القضاء المستقلة ، لتمحيص الحكم الذي خضع قبلا لمراقبة محكمة النقض ، وقد نظرت فيه مرتين فقررت نقضه في المرة الاولى لعيب في الناحية القانونية ، وصدقته في المرة الثانية ، بعد أن تثبتت من سلامة الاجراءات الجارية أمام المحكمة ، ومن صحة التطبيق القانوني .

لقد كان رئيس الجمهورية السيد شكري القوتلي أحد المستفيدين من اغتيال أخي عدنان الذي كان يرى في عودة السيد القوتلي الى سدة الرئاسة ، وهو الذي وقع في عهده وبعد تجديد رئاسته الاولى الانقلاب العسكري الاول ، بادرة من بوادر الضعف الذي سينتاب النظام الديمقراطي البرلماني السائد في سورية ، بعد سقوط ديكتاتورية الشيشكلي ، وان ذلك الضعف سيؤدي من حيث النتيجة الى تكرار معزوفة الانقلابات العسكرية التي لن تكون حتما في مصلحة البلد ، لانها ستلهي الجيش عن القيام بواجبه الاساسي ، وهو الذود عن حياض الوطن والانصراف الكلي للتدريب الكثيف، والاستعداد القوي لخوض المعركة الحاسمة مع العدو .

ولذلك وجد السيد القوتلي أنه من الوفاء لمن شقوا أمامه طريق الرئاسة من جديد وللمرة الثالثة بعد الاستقلال ، وأزاحوا عثرة كبرى من طريق أحلامه ، أن يقف الى جانبهم بعد سقوطهم في قبضة العدالة ، ويحول دون نفاذ القصاص العادل الذي أنزل بهم ، والقاضي باعدام القتلة منفذي الجريمة ومحرضيهم الرئيسيين ، وان كان معظم هؤلاء المحرضين باستثناء واحد منهم قد لاذوا بالفرار خارج الحدود، اثر تنفيذ الجريمة النكراء •

فكان علي أن أجابه محاولة السيد رئيس الجمهورية بصراحة وجرأة ، لا حبا بالتشفي من القتلة ، ولكن بقصد احباط مسعى اعتبرته ، وبحق ، مظهرا من مظاهر الفساد في حياتنا العامة ، ودليلا قويا على ما سبق وهاجمت به الطبقة الحاكمة من جهة انتصارها للجريمة والمجرمين أكثر من حرصها على حماية المجتمع وأمنه وسلامته، من آثامهم وأخطارهم • فوجهت الى قصر الرئاسة في المهاجرين برقية، مؤرخة في ـــا ١٩٥٦/٨/٢٥ حذرت فيها من مغبة تشجيع الاغتيال ونددت فيها بالاساليب المتبعة لحماية القتلة الذين لم نكن في الحقيقة لنهتم كثيرا بتنفيذ عقوبة الاعدام فيهم لولا الطريقة التي سارت عليها الامور لدى أعلى مرجع في الدولة كان عليه أن يبقى حريصا على عدم تدخل أجهزة الادارة في مسألة كانت من صميم اختصاص القضاء (١) •

---

(١) نص البرقية : برقية رقم ١٥٦

تاريخ ـــا ١٩٥٦/٨/٢٥

**السيد شكري القوتلي ـ قصر الرئاسة ـ المهاجرين**

قتلة عدنان هم أحقر من أن نهتم بتنفيذ حكم الاعدام فيهم ، ولكن الاساليب التي تتبع لحمايتهم فيها مساس صريح بسلطة القضاء المستقلة وتحد صارخ لارادة الامة واستهتار بالغ بالمصلحة العامة وخدمة لمصالح الاستعمار .

وقد نشرت احدى الصحف الدمشقية نص البرقية ؛ فعقد في القصر الجمهوري اجتماع لبحث امكانية ملاحقة موجه البرقية وناشرها معا • وفي ذلك الاجتماع ، لاحظ بعض مستشاري السيد الرئيس أن البرقية بصيغتها الراهنة ، ليس فيها ، مع طابع الصراحة القاسية المسيطر عليها ، ما يمس شخص الرئيس بالذات ؛ وازاء نصح البعض الآخر بالاكتفاء بملاحقة صاحب الجريدة التي نشرت نص البرقية ، لان قانون المطبوعات فيه ما يساعد على اتخاذ اجراءات مستعجلة بحق مرتكبي جرائم النشر ، وأهمها تعطيل النشرة الدورية المشكو منها، آثر السيد رئيس الجمهورية عدم اتخاذ أي اجراء ضد الجريدة أو ضد صاحبها ؛ وجرى طي المسألة لكونها لا تخرج عن حدود حرية المواطن في التعبير عن رأيه • وبعد أيام صدر عن رئاسة الجمهورية قرار بالتصديق على الفقرة الحكمية المتعلقة باعدام اثنين من الاشخاص الثلاثة المحكوم عليهم بالاعدام ، لانهما كانا شريكي القاتل ، الذي انتحر فور ارتكاب جريمته ، وقد شدا من أزره لدى اطلاق النار على أخي ، وقد صدر الحكم عليهما أصلا بالاجماع • أما بالنسبة للمحكوم عليه الثالث والذي كان أحد المحرضين على الاغتيال ، فقد أمر السيد رئيس الجمهورية بتخفيض عقوبته القصوى وبانزالها الى حبس الاشغال الشاقة المؤبدة ، نظرا لان الحكم الصادر بحقه كان اتخذ بأكثرية آراء أعضاء المحكمة لا بالاجماع •

كانت البرقية الموجهة من قبلي ، وموقف السلطات العليا منها،

---

←

لنذكر جميعاً يوم ٣٠ آذار ١٩٤٩ وان التاريخ يعيد نفسه . ولنحذر تشجيع الاغتيال لانه سلاح ذو حدين ، فكما وجه اليوم الى ظهر عدنان وفي الامس الى صدغ الشهبندر في ابشع صور الخسة والغدر ، قد يمتد غدا الى صدور محترفي السياسة الذين يتخذون منه مطية للوصول ولتحقيق أغراضهم الخاصة على حساب مصلحة الشعب .

ومن الصحيفة التي نشرتها ، ثم سير اجراءات تصديق الحكم بحق بعض المحكومين وتعديله بحق البعض الآخر ، كلها مظاهر ايجابية تعطي الدليل على أفضلية النظام الديمقراطي الذي يتيح للمواطن اسماع صوته ، علنا ، وجهارا ، في ظل الحماية الدستورية ، دون أن يتعرض لاي اجراء من اجراءات السلطة التنفيذية ، بالحد من حريته أو بالاعتداء عليه والانتقام منه ، خلافا لما عليه الحال في ظل السيطرة العسكرية والديكتاتوريات الفردية ، اذ تكفي آنئذ اساءة بسيطة بحق أصغر مأمور من مأموري السلطة المتحكمة ، لان تجر على صاحبها الويلات ، من حجز حرية ، وتنكيل ، وتشريد ، وتجويع ، وقتل ، وافناء قد يعتمد على تذويب الجسد البشري بالاحماض الكاوية ، وهي وسيلة حديثة مبتكرة •

# ١٠

## تحت القبه الفضية

**« السيادة في جهنم خير من الذل في الجنة » .**

«جوني ميلتون»

في ربيع عام ١٩٥٧ دعيت من قبل بعض الاوساط السياسية وعدد من أصدقائي وزملائي لترشيح نفسي للانتخابات التكميلية التي ستجرى في دمشق في الرابع من شهر أيار ( مايو ) من العام نفسه ، لاملاء مقعد نيابي شغر بسبب صدور حكم عن المحكمة العرفية قضي بعقوبة السجن مع الأشغال الشاقة بحق نائب دمشق الدكتور منير العجلاني .

حاولت التخلص والاعتذار عن تلبية الدعوة لعدة أسباب ، أهمها موقفي من الحزب الذي سبق وأن انتسبت اليه قبل سبع سنوات ، ثم ابتعدت عنه بسبب خلاف شديد كان واقعا بيني وبين قيادته ، وهو حزب البعث العربي الاشتراكي . وان قصة انتسابي الى هذا الحزب ، وابتعادي عنه ومواقفي منه ، ومن قيادته ، وقادته ،

وقواعده ، وأجنحته ، ونشاطي الحزبي والسياسي معه قبل اندماج أصليه البعث العربي والعربي الاشتراكي ، وبعده ، وخوضي بعض معاركه ، وانطباعي عن تجاربه في مختلف مراحل وجوده ولدى حله واعادة تشكيله ، قصة جديرة بأن تروى ، ولكنها لسعتها وأهميتها تستحق افراد بحث مستقل بها ، آمل أن تساعدني الظروف على تدوينه ، لما فيه من دروس وعبر •

كنت أشعر بكثير من الحرج في أن أحل محل الدكتور العجلاني في مقعده النيابي الذي احتله أكثر من مرة عن جدارة وكفاءة لا يشك فيهما • فالرجل ينحدر من أسرة كبيرة معروفة في أوساط دمشق ، باستقامة أفرادها ، وان كانت هي من صميم الطبقة البورجوازية الكبيرة ، وهو يتحلى بثقافة عالية وأخلاق حميدة ، وان كان اشتهر بتقلب مواقفه السياسية • وكان مدرسا قديرا ، وقد تلقيت العلم عليه ، عندما كنت طالبا في معهد الحقوق العربي في الجامعةالسورية• فكيف أسمح لنفسي بأن أرى معلمي وأستاذي يزج به في غياهب السجن ، وبأن أتربع أنا على كرسيه النيابي ؟ • انه لا شك موقف متسم بالجحود ، لا يليق بمن تعلم في صغره قاعدة أخلاقية سامية تقول : « من علمني حرفا ، كنت له عبدا » • لقد سبق لي أن سجلت على نفسي مواقف لا تقل جحودا عن هذا التصرف الذي صعب علي الاقدام عليه • لقد أسهمت أنا شخصيا بمخاصمته عندما كان واقفا في قفص الاتهام أمام المحكمة العرفية ليجابه تهمة الخيانة والتآمر ، مع عدد كبير من السياسيين السوريين من جماعة اليمين ، وبينهم أعضاءفي المجلس النيابي ووزراء سابقون وأساتذة جامعة وضباط كبار وصغار وصحافيون • وكان بين هؤلاء بعض الاساتذة ممن درسوني على مقاعد معهد الحقوق في الجامعة •

ما أصعب مزالق السياسة ، وما أزعج الوقوع في متاهاتها

المتشعبة وتناقضاتها المخجلة . ولكن في طريق الكفاح الوطني ، عندما يكون المناضل على حق ، أو يعتقد على الاقل أنه كذلك ، لا يجد غضاضة في أن يجابه أقرب الناس اليه وأكثرهم فضلا عليه ، معطيا الاولوية لقضايا وطنه والرجحان لمصالح شعبه . فلا كبير حرج عندئذ أن يجابه الاخ أخاه ، وأن يعسكر الواحد منهما في خندق معاكس للخندق الذي يتمترس فيه أخوه ، اذا كان الحافز لذلك هو الاعتقاد بخدمة القضية الوطنية .

قد يكون هذا المنطق صحيحا عندما يكون أبناء الامة الواحدة متروكين وشأنهم ، في معالجة قضاياهم وادارة شؤون بلادهم . ولكن عندما تكون البلاد واقعة تحت سيطرة النفوذ الاجنبي ، وعندما تكون أراضيها مهددة بالاعتداء عليها ، وبعض أجزائها مغتصبا ، يجدر بأبناء الوطن جميعا أن يفكروا كثيرا قبل أن ينقسموا الى معسكرات متعارضة ومتناحرة ، اذ يقع على الجميع عبء كامل ومسؤولية ضخمة بأن ينتظموا في جبهة واحدة ، لمجابهة الاخطار التي تهدد بلادهم ، وسيادتهم عليها ، بل وحتى وجودهم على سطح أديمها . هذه قاعدة أساسية لا خيار في احترامها ، وقد فات أبناء شعبنا الانتباه اليها والتمسك بها بعد نيل الاستقلال . فبعد أن كانوا كتلة وطنية واحدة متراصة أيام الاحتلال يكافحون جيوشه ، ويقاومون عدوانه ، وينافحون عن حريتهم وكرامتهم ، اذ بهم بعد فجر الاستقلال ينقسمون على بعضهم ويبدأون في خلق أجواء عكرة من العداء المصطنع والتناحر البغيض ، دون أن يقدروا أن هذا الانقسام والتناحر لن يخدم الا أعداءهم المتربصين بهم ، الساعين لدحرهم وطردهم من بعض أجزاء وطنهم ، وقهرهم واذلالهم في الاجزاء الاخرى ، حتى يبقوا خاضعين للنفوذ الاجنبي ولسيطرة الاستعمار بشكليه القديم والحديث ..

لقد اعتقد أصحاب اليمين أمثال الدكتور العجلاني وصحبه ، بحكم انتمائهم الطبقي ، وثقافتهم العامة ، ونزعتهم الفكرية ونظرتهم لقضايا وطنهم ، في المجالات السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية، أن الغرب هو حليفهم الطبيعي الذي سيمكنهم دعمه ، والاعتماد على مساعداته ، وعونه المادي والادبي ، من مجابهة قوى اليسار ، فراحوا يمدون اليه يد الصداقة وينشدون منه التعاون ، دون أن يدركوا أن دول الغرب بخضوعها للنظام الرأسمالي القائم على الاحتكار والاستغلال ونزعتها الاستعمارية ، لا يمكن أن تكون صديقة صادقة للعرب ؛ بل كان عليهم أن يصلوا وسريعا جدا الى قناعة عميقة وهي أن زعيمة الغرب الولايات المتحدة الاميركية ، لا يمكن أن تكون الا عدوة للعرب ولجميع أمانيهم القومية ، ما دامت بحكم سيطرة الرأسمال والاحتكارات الضخمة على اقتصادها وسياستها ، وتفوذ الصهاينة في أوساط الطبقة الحاكمة فيها ، هي الدعامة الكبرى لاسرائيل ، والمعول الهدام في كيان الوطن العربي .

لقد نسي هؤلاء المواطنون هذه الحقيقة ، فوضعوا ثقتهم الكاملة في الغرب ، ومدوا أيديهم لدوله ، فراحت أجهزة المخابرات في تلك الدول تمسك بأيدي الصداقة الممدودة لها لتتآمر على أصحابها وتشركهم في مؤامرات من صنعها وتخطيطها ، وتسلم رقابهم الى عملائها الحقيقيين ، الذين كان بعضهم يتستر تحت شعارات التقدمية والتحرر ليحتل مراكز القوة الاساسية في وطننا العربي ويسهم مع دوائر المخابرات الاجنبية في تنفيذ لعبة من أخطر مبتكرات العصر ، وهي « لعبة الامم » .

★ ★ ★

وقد اعتمد مشروع أيزنهاور ، رئيس جمهورية الولايات

المتحـدة الاسبق ، القائم على نظرية ملء الفراغ في منطقة الشرق الاوسط ، على أسلوب ضرب القوى السياسية والوطنية ببعضهـا البعض لتمزيق وحدة الصف الوطني وتشتيت الشمل العربي باستغلال الصراع الطبقي ، وازكاء نار الحرب الهوجاء بين اليمين واليسار ، كل ذلك بقصد احداث الفراغ الكبير في ساحة الكفاح العربي ، وتصديع البناء الوطني الداخلي وتسكين النفوذ الاجنبي من السيطرة التامة على المنطقة العربية بكاملها ، ليعيش جميع أبنائها ، والجماهير الواسعة قبل سواها ، عيشة الفقر والذل ، تتناهب خيرات البلاد الواسعة وثرواتها الغنية ، ومحاصيلها الوفيرة ، وكنوزها الدفينة ، ونفطها الغزير ، عصابات السلب والنهب ، العاملة باسم شركات أجنبية أو احتكارات رأسمالية •

★ ★ ★

وقد تسنى لي بحكم نشاطي والظروف التي مرت فيها بلادنا ، أن ألحظ الفرق الكبير ، بين المنطقين المتعاكسين ، منطق الوحـدة الوطنية القائمة على جمع قوى الشعب وحشدها كلها في صف واحد لتحقيق المطالب الوطنية ، ومنطق التكتلات السياسية المتناحرة الذي لن يلبث أن ينعكس على ذات التكتلات ، ويؤدي بالتالي الى انقسامها على بعضها وبعثرة جهودها واستشراء بذور الفوضى والتفسخ في صفوفها ، واضمحلال قوتها وقدرتها على تحقيق أي مسعى ايجابي ، أو مطلب وطني ، أو هدف قومي صحيح •

لاحظت ذلك ، لدى قيام الجبهة الوطنية المؤلفة من الاكثرية الساحقة للقوى السياسة التي اجتمعت في مؤتمر حمص عام ١٩٥٣ ، وانبثق عنها ميثاق وطني وكفاح مشترك أدى الى سقوط ديكتاتورية الشيشكلي والى اعادة الحياة الديمقراطية الى البلاد ؛ ولاحظت عكس

ذلك ، عندما انقسمت تلك الجبهة على نفسهـا ، وراحت فئـة من أطرافها وأحزابها تستمد العون من الخارج لمجابهة ما زعمته من خطر التغلغل الشيوعي المتجسم بفوز نائب شيوعي بمقعد نيابي واحد في المجلس النيابي • ومن خلال ذلك الانقسام تمكنت دوائر المخابرات الاجنبية من توجيه شرورها باستغلال قيام الوحدة ثم بضربهـا • لاحظت ذلك عند قيام الوحدة بين القطر العربي السوري والقطر العربي المصري في مطلع عام ١٩٥٨ ، وقد مهدت لها جماهير الشعب في سورية المطالبة « بالوحدة باشر باشر مع هالاسمر عبد الناصر » ، وهو شعار طرحه الشيوعيون الاردنيون والسوريون قبل غيرهم والتف حوله جميع السوريين ، اندفاعا منهم وراء الهدف القومي الكبير الذي حلموا به طويلا وكافحوا من أجله •

ولاحظت عكسه عندما تصدى الشيوعيون لمعاكسة قيام الوحدة تحت ستار الحرص على الحريات الديمقراطية ، وعندما راحت أجهزة المخابرات والمباحث في عهد الوحدة تستغل هذا العداء لا لضرب التيار الشيوعي ، بل لفرض سياسة استبدادية ارهابية ، كان حصادهـا اضعاف وتمزيق الوحدة الوطنية بين أبناء الشعب الواحد ، ثـم فرط عقد وحدة القطرين العربيين في ٢٨ أيلول ( سبتمبر ) ١٩٦٢، يوم الانفصال الاسود المشؤوم ، الذي تتحمل أجهزة المخابرات ومراكز القوة وحدها مسؤولية التمهيد لوقوعه •

★ ★ ★

لقد أسهمت أنا شخصيا وفي عدة مناسبات في تشكيل لجـان وهيئات شعبية كان التقاء جميع عناصر الشعب فيها ، من أقصى اليمين الى أقصى اليسار ، مظهرا من مظاهر قدرة شعبنا على الالتفاف حول مصالحه الكبرى وقضاياه المصيرية ، وقد حققت تلك اللجان والهيئات انتصارات كبرى ونتائج ايجابية هامة في بعض القضايا الوطنية •

ففي عام ١٩٥٥ حصل التعاون بين ممثلين عن الاحزاب والجمعيات السياسية القائمة آنذاك ، وهي الحزب الوطني ، وحزب الشعب ، وحزب البعث العربي الاشتراكي ، والحزب الشيوعي ، وجماعة الاخوان المسلمين ، وحركة القوميين العرب ، وحزب التحرير ، والحزب التعاوني الاشتراكي ، واتحاد نقابات العمال ، وبعض النقابات المهنية ، وجرى تشكيل هيئات شعبية في معظم المحافظات السورية للمطالبة بتعديل اتفاقيات مرور آنابيب البترول المعقودة مع الشركات الاحتكارية الاجنبية .

كان اسهام جميع تلك الاحزاب في نشاط تلك اللجان والتفاف الشعب حولها عاملا هاما من عوامل نجاح الحكومة السورية في تعديل اتفاقيات البترول تعديلا جوهريا أدى الى مضاعفة عائدات المرور أضعافا مضاعفة .

ولم يجد أي واحد من ممثلي تلك الهيئات حرجا بالموافقة على جميع الاقتراحات الايجابية المعروضة على تلك اللجان وعلى اللجنة العليا المنبثقة عنها ، ومن جملتها التأكيد على عزم الشعب العربي في سورية على خوض معركة تأميم أنابيب البترول في حال عدم الوصول الى حل سريع ونهائي يضمن للبلاد حقوقها .

وقد عقدت تلك اللجان المواثيق بين أعضائها ، ممثلي الاحزاب والنقابات ، ونظمت اجتماعات شعبية ، وأصدرت بيانات متعددة وعبأت الرأي العام عن طريق مختلف وسائل الاعلام والنشر .

كان ذلك النشاط كله مظهرا ايجابيا من مظاهر الوحدة الوطنية . فالوحدة الوطنية هي السبيل الاوحد لمجابهة قوى الشر والعدوان والانتصار عليها ، وتمزيق الصف الوطني هو الطريق المباشر للفشل والهزيمة .



لقد تصدعت الوحدة الوطنية كثيرا عندما وقع بعض نواب المجلس النيابي السوري في شباك المؤامرات التي دأبت دوائر المخابرات الغربية عامة ، والاميركية خاصة ، على حبكها ، ثم تسليم رقاب المشتركين فيها الى عملائها الحقيقيين المتحكمين في مراكز القوة ، في دوائر المخابرات السورية ، لتجرى تلك الدوائر التحقيق في مؤامراتهم وتحيلهم الى المحاكم العرفية لانزال أقصى العقوبات بحقهم .•

وكان من نتيجة ذلك أن تزعزع النظام الديمقراطي ، وبات مصير المجلس النيابي في خطر ، عندما صدرت الأحكام العرفية بحق عدد من نواب المجلس الموقوفين أو المتوارين عن الانظار ، وقد غادر البلاد عدد من هؤلاء النواب خشية أن تمتد اليهم أيدي رجال الشعبة الثانية وأن يلقوا مصير زملائهم الموقوفين أو المحكوم عليهم •

وكان من المنطقي أن يحل المجلس النيابي لتجري انتخابات نيابية عامة ، تساعد على قيام مجلس جديد ، يوفر استمرارا للنظام البرلماني، واستقرارا أكثر في الدولة الحديثة الاستقلال والتي أنهكتها سلسلة الانقلابات العسكرية وتسلط العسكريين على مقدراتها ، وعلى شؤون الحكم والسياسة فيها •

ولكن التجمع البرلماني الذي تألف في داخل المجلس من أكثرية النواب الذين يمثلون معظم الكتل النيابية ، والذي انبثقت عنه حكومة ائتلاف وطني برئاسة السيد صبري العسلي ، آثر الحفاظ على المجلس القائم ورأب الصدع باجراء انتخابات تكميلية لملء المقاعد النيابية الشاغرة •

كان التجمع البرلماني بحد ذاته شكلا من الاتحاد الوطني لانه كان يضم في صفوفه عناصر اليسار الى جانب عناصر اليمين ، من

البعثيين الاشتراكيين الى الشيوعيين الى الكتلة الديمقراطية التي كان يتزعمها السيد خالد العظم ، الى كتلة المستقلين ، وبعض نواب العشائر ، حتى الجناح المعتدل من الحزب الوطني .

★ ★ ★

وقد ندبت أنا لترشيح نفسي وبتأييد من التجمع البرلماني ، حرصا من أعضائه النواب على دعم سياستهم وتعزيز وحدة صفهم . وقد وقع اختيارهم علي لخوض المعركة الانتخابية المقرر اجراؤها في أوائل شهر أيار ( مايو ) ١٩٥٧ ، كما قرروا دعم عدد من المرشحين للانتخابات التكميلية الجارية في كل من محافظتي حمص والسويداء .

وكان اعتقادهم أن الحملة الانتخابية في دمشق ستكون سهلة ، وأن مرشحهم سيكون قاب قوسين أو أدنى من صفوفهم ، ومن المقعد النيابي الشاغر .

ولكن المفاجأة الكبرى كانت عندما وقع اختيار معارضيهم على فرس رهان قوي تكللت هامته بأكاليل الفوز والنصر في دورات انتخابية سابقة . والمرشح الذي اختاروه لمنافستي في الانتخابات التكميلية المزمع اجراؤها ، شيخ معمم ، وعالم فاضل ، وأستاذ جامعي قدير هو الدكتور مصطفى السباعي ، المرشد العام لجماعة الاخوان المسلمين .

وفوق صفاته تلك ، وخصاله العديدة ، وانتسابه بطريق المصاهرة الى أسرة عريقة في دمشق ، يمارس معظم أفرادها التجارة ولهم نفوذهم الواسع في أسواق دمشق ، وأوساطها الدينية والشعبية والتجارية ، كان الرجل يتمتع بميزة نادرة ، وهي براعته المشهورة في الخطابة ؛ فقد كان بحق من أخطب خطباء العرب والمسلمين في العصر الحاضر ، اذا ما اعتلى المنبر وتصدى للكلام ، تمكن من السيطرة على جمهور

سامعيه بقوة بلاغته وسحر بيانه ، ولم يكن لمنافسه أن يجاريه أبدا في هذا المضمار الهام والحيوي بالنسبة لكل من يريد تمثيل الشعب في قاعة المجلس النيابي •

★ ★ ★

لقد كانت ، في الماضي ، لمنافس الدكتور السباعي ، صولات وجولات في ميادين الخطابة وفي ساحات الجدل الكلامي في المحاكم، وفي اجتماعات المحامين ومساجلاتهم ؛ وكان يقف الساعات الطويلة بين زملائه يقارع الحجة بالحجة ويرد على القول بالقول • ولكن ماعاناه ذاك المحامي من تعذيب ومعاملة وحشية في السجن ، مع ما أعقب ذلك من تنكيل على يد الاطباء العسكريين ، قد أنهك صحته ، وهد من قوته ، وحد من حيويته ونشاطه اللذين لازماه في السجن وحتى في أشد حالات مرضه ، الى أن جرت مداواته على الشكل الذي سبق وصفه ، فكان الدواء أشد وقعا على صحته من الداء • وظل المحامي يعاني طويلا من وهن شديد في قواه ، وقد انعكس ذلك بشكل خاص على قدرته الخطابية ، فعاد بعدئذ يتعثر في كلامه اذا ما اضطر للخطابة ارتجالا •

فكيف تكون الحال اذن والنشاط الانتخابي يتطلب من المرشح، أي مرشح ، أن لا يكف طيلة الحملة الانتخابية عن توجيه الكلام الى جماهير الناخبين ، وفيهم العلماء والمثقفون والطلاب الجامعيون ، وفيهم العامة التي تتأثر بلهجة الخطيب يصول ويجول في خطابه أكثر من أن تعي حقيقة ما يقول ، خاصة اذا كان محدثا بارعا ، كالدكتور السباعي •

ومع ذلك ، كان علي أن أجابه هذه الصعوبة باقدام ، وكان علي أن أظهر أمام الجمهور على حقيقتي ، أخاطب الناس على سجيتي،

دون بذل أية محاولة أو جهد خاص لتملقهم بحلو الخطاب ومعسول الكلام .

وفي احتفال انتخابي ضخم عقد في نادي ( الابولون ) في حي القصاع ، وقد حضره جمهور غفير من أناس معظمهم مثقفون وحملة شهادات عليا ، ارتجلت الكلام مخاطبا الحاضرين بقولي : « أيها المواطنون الاحرار ، أنتم اليوم على أبواب معركة انتخابية تكميلية تدور بين مرشحين اثنين ، عليكم اختيار واحد منهما لتمثيلكم تحت قبة البرلمان . فان أردتم خطيبا مصقعا ومتكلما مفوها ، فعليكم اختيار منافسي الدكتور مصطفى السباعي ، لاني لا أستطيع مجاراته في هذا المجال . واذا أردتم رجلا واسع الثقافة غزير المعرفة ، أخطب وأعلم من الدكتور السباعي ومني ، فما عليكم الا أن تتجهوا الى السجن لتحطموا بابه بقوة سواعدكم ، وتفكوا أسر نزيله الدكتور منير العجلاني ، لانه ، بهذا المقياس ، أجدر من سواه بالنيابة التي عقدتم لواءها عليه في الانتخابات السابقة . أما اذا أردتم انسانا حراً، ومواطنا صادقا ، يسير معكم في طريق كفاحكم من أجل حرية وطنكم ووحدته وتطوره وتقدمه ، فها أنذا أمامكم ، أعاهدكم على أن أتابع معكم السير على هذا الطريق ، وكلي أمل في أن أكون عند حسن ظنكم متمتعا بثقتكم التي هي الدعامة الاساسية لاي نائب يتصدى لتمثيل الشعب تحت القبة الفضية » .

وبمثل هذه اللهجة في الخطاب وتحت تأثير المنطق العفوي الصريح الذي كنت أخاطب به جمهور الناخبين ، كنت ألقى دائما التجاوب والتشجيع في جميع الاوساط السياسية والجمعيات الثقافية والاندية الاجتماعية ، والتجمعات الشعبية التي كنت ألتقي معها ، طيلة حملتي الانتخابية .

★ ★ ★

التقيت بجماهير المثقفين والطلاب ، فاعتبروا قضية ترشيحي قضيتهم . التقيت بجماهير العمال فأوكلوا الي أمر تمثيلهم والدفاع عنهم في المجلس النيابي . اجتمعت بعدد من كبار العلماء ورجال الدين فحزت على بركة وتشجيع أكثرهم تمسكا بعقيدتهم وحدبا على قضايا وطنهم ، فكان تأييدهم لي ردا قويا على أنصار منافسي ، ومعظمهم من جماعة الاخوان المسلمين أو من رجال الدين المتزمتين الذين أضفوا على المعركة الإنتخابية طابع الجهاد المقدس ، ووصفوها بأنها معركة بين الكفر والايمان ، وبين ستالين ومحمد ، متخذين من وقوف قوى اليسار الى جانبي ، وتأييد الشيوعيين لي ، ذريعة للتشكيك في عقيدتي وصدق ايماني .

وقد حاولت جهدي طيلة الحملة الانتخابية ، أن أبتعد عن أسباب التحدي والاثارة ، كما سعيت بشكل مخلص ودائم ، لانزه نفسي أنا وأنصاري ، عن الانزلاق في مهاوي المهاترات الكلامية ، باذلا كل جهدي ومبديا عظيم حرصي على أن تبقى المعركة الانتخابية في حدودها المعقولة ، وأن تدور رحاها وكأنها مباراة رياضية .

سألني صاحب جريدة « العلم » عن انطباعي عن المعركة الانتخابية وعن شخص منافسي ، وعن النتيجة التي أتوقعها ، وماذا سيكون موقفي في حال النجاح أو الفشل ؟ فأشدت بصفات الدكتور السباعي وخصاله ، ووصفت المعركة بأنها تنافس ودي على ثقة الشعب ، وتمنيت أن أفوز بهذه الثقة ، حتى اذا تسنى لي ذلك ، كان لي الفخر والشرف بتمثيل الشعب ، وفي حال نجاح منافسي ، فسأنحني أمام ارادة الناخبين وأسارع لتهنئته بثقتهم الغالية .

وقد وجه السؤال نفسه الى الدكتور السباعي الذي بادلني ، بعد اطلاعه على جوابي ، ذات العاطفة ، وان كان توقع الفوز لمن التزم جانب العقيدة والايمان .

ولدى مقابلتي لرئيس رابطة العلماء الشيخ أبو الخير الميداني، والاستيضاح منه عن حقيقة البيان الذي أصدرته رابطة العلماء عن لسانه ، بتأييد منافسي ، نفى الرجل التقي الورع ، أن يكون قد أصدر أي بيان أو أعطى أي تصريح ، ولكنه اعتذر في آن واحد عن اصدار أي تكذيب بحجة أنه يريد ، وهو في شيخوخته ، أن يجنب نفسه مهاترات السياسة والتلوث بأدرانها • ولما أبديت تخوفي من اعطاء المعركة الانتخابية السياسية طابع صراع ديني ، ومن محاولة أنصار منافسي استغلال النزعة الدينية في الاوساط الشعبية ، طمأنني بقوله : « يابني ، لاتخف ، ان الله معك ، وانك لناجح باذنه تعالى» • وقد أدى حديثه بحضور بعض أنصاره ومريديه الكثيرين الى تحول نظرتهم نحوي وانعطافهم أثناء سير المعركة الانتخابية واتجاههم نحو تأييدي ودعمي •

وقد انقسم جمهور الشعب الى جبهتين متعارضتين ، جبهة تؤيدني وجبهة تؤيد الدكتور السباعي ، ولكل جبهة أحزابها وقواها السياسية وحشودها الشعبية وصحفها وأقلامها • وانبرت أقلام حرة نزيهة ، لتوجيه حملة الدعاية لمصلحتي •

وكنت ألقى خطابات التأييد ورسائل التشجيع من أشخاص لا أعرفهم ولا يعرفوني ، سوى أنهم انتصروا للخط السياسي الذي انتهجته في حملتي الانتخابية ، وقد خضتها مستقلا ، غير ملتزم بأي اتجاه حزبي •

★ ★ ★

استغرقت المعركة الانتخابية شهرا كاملا ، صدف أن رافق بدؤه حلول رمضان المبارك ، شهر الصوم والعبادة والتقرب من السماء ؛ ولم يعكر صفو الامن في البلد حادث ما طيلة الشهر ، سوى أن المدير

العام للشرطة والامن العام وهو السيد يوسف مزاحم ، ظن أنه يستطيع أن يحقق عدة أهداف بانحيازه الى الشخص الذي اعتقد أنه أقوى المرشحين المتنافسين ، فوجد أن انحيازه الى صف رجل الدين الحنيف ومدرس الفقه الشريف أستاذ الشريعة الاسلامية الغراء ، سيفتح له أبواب السماء ويكسبه رضى رب العالمين ، كما سيوصله في يوم من الايام الى تسنم وزارة الاوقاف وربما يساعده لتحقيق طموحه بأن يصبح ، في المستقبل ، شيخا للاسلام • لذلك عمد الى اتخاذ بعض الاجراءات العنيفة والتعسفية بحق بعض أنصاري ، كأن أصدر أمرا بتوقيف أحد هؤلاء الانصار من شبان حي الشاغور وأبقاه في نظارة الشرطة أربعة أيام دون أن يحيله الى القضاء ، لقناعته بأن النيابة العامة ستفرج عن الموقوف فورا لعدم وجود ما يوجب احتجاز حريته • وعبثا ذهبت المحاولات التي بذلتها مع دائرة الشرطة للافراج عن المعتقل أو سوقه الى المحكمة ، وكان الجواب دائما أن أوامر المدير العام تقضي بابقاء الموقوف في النظارة لحين صدور أمر معاكس •

وقد حاول عدد من المسؤولين والنواب الذين شكوت لهم الامر ، الاتصال بالمدير العام اياه ، ولكن لم يعد يظهر له أي أثر خلال الايام الاربعة بكاملها • وقد ظن القوم أنه قد تبخر مع كميات البخور التي اعتاد اشعالها في خلواته الخاصة مع بعض المشايخ أو في جلسات النجوى مع الاشباح ، وخلال حفلات تحضير الارواح •



وأثناء المعركة الانتخابية ذاتها ، خطر للمدير العام للشرطة والامن العام أن يتوجه في الساعة الثالثة من بعد منتصف ليل أحد الايام ، الى دار السيد رئيس الجمهورية طالبا مقابلة صاحب الدار • ولم يستطع رجال الحرس الجمهوري رفض طلب آمرهم المباشر ،

فدخل أحدهم على السيد الرئيس وأيقظه من نومه برفق ، وأنبأه بقدوم مدير الشرطة الذي يطلب مقابلته لامر هـام • فهب الرئيس السيد القوتلي من فراشه مذعورا ، وظن أن في البلد حدثا جللا ، ربما كان يتعلق بتحرك جديد من طوابير العساكر ، وقد قام بعضهم يوم انتخابه قبل سنتين واثر فوزه بكرسي رئاسة الجمهورية بالطواف أمام داره ليلا وبالهتاف ضده وبسقوط رئاسته الجديدة • واستقبل رئيس الجمهورية زائره الليلي ، وهو يلتف بعباءة وضعها فوق ظهره على عجل • وقبل أن يقرئه السلام أو التحية ، سأل رجل الامن عن دواعي زيارته غير المنتظرة ، فأجابه الزائر الكريم : « لا شـيء في الافق يدعو للقلق يا فخامة الرئيس ، انما جئت لابلغكم أن الحالة في البلد هادئة ، وأن الامن مستتب تماما ، وكل شيء يدعو للاطمئنان، فعودوا لمتابعة نومكم وأنتم قرير العين هادىء البال » •

فعلق السيد الرئيس على خطاب المحتسب الامـين بعبارتـه المشهورة التي كان يرددها في حالات الرضى أو التعجب : « بارك الله ، بارك الله !•• » •

وانصرف الضيف بعد ذلك ، وعاد السيد رئيس الجمهورية الى سريره متنفسا الصعداء ، وهو يفكر بينه وبين نفسه كيف أن الجيل الصاعد الذي كان يعلق عليه السيد الرئيس في خطاباته الرسمية أعظم الآمال ، والذي كان السيد مزاحم يتصـدى لتمثيل بعض طلائعـه التقدمية ، سوف يذود عن حياض الوطن ويخوض معارك التحرير والنضال ، ويحقق لشعبه ووطنه النصر والسؤدد •

★ ★ ★

كان طبيعيا بعد ذاك الحادث الطريف ، أو الحدث الهام ، أن يكافأ رجل الامن الهمام ، فانتظرت الحكومة انتهاء الحملة الانتخابية،

وأصدرت أمرا بتنحيته عن مديرية الشرطة والامن العام ، وبنقله محافظا لدير الزور •

وشاءت الصدف أن ألتقي به يومئذ مع اثنين من أصدقائه وهما السيدان منصور الاطرش وذوقان قرقوط لدى زيارتهم للعقيد عفيف البزري ، وكان آنئذ رئيسا لاحدى شعب رئاسة الاركان العامة ، وقد قصدته في مسعى انساني للتوسط بمعالجة مريض بائس بواسطة بعض الاطباء الاجانب المتعاقدين مع وزارة الدفاع •• وقد سمعت محافظ دير الزور الجديد يشدد الهجوم على الحكومة ورئيسها السيد صبري العسلي الذي كان في نفس الوقت وزيرا للداخلية ، مغلظا القول بحقه وفي غيابه ، ورئيس الشعبة الاولى يستمع اليه دون أن يحير جوابا • ولما طال حديث الموظف المنقول الساخط على حكومته ورئيسه المباشر لا لشيء الا لانه نقله من مركز القوة الذي أساء استعماله ، تدخلت أنا في الحديث ، بعد صمت وصبر طويلين ، وخاطبت الموظف الصاخب بسؤالي اياه : « ألست موظفا في الدولة وخاضعا لامرة السيد وزير الداخلية ؟ » أجاب : « نعم » • فقلت له : « بأي حق اذن تنتقد رؤساءك وتهاجمهم بهذا الشكل المقذع ، مسجلا على نفسك مخالفة صريحة لواجباتك المسلكية ؟ » • فسألني مستغربا : « هل تريد أن تدافع عن السيد العسلي وحكومته الرجعية وأنت الشاب التقدمي ؟ » •

فقلت له هازئا : « اطلع من هذه الابواب ، لقد ظللت ردحا من الزمن تحت امرة السيد العسلي تحيطه بالتعظيم والتبجيل في محاولة دائمة لاسترضائه واستدرار عطفه ومغانمه ، حتى اذا نقلك الى مركز اداري كبير غير مركزك الخطير ، شرعت باملاء الدنيا صياحا وضجيجا ضده وضد حكومته التي كنت تابعا لها » • أجاب : « ان نقلي لا يمت الى المصلحة العامة بأية صلة ، وقد جرى ارضاء

لنائب الزبداني السيد جميل الشماط الذي يخشى من منافستي له على زعامته ونيابته بالنظر للمشاريع الضخمة التي أنفذها في منطقة نيابته » • فعلقت على كلامه قائلا : « ما دامت لديك القدرة على تنفيذ المشاريع الحيوية ، فان محافظة دير الزور النائية هي أولى بعنايتك وجهودك من وادي بردى الذي هو قطعة من الجنة حبته الطبيعة بجمال لا يحتاج بعده لكثير من العناء • فاذهب الى محافظتك وانصرف الى عملك بصمت وجدية ، ودع ضباط الجيش وشأنهم ، ولا تحاول استغلالهم واستعداءهم ضد رجال الحكم والسياسة • أما اذا كنت حريصا على معالجة القضايا السياسية العامة ، فما عليك الا أن تتخلى عن وظيفتك ، وتخوض معارك السياسة بالاعتماد على نفسك وعلى كفاحك » • وانصرف الموظف الاداري والغيظ والحنق يملآن صدره ضد نائب دمشق الذي أفسد عليه خطته وعكر مزاجه•

ان هذا الرجل وأمثاله هم الذين كانوا يلتصقون بضباط الجيش والعسكريين يفسدون عليهم انضباطهم ، ويدغدغون غرائزهم وغرورهم ، ويقوون لديهم شهوة الحكم ، يحرضونهم تارة ضد المناضلين المعتقلين ، ليتخذوا منهم رهائن بقصد ارهاب ذويهم وأنصارهم ، ويحضونهم تارة ضد الحكام والسياسيين ، ويحثونهم أخيرا على الاطاحة بالسلطة المدنية الحاكمة ، والاستيلاء على الحكم، حتى يتسنى لهؤلاء الطفيليين اعتلاء المناصب على أكتاف العساكر أو من تحت نعالهم ، وبالتالي تحقيق المكاسب والمغانم ، واشباع نهمهم الزائد للجاه والمال على حساب الجماهير الكادحة وملايين الفقراء الجائعين •

لقد تمكن جابي البلدية الصغير ، لا عن طريق كفاحه واجتهاده، بل عن طريق الزلفى والتقرب من العسكريين ، ثم عن طريق الالتقاء بالمولعين مثله بالبخور وتحضير الارواح ، الى ارتقاء مدارج الوظيفة

والمناصب العليا حتى وصل الى كرسي وزارة الاوقاف ، ومن المعتقد أنه لو طال المقام به وبشركائه الروحانيين العظام ، لحقق آنئذ حلمه الكبير وأصبح شيخا للاسلام .

ان مدرسة كاملة ، لها أساتذتها وتلاميذها ، تكونت من خلال الانقلابات العسكرية التي خططتها دوائر المخابرات الامريكية للعبث بمقدرات بلادنا وانهاك شعبنا ، وافساد حياة أبنائه ، وجعلها جحيما لا يطاق ، مستخدمة آتباع هذه المدرسة ، للقيام بدور الوسطاء مع العسكريين يزينون لهم فكرة اعطاء ظهورهم للعدو والتوجه بآلياتهم الجبارة وقطعاتهم الضاربة ، لاحتلال دور الحكومة ، والامعان بالتنكيل بمواطنيهم وارهابهم تحت شعارات الثورة والتحرير .

★ ★ ★

لم يجدِ انحياز مدير الشرطة والامن العام كبير نفع ، ذلك لان وعي المواطنين من جهة ، وسرية الانتخابات من جهة ثانية ، كفلت للمواطن حريته لدى اختيار ممثله الجديد .

ويوم الاقتراع أقبل الناخبون وبشكل منقطع النظير على ممارسة حقهم الانتخابي ، ومع ذلك ، وبالرغم من أن سيل الناخبين لم ينقطع، من الصباح الباكر حتى المساء المتأخر ، لم تبلغ نسبة المقترعين حد النصاب القانوني ، فجرى إكمال العمليات الانتخابية في اليوم التالي. وقد بلغ مجموع عدد المقترعين الفعليين خلال يومي الاقتراع نسبة ٣٣٪ تقريبا من مجموع عدد الناخبين .. وبعد فرز الاصوات ، أظهرت النتيجة بأن المرشح المالكي نال /٢٠٨٠٨/ صوتا في حين أن المرشح الدكتور السباعي لم ينل سوى /١٨٤٦١/ صوتا ؛ فأعلن فوزي بالنيابة عن دمشق بأكثرية أصوات المقترعين .

ولكن منافسي لم يقتنع بالنتيجة المعلنة ، فعمد الى الطعن في

الانتخابات لدى المحكمة العليا • فقررت هذه المحكمة ، المنتخبة أصلا من قبل المجلس النيابي ، رد الطعن بحجة أن الشيخ الطاعن لا يملك حق الخصومة والطعن في نيابة منافسه الفائز ، نظرا لانه لم يكن أصلا يملك حق ترشيح نفسه للانتخابات ، وذلك بسبب اشغاله وظيفة عمادة كلية الشريعة في جامعة دمشق ؛ وقانون الانتخابات العامة لا يجيز للموظفين الاداريين ترشيح أنفسهم عن الدائرة الانتخابية التي يمارسون عملهم في نطاقها ، الا اذا كانوا قد تركوا الوظيفة قبل ثلاثة أشهر من الترشيح • وبذلك عمدت المحكمة العليا أخيرا الى اعمال النص القانوني • والطريف أن المحكمة ذاتها ، سبق لها وأن ردت الطعن المقدم من زميلي وصديقي الاستاذ عدنان السمان ، الذي لجأ ، كمواطن وارد اسمه في جدول الناخبين ، الى استعمال حقه الصريح المقرر في قانون الانتخاب ، بالاعتراض على عدم صحة ترشيح الدكتور السباعي ، وعدم قانونية اعطائه وصل الترشيح النهائي من قبل أمانة العاصمة ، استنادا لذات الاسباب التي أخذت بها المحكمة العليا لدى رد الطعن الذي قدم اليها بعد انتهاء عمليات الاقتراع من قبل المرشح الفاشل •

ويبدو أن المحكمة الدستورية ، تعمدت مخالفة النص القانوني في أول مرة ، في محاولة منها لاعطاء الشعب الفرصة للاستفتاء حول الاتجاهين السياسيين المتصارعين في ذلك الظرف السياسي الدقيق• وقد جاءت نتيجة الاستفتاء مؤيدة للخط السياسي الذي كان يسير عليه التجمع الوطني النيابي •

وعندما دخلت المجلس لأول مرة في حياتي ، أقبل علي بعض النواب من مؤيدي الدكتور السباعي ، قبل غيرهم ، يهنئوني بثقة الشعب الغالية ، كما رحب بانضمامي الى عشيرة النواب رئيس المجلس النيابي الدكتور ناظم القدسي بكلمة لبقة مشجعة •

وكان هذا الترحيب وتلك العواطف من ممثلي الشعب ، على اختلاف ميولهم واتجاهاتهم مظهرا من مظاهر الحياة الديمقراطية البرلمانية الحرة التي تجعل الكلمة أولا وأخيرا للشعب ذاته ، فينحني الجميع أمام ارادته التي هي التعبير القوي عن سيادته •

★ ★ ★

لم يكتب لعمر نيابتي عن مدينتي دمشق أن يطول • فقد انتخبت أصلا ضمن عملية ترقيع المجلس الذي غاب عنه الكثيرون من أعضائه ، اما لسقوط النيابة عن بعضهم بسبب الاحكام الصادرة بحقهم ، أو لمغادرة البعض الآخر البلاد لما كانوا يخشونه من ملاحقة السلطات العامة لهم بسبب انحيازهم الواضح لسياسة الدول الغربية الاستعمارية وانغماسهم في نشاط تآمري محسوم •

والقاعدة الذهبية في أصول المساجلات النيابية تقول بأن النائب الناجح هو الذي يعرف كيف يصمت في المجلس النيابي طيلة سنة كاملة ، لينبري بعدها للكلام دون توقف • والحقيقة انني لم أكن أطمح لأن أكون واحدا من هؤلاء البرلمانيين الفطاحل الذين يجارون ممثلي المسرح والسينما البارعين ، أو يقلدهم هؤلاء الممثلون في مواقفهم الخطابية التي تهتز لها المنابر وتنال اعجاب الجمهور • ولكن كان علي أن أفي بعهدي لاولئك الذين منحوني ثقتهم ، وأوصلوني بارادتهم الحرة لتمثيلهم تحت قبة المجلس النيابي ، وأن أبر كذلك باليمين الدستورية التي أقسمت بموجبها علنا أمام المجلس أن أكون مخلصا لدستور البلاد مدافعا عنه وأقوم بمهمة النيابة بشرف وصدق؛ ولذلك وجدت من الاخلاص للدستور أن أوجه انتباه أعضاء المجلس الى الثغرة الهامة التي أحدثها في صفوفهم غياب عدد كبير من النواب الذين سبق لهم أن أقسموا أيضا أن يقوموا بمهمة النيابة بشرف

وصدق واخلاص • ثم تقدمت باقتراح يقضي باسقاط النيابة عمن يتخلف عن حضور جلسات المجلس بدون عذر مشروع ، وقد أدى عرض ذلك الاقتراح على لجنتي الدستور والنظام الداخلي ثم على المجلس في جلسته العامة الى خلاف قوي بين النواب الذين انقسموا الى فريقين ، الاول محبّذ للاقتراح والثاني معارض له • وقد أدى ذالك الخلاف في الرأي الى حصول اضطراب شديد في الجلسة ، حمل السيد رئيس المجلس على تعليقها للاستراحة بعض الوقت ، ريثما تهدأ الخواطر ، ثم عاد النواب يتابعون نقاشهم الذي أفضى من حيث النتيجة الى تعديل الاقتراح بأن تقرر وضع مؤيدات مادية لاكراه النائب على حضور الجلسات •

★ ★ ★

لم يعمر المجلس بعد ذلك طويلا ، لان خطوات الحكومة والمجلس اتجهت سريعا نحو اقامة الوحدة بين القطرين العربيين الشقيقين مصر وسورية •

وقد دعي بمناسبة مرور خمسة أعوام على ثورة ٢٣ تموز ( يوليو ) ، وفد برلماني سوري للاشتراك في أعياد الثورة • وقد توجه الوفد برئاسة الدكتور معروف الدواليبي وعضوية عدد من النواب ، وكنت أنا واحدا منهم • وفي تلك المناسبة تسنى لنا مشاهدة العرض العسكري الكبير الذي أقيم تحت رعاية السيد رئيس الجمهورية المصرية ، وهو القائد الاعلى للقوات المسلحة البرية والبحرية والجوية ، وكان عرضا رائعا دام عدة ساعات وعرضت فيه نماذج من الاسلحة الحديثة التي زود بها جيش مصر من قبل الاتحاد السوفياتي ، وقد أشادت الاذاعة والخطابات الرسمية بقوة الجيش الذي أضحى أقوى قوة ضاربة في الشرق الاوسط •

وفي اليوم التالي اشتركنا مع سيادة الرئيس وصحبه ومن على ظهر مدمرة حربية ، في المناورة الحربية التي أجراهـا الاسطـول المصري الكبير المؤلف من عدد من المدمرات والغواصات وكاسحات الالغام وزوارق الطوربيد • كانت القطع الحربية تمخر عباب البحر الابيض المتوسط مظهرة قدرتها على مقارعة أساطيل الاعداء ومهددة باغراقها عن بكرة أبيها وجعلها طعاما للاسماك •

وفي المساء دعي أعضاء الوفد السوري لمأدبة عشاء على مائدة السيد الرئيس في داره الصيفية الكائنة في الاسكندرية • وقـد دار الحديث بين سيادة الرئيس المصري وضيوفه الذين أشاروا الى ملاءمة الظرف لاقامة الاتحاد بين القطرين المصري والسوري • ولكن السيد الرئيس أوضح بدوره أن الخطوة سابقة أوانها ، وأن التسرع في اقامة مثل هذا الاتحاد قد يؤدي الى نكسة ليست في صالح القضية العربية ، وقد يكون لها أثرها السلبي على مستقبل الوحدة العربية• ومع ذلك رحب سيادته بالخطوات التي يمكن أن تسير عليها حكومتا البلدين للتمهيد لعقد مثل هذا الاتحاد في المستقبل ، ونـوه بـأن المبادرة يجب أن تحصل من الجانب السوري •

وحضر الوفد النيابي السوري احدى جلسات مجلس الامـة المصري ، وقد أجلس أعضاؤه في شرفة النظارة وتابعوا سير الجلسة وسمعوا الكلمات التي ألقيت بمناسبة عيد الثورة ، ولـم يتعرض الخطباء في كلماتهم لموضوع الاتحاد أو الوحدة بين سورية ومصر، لا من قريب ولا من بعيد •

★ ★ ★

عدت الى دمشق ، بعد انتهاء الزيارة الرسمية وانقضاء مراسم الاحتفالات بأعياد الثورة ، وتأخر رئيس وأعضاء الوفد الباقون في

القاهرة • ولدى وصولي الى العاصمة السورية ، أقبل علي رجال الصحافة لمعرفة ما قام به الوفد من نشاط واتصالات ، فأوضحت لهم خلاصة ما شاهدناه في العرض العسكري الذي جرى في القاهرة وفي العرض البحري الذي جرى قرب شواطىء الاسكندرية ، وذكرت لهم وجهة نظر الرئيس المصري حول موضوع الاتحاد بين مصر وسورية •

ودخلت الامور مرحلة أكثر جدية ، عندما قدم من القاهرة وفد كبير من أعضاء مجلس الامة المصري برئاسة السيد أنور السادات، وقد جرى للوفد المصري استقبال رسمي وشعبي منقطع النظير عندما هبطت الطائرة المقلة للوفد ، حتى أن ساحات مطار المزة المدني ومهابط الطائرات كانت مزدحمة بالمواطنين السوريين الفرحين بلقاء أخوتهم المصريين مما عطل حركة الطيران في المطار ، وعوق هبوط الطائرة المصرية التي كادت تحط فوق رؤوس وأكتاف المستقبلين المبتهجين بهذا اللقاء العربي الاول من نوعه •

وقد عقد المجلس النيابي السوري في الثامن عشر من شهر تشرين الثاني ( نوفمبر ) ١٩٥٧ جلسة مشتركة حضرها أعضاء مجلس الامة المصري • وكانت الجلسة مظاهرة قومية رائعة ، رحب رئيس المجلس السيد أكرم الحوراني في كلمته التي ألقاها لدى افتتاح الجلسة « بنواب الامة العربية يجتمعون لاول مرة في التاريخ ، ليعلنوا على العالم كله ارادة الامة في تحقيق الوحدة العربية » •

واتخذ المجلس في نهاية الجلسة قرارا تاريخيا دعا فيه نواب المجلسين المصري والسوري حكومتي مصر وسورية للدخول في مباحثات مشتركة لاقامة اتحاد فدرالي بين القطرين العربيين •



وفي جلسة الخامس من شهر شباط ( فبراير ) عام ١٩٥٨ عقد مجلس النواب السوري آخر جلساته ، وكانت جلسة تاريخية حضرها فخامة السيد شكري القوتلي ، رئيس الجمهورية السورية ، وجلس في المكان المعد له في القاعة ، وبعد أن رحب السيد رئيس المجلس النيابي بالسيد رئيس الجمهورية ، ألقى الرئيس الاول خطابا مطولا استعرض فيه تاريخ القطرين العربيين مصر وسورية ، والظروف التي أدت خلال العامين الاخيرين الى لقائهما الاخوي الصادق على صعيد المبادىء القومية السامية . ثم أعلن من فوق المنبر ، الى العرب في مواطنهم ومهاجرهم ، ما سبق وأعلنه في القاهرة يوم الاول من شباط ( فبراير ) ، الميثاق القومي الجديد متضمنا المبادىء التي تم الاتفاق عليها لتكون أساسا في بناء الجمهورية العربية المتحدة ، وفاقا لما تقرر في الجلسة التاريخية المنعقدة في قصر القبة في القاهرة بين الحكومتين السورية والمصرية .

كان قرار أعضاء مجلسي الامة والنواب المصري والسوري المتخذ في الجلسة المشتركة التي عقدت في قاعة المجلس النيابي السوري بتاريخ ـ ١٨ تشرين الثاني ( نوفمبر ) ١٩٥٧ صريحا واضحا ، أعلن فيه نواب المجلسين رغبة الشعب العربي في مصر وسورية باقامة اتحاد فيدرالي ، ودعوا فيه حكومتي مصر وسورية للدخول فورا في مباحثات مشتركة ، بغية استكمال أسباب هذا الاتحاد [1] .

---

(١) نص القرار :

« ان نواب المجلسين المجتمعين اذ يعلنون رغبة الشعب العربي في مصر وسورية ، باقامة اتحاد فدرالي بين القطرين ، يباركون الخطوات العملية التي اتخذتها الحكومتان السورية والمصرية في سبيل تحقيق هذا الاتحاد ، ويدعون حكومتي مصر وسورية للدخول فوراً في مباحثات مشتركة بغية استكمال اسباب تنفيذ هذا الاتحاد » .

ولكن الميثاق الذي قدمه السيد رئيس الجمهورية السورية الى مجلس النواب السوري ، كان يتضمن المبادىء والاسس التي اتفقت عليها الحكومتان لاقامة وحدة كاملة بين القطريــن العربيــين[1] .

---

(١) نص الميثاق :

**مبادىء الدستور الموقت**

أولا – الدولة العربية المتحدة جمهورية ديمقراطية مستقلة ذات سيادة وشعبها جزء من الامة العربية .

ثانياً – تتكون الجمهورية العربية المتحدة من اقليمين هما مصر وسورية ويكون لكل اقليم مجلس تنفيذي يراسه رئيس يعين بقرار من رئيس الجمهورية ويعاونه وزراء يعينهم رئيس الجمهورية بناء على اقتراح رئيس المجلس .

ثالثاً – الحريات العامة مكفولة في حدود القانون .

رابعاً – الانتخاب العام حق للمواطنين عـلى الوجـه المبين في القانـون ومساهمتهم في الحياة العامة واجب وطني عليهم .

خامساً – يتولى السلطة التشريعيـة مجلس يسمى مجلس الأمـة . ويشترط ان يكون نصف الاعضاء على الاقل من بين أعضاء مجلس النواب السوري ومجلس الامة المصري .
– يحدد عدد أعضاء هذا المجلس ويتم اختيارهم بقرار من رئيس الجمهورية .

سادساً – يتولى رئيس الجمهورية السلطة التنفيذية .

سابعاً – الملكية الخاصة مصونة وينظم القانون أداء وظيفتها الاجتماعية ولا تنزع الملكية الا للمنفعة العامة ومقابل تعويض عادل وفقا للقانون .

ثامناً – انشاء الضرائب العامة أو تعديلها أو الغاؤها لا يكون الا بقانون ولا يعفى أحد من ادائها في غير الاحوال المبينة في القانون .
عاشراً – كل ما قررته التشريعات المعمول بها في سورية وفي مصر يبقى

وقد ذكر السيد القوتلي في نهاية خطابه الذي أعلن بموجبه مبادىء الميثاق ، « أنه يرى من واجبه أن يكون المواطن الاول ، في الدولة الجديدة ، يرشح سيادة الرئيس جمال عبد الناصر رئيسا لها، ثقة منه باخلاص الرجل العربي المؤمن الذي تعقد عليه الامة أكبر الآمال ، وتقديرا لما يتمتع به من صفات النزاهة والجرأة والاقدام ، وعلى رأسها تفانيه في خدمة أمته ، وقوميته العربية » •

وقد توجه السيد القوتلي بالشكر الى رئيس وأعضاء مجلس النواب السوري الذين مثلوا شعبهم خير تمثيل ، وتوجوا أعمالهم القومية الباهرة ، بقرارهم التاريخي في وحدة مصر وسورية ؛ مع أن تفويض المجلس للحكومة كان يدعو لاقامة اتحاد فيدرالي • كما أشاد برئيس الحكومة المجدة العاملة ووزرائها ، الذين بلغوا في مباحثات الوحدة القومية مع مصر العزيزة أوج التوفيق والنجاح وكتبوا بأقلامهم وثيقة الحرية والوحدة • ولم ينس سيادة الرئيس

---

ساري المفعول في النطاق الاقليمي المقرر له عند اصدارها . ويجوز الغاء هذه التشريعات أو تعديلها .

حادي عشر — تبقى أحكام المعاهدات والاتفاقيات الدولية المبرمة بين كل من سورية ومصر وبين الدول الاخرى سارية المفعول في النطاق الاقليمي المقرر لها عند ابرامها وفقاً لقواعد القانون الدولي .

ثاني عشر — تبقى المصالح العامة والنظم الادارية القائمة معمولا بها في كل من سورية ومصر الى أن يعاد تنظيمها وتوحيدها بقرارات من رئيس الجمهورية .

ثالث عشر — يكون المواطنون اتحاداً قومياً للعمل على تحقيق الاهداف القومية ولحث الجهود لبناء الامة بناءً سليماً من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية وتبين طريقة تكوين هذا الاتحاد بقرار من رئيس الجمهورية .

رابع عشر — تتخذ الاجراءات لوضع الدستور الدائم للجمهورية العربية.

طبعا دور الجيش العربي السوري الفتي الذي كان خير عامل من عوامل تحقيق الوحدة القومية بين جيشي الجزئين العربيين المناضلين. ولم ير سيادة الرئيس من المناسب أن يشير الى دور بعض ضباط الجيش السوري الذين تطوعوا بأنفسهم للذهاب الى القاهرة لمقابلة الرئيس المصري حيث ، هكذا بكل بساطة ودفعة واحدة ، استطاعوا هم واياه وبقدرتهم وخبرتهم الانقلابية قلب الاتحاد الى وحدة .

★ ★ ★

ان النائب الوحيد الذي كان مهيئا نفسه لمناقشة الميثاق التاريخي الذي أعلن من القاهرة منذ خمسة أيام ، وقبل موافقة مجلس النواب السوري عليه ، كان السيد خالد بكداش زعيم الحزب الشيوعي ، غير المرخص ، وقد اضطر لمغادرة البلاد عشية عقد الجلسة التاريخية التي كانت خاتمة عهد المجلس النيابي الذي كان عضوا فيه ، بعد أن أفهم صراحة بأنه لن يعطى الفرصة لمعارضة الميثاق ، وحتى للكلام. وكان ذلك المنع فاتحة لعهد سرى فيه تعطيل حرية الرأي والتعبير ، على المواطنين كافة ، وحتى على الوزراء ، الا من أسهم من خلال أجهزة الاعلام النشيطة القوية في التمجيد بالعهد الجديد ، لا وفق السياسة التي يرسمها المجلس التشريعي الذي لحظ الميثاق وجوب تشكيله من نصف أعضاء مجلس الامة المصري ومجلس النواب السوري ، لان هذا المجلس لم يجر تشكيله الا في وقت متأخر جدا ، وبشكل مخالف لاحكام الميثاق الذي اعتبر بمثابة دستور مؤقت للجمهورية العربية المتحدة ، بل وفق السياسة العليا المرسومة بمعزل عن الشعب ، أو بالحري وفق أهواء المتسلطين على مراكز القوة الذين كانوا يدأبون على العمل في الظلام كالاشباح ، والذين كان بعضهم مولعا ولعا كبيرا بتسيير شؤون الدولة وفق ما يوحى اليه في جلسات تحضير الارواح .

# ١١

## حلم فى عالم الارواح

**« للسلطان نشوة تستخف أصلب النفوس ، كما تستخف الخمر أقوى الرؤوس ، ولذلك ينبغي أن ندرك أن ليس هناك رجل ، مهما بلغت حكمته أو قوة خلقه ، جديراً بأن يؤتمن على سلطان مطلق » .**

« كولتون »

بعد أن جرى تعطيل المجلس النيابي السوري ، بمناسبة قيام الجمهورية العربية المتحدة ، كان من المنتظر أن يجري تشكيل مجلس الامة المبحوث عنه في الدستور المؤقت خلال فترة قصيرة . ولكن الذي حصل هو أن استغل الحدث العظيم ، للتخلص من المجلسين معا ، مجلس النواب السوري ومجلس الامة المصري . وانفرد السيد رئيس الجمهورية بممارسة السلطتين التشريعية والتنفيذية معا في غياب المجلس التشريعي .

وانصرفت في ذلك الحين لعملي في مكتبي ، وصباح السابع من

شهر تشرين الاول ( أكتوبر ) ١٩٥٨ ، وبينما كنت في القصر العدلي، جاءني موظف من ديوان وزارة العدلية يعلمني بأن السفارة المصرية في دمشق تسأل عني بالحاح وتطلب الاتصال معها بأسرع ما يمكن ؛ فاستغربت الامر وأفهمت الموظف العدلي ، بأنه بعد قيام الوحدة بين مصر وسورية لم يعد ثمة وجود لسفارة مصرية ، وان الامر قد يكون مجرد دعابة . ولكن الموظف اللبق تركني ورجع الى مقر وظيفته ، ثم عاد بعد قليل ليعلمني مجددا أن السفارة عادت تلح في طلب مكالمتي ، وأن المتكلم المصري ينتظرني على الهاتف . فطلبت من الموظف الحصول على رقم هاتف المتكلم ، لاتحدث معه عندما أفرغ من رؤية دعاوي . وبعد ذلك اتصلت بالرقم المعين ، وسألت عن صاحبه ، فورد الجواب بأنه السفارة المصرية ؛ ولما استوضحت عن سبب السؤال عني ، كلمني موظف مصري ثان وأبلغني دعوة سيادة رئيس الجمهورية لمقابلته في القاهرة ، وأن طائرة خاصة ستقلني الى عاصمة الجمهورية العربية المتحدة وهي بانتظاري في مطار المزة .

توجهت الى مطار المزة ، فوجدت عددا من كبار أساتذة الجامعة وهم الدكتور بشير العظمة ، والدكتور شوكة الفنواتي ، والدكتور أمجد الطرابلسي ، والدكتور وجيه السمان ، والدكتور عبد الوهاب حومد الذي كان وزيرا للعدل في الوزارة الاولى المشكلة بعد قيام الوحدة . وكان هؤلاء قد تلقوا دعوة مثلي للمثول أمام السيد رئيس الجمهورية ، وكان واضحا أن الدعوة وجهت لهم بصدد المباحثات الجارية في القاهرة ، لاعادة تشكيل الوزارة .

وكان في الوزارة السابقة بعض العسكريين ممن أسهموا فيما مضى بتعذيبي عندما اعتقلت قبل ثماني سنوات في عهد الديكتاتور الشيشكلي . لذلك عولت على الاعتذار عن قبول الاشتراك في الوزارة اذا كان القصد جمع الجلادين والضحية في وزارة واحدة .

ولكن في القاهرة علمنا ، وقبل مقابلة السيد الرئيس ، بأن تشكيل الوزارة الجديدة يجري في اتجاه اقامة عدة مجالس للوزراء، وزارة مركزية ومقرها القاهرة ومجلسين تنفيذيين ، واحد للاقليم الجنوبي والثاني للاقليم الشمالي ، وأن الوزيرين اللذين نفرت من فكرة مزاملتهما في وزارة واحدة قد أضحيا أعضاء في الوزارة المركزية التي سيكون مقرها القاهرة .

ولدى تشرفي بمقابلة السيد رئيس الجمهورية في الموعد المحدد لي في المساء ، استقبلني سيادته بحفاوة تامة . وقد بهرتني شخصيته القوية ، وحديثه الممتع الجذاب . وأعلمني بأنه اختارني لأكون وزيرا للثقافة والارشاد القومي ، وأنه بالاضافة لذلك سيوليني ثقته الخاصة بتكليفي ، اضافة للوزارة ، بمعالجة مشكلة شائكة تشغل باله ويريد لها حلا نهائيا ، وهي مشكلة الصحافة في الاقليم السوري .

★ ★ ★

وفي الاجتماع الكبير الذي عقد في قصر القبة في القاهرة برئاسة سيادة رئيس الجمهورية وعضوية جميع الوزراء المركزيين والتنفيذيين في كل من الاقليمين الجنوبي والشمالي ، أثير موضوع مؤامرة حلف بغداد وما كشف عنه انقلاب الرابع عشر من تموز ( يوليو ) ١٩٥٨ من وثائق ومستمسكات تدين عددا من السياسيين السوريين وبعضا من ضباط الجيش الذين كانوا على علاقة بالحلف المذكور ، وخاصة بسلطات الحكم العراقية . وكان السيد وزير الداخلية التنفيذي للاقليم الشمالي يحذر من أنه لا يستطيع ضبط الموقف وحفظ الامن العام مالم تتخذ تدابير فورية بحق من كشفت المستمسكات عن دورهم في مؤامرات الحلف البغيض .

وكان سيادة الرئيس حريصا على معرفة آراء الوزراء السوريين في مسألة الحلف المشار اليه ، وعلاقة بعض العناصر السورية به من مدنيين وعسكريين .

فأخذ كل من الوزراء السوريين يدلي برأيه في الموضوع من الزاوية الخاصة التي ينظر منها للامور العامة ٠

وقد حاول وزير العدل التنفيذي للاقليم الشمالي التخلص بلباقة من الاجابة ، بحجة أنه وزير فني ، لا يهتم كثيرا بالشؤون السياسية، ولا يمارس أي نشاط سياسي ، فلم يقبل منه سيادة الرئيس هذا العذر ، ورد عليه بأن مجرد قبوله منصب الوزارة ووجوده في هذا الاجتماع الوزاري قد جعله مسؤولا سياسيا عن معالجة القضايا الراهنة ٠ فاضطر السيد الوزير لابداء رأيه في الموضوع المطروح على بساط البحث بشيء من الاقتضاب ٠

ولما جاء دوري تكلمت بصراحة قائلا : « كان من المنطقي تماما عندما قامت الوحدة المباركة ، بين القطرين العربيين ، أن يصدر قانون بالعفو العام عن جميع الجرائم السياسية الواقعة قبل هذا الحدث العظيم ٠ ولكن أما وان جو البلاد أضحى مشحونا بالخطر أكثر من ذي قبل وبدأت المؤامرات تحاك ضد سلامة الجمهورية المتحدة ، كما أوضح السيد وزير الداخلية ، فأرى من المصلحة حسما لاي جدال حول موضوع مؤامرات حلف بغداد ، أن يحال من يكشف التحقيق القضائي عن اشتراكهم فيها الى المحاكم المختصة لتتولى محاكمتهم، فتدين المجرم وتخلي ساحة البريء ، وبذلك يمكن وضع حد للشائعات المغرضة ، ولما تنشره الصحف السياسية حول الكثيرين من السياسيين والعسكريين السوريين » ٠ ولم يسعني تجاه ما كانت تردده بعض الصحف القاهرية من أخبار ، وما تثيره من شكوك حول علاقة بعض العناصر الوطنية بالحلف الاستعماري المشؤوم ، الا أن أؤكد أن بعضا ممن تناولتهم الصحافة بالتشكيك ، هم وطنيون مخلصون وصادقون في وطنيتهم ، وربما كان بعضهم أكثر وطنية من بعض الحاضرين في هذا الاجتماع ٠

ونظرا لان السيد صبري العسلي الذي استقال من منصب نائب رئيس الجمهورية قبل أيام ، كان هدفا لغمزات تلك الصحف ، فقد ذكرت في سياق الكلام أن السيد العسلي كان زعيما لاحد جناحي الحزب الوطني المنقسم على نفسه ، وان جناح السيد العسلي كان يسير قبل قيام الوحدة في الاتجاه التحرري الذي سارت عليه الحكومة السورية السابقة المنبثقة عن التجمع الوطني البرلماني ، القائم على محاربة سياسة الاحلاف الاستعمارية ، والهادف الى التقارب مع الدول العربية المتحررة والى تحقيق وحدتها ؛ ولذلك فاني أستبعد أية علاقة بالحلف الاستعماري لهذا الجناح من الحزب الوطني ، أو لاي من قادته الذين كان من بينهم وزير الدولة السيد فاخر الكيالي ، الذي كان حاضرا الاجتماع ومشتركا في المناقشة التي دارت حول هذا الموضوع الحساس .

★ ★ ★

وكم كانت دهشتي بالغة عندما زارني صديقي المحامي الاستاذ أسعد الطباع بعد مدة ، وأبلغني أن السيد صبري العسلي عاتب علي عتبا شديدا لموقفي العدائي منه في الاجتماع الوزاري الذي عقد في القاهرة . ولما استطلعته عن أسباب ذلك العتب ، روى كيف أن السيد فاخر الكيالي زار السيد العسلي ، في داره ، وأطلعه على تفاصيل الاجتماع الكبير وطلب منه التوجه معه الى القاهرة لمقابلة سيادة رئيس الجمهورية لشكره على موقفه الايجابي منه ودفاعه عنه وحمايته له من انشوطة المشنقة التي طالب بوضعها حول عنقه بعض الوزراء السوريين ، وخاصة منهم الوزير رياض المالكي .

فأجبت السيد الطباع : « ان سيادة الرئيس ذكر فعلا في معرض الحديث عن السيد العسلي أنه قبل استقالته من منصب نائب رئيس الجمهورية بعد أن اطلع منه على الحقائق السياسية التي تتصل بموقف حكومته وحزبه من حلف بغداد . أما بالنسبة لشخصي ،

فلست أنا الذي أثرت موضوع الحلف وعلاقة السيد العسلي به ، ولم يجر بحضوري وعلى مسمع من جميع الوزراء الخمسين الذين كانوا يحضرون تلك الجلسة الهامة ، أي اثارة أو تحريض من أحد ضد السيد العسلي بشكل خاص • وان كلامي لم يقتصر على الدفاع عن السيد العسلي ، بل أكثر من ذلك فاني قد أشدت بدوره وبوطنية الجناح الذي كان يتزعمه والذي كان يضم من بين أعضائه الرسول الامين السيد فاخر الكيالي » •

فقال لي السيد الطباع : « مادام الامر كذلك ، أرى من المفيد أن تتصل بالسيد العسلي شخصيا لتطلعه على حقيقة الامر ؛ فان سعيت لزيارته في داره فستكون الزيارة مفيدة جدا لازالة هذه البقعة القاتمة من جو العلاقة بين السيد العسلي الذي يكن لك كل محبة وبينك ؛ وان أردت فسأجمعكما في داري » •

فقلت له : « ان السيد العسلي رجل دولة متمرس ، وسياسي محنك ، وليس من الغفلة في شيء ، حتى تنطلي عليه واحدة من الروايتين المتناقضتين ، رواية السيد الكيالي أو روايتي أنا » • وهو كنائب رئيس جمهورية سابق ، يستطيع أن يطلب الاطلاع وبشكل رسمي على المحضر المنظم بوقائع تلك الجلسة الخطيرة التي دار البحث فيها حول موضوع الحلف الاستعماري المشؤوم ، الذي كان يستهدف أول ما يستهدف شق صفوف العرب وضربهم ببعضهم • وعندما تظهر الحقيقة المجردة أمام ناظريه ، سوف يعرف ماذا قلت بحقه وبحق غيره ، وبعد أن يطلع سيادته على ذلك سوف لن أتردد في زيارته وبدون أدنى حرج » •

ولكن السيد العسلي لم يقم بزيارة القاهرة ولم يسعه الاطلاع على مضمون المحاضر ، وان كانت الدسيسة التي أثارت حفيظته

ضدي ، وكانت على مستوى وزاري ومن مصدر مركزي جعلته يضيف تجربة سياسية من نوع جديد الى تجاربه السياسية المتعددة .

* * *

نوه سيادته في مقابلتي الثانية له عن الاهمية الكبرى التي يوليها لأجهزة الاعلام ، وأكد أنها ، في نظره ، أهم من القوات المسلحة ، لأن الحرب الدائرة بين العرب واليهود هي حرب نفسية دعائية تلعب فيها أجهزة الاعلام الدور الاكبر ، أما بالنسبة للقوات المسلحة فلا دور كبير لها في مثل هذا الظرف الذي تمر فيه القضية العربية .

ولما لمح سيادة الرئيس على وجهي علائم الاستغراب ، لسماعي مثل هذا الكلام ، من رجل عسكري احتل المركز الاول ومكان الصدارة ، لا في قيادة الشعب المصري وحده ، بل في زعامة الامة العربية كلها ، وقلوب العرب أجمعين وقد أصبحوا يعلقون على قيادته أكبر الآمال في الاعداد الحربي للقضاء على دولة العدوان ، قال سيادته : « ان العرب لن يقووا على محاربة اسرائيل ، مادامت حكومة الولايات المتحدة الاميركية تقف الى جانبها بكليتها ، لا تكتفي بتزويدها بالمساعدات من جميع الانواع ، بل هي متأهبة وبشكل دائم لحمايتها ضد أي حرب هجومية من جانب العرب ؛ بل أكثر من ذلك ، انها على أتم استعداد لخوض المعركة الى جانبها ولارسال جيوشها وأساطيلها للذود عن كيانها ، في حين أن الاتحاد السوفييتي يحجم عن مجاراة أمريكا في هذا السبيل بالنسبة لموقفه من أصدقائه العرب ، وان أقصى حدود دعمه لهم يقتصر على مدهم بالمساعدات الاقتصادية والسلاح فقط » ..

وللتدليل على وجهة نظره هذه ، مد سيادة الرئيس يده الى

جيب سترته ، وأخرج حافظة نقود صغيرة حمراء ، فتحها وسحب منها البرقية التي كان أرسلها له من موسكو السيد شكري القوتلي، رئيس الجمهورية السورية السابق ، عندما قام بزيارته المشهورة الى الاتحاد السوفييتي عام ١٩٥٦ ، وبصحبته السيد صلاح الدين البيطار الذي كان وزيرا للخارجية آنذاك • وأطلعني على نص البرقية التي أوضح فيها الرئيس السيد القوتلي حقيقة موقف الاتحاد السوفييتي ابان العدوان الثلاثي الذي شنته دول انكلترا وفرنسا واسرائيل على الاراضي المصرية أثناء وجود الوفد السوري في العاصمة السوفييتية• وكانت البرقية تلخص استعداد السوفييت لدعم حكومة مصر بالمساعدات الاقتصادية والسلاح فقط ، دون خوض المعركة الى جانب القوات المصرية •

وشدد سيادة الرئيس على خطورة هذه البرقية ، وذكر أنه بالنظر لسريتها ، وأهميتها الفائقة فانه يبقيها معه شخصيا ، وبشكل دائم ، من دون سائر الوثائق الرسمية التي تحفظ عادة في مكاتب الرئاسة لتضم الى « أرشيف » الدولة • وأكد سيادته أنه سيحتفظ بهذا السر لحين وفاته ، وبعدئذ يترك مستنده الخطير ليبقى في ذمة من يتولون شؤون الدولة بعده • وشدد سيادته في كلامه على ضرورة عدم البوح بهذا السر حذرا من تسربه الى دوائر الاعداء نظرا لانه يتعلق بستراتيجية الموقف العربي لا بل بمصير الامة العربية كلها •

ولكن كم كانت دهشتي عظيمة ، بعد أسابيع قليلة عندما وقف سيادة رئيس الجمهورية العربية المتحدة ، في ميدان بور سعيد ، يخاطب جماهير الشعب المحتشدة ، يوم عيد النصر ، منددا بموقف الاتحاد السوفييتي من العرب أيام حرب قناة السويس في عام ١٩٥٦ ، وانسياقا منه مع موجة الحماس التي اكتسحت نفوس تلك الجماهير الصاخبة الناقمة ، نقمة قائدها على الشيوعيين والساخطة

على بلد الشيوعية الام ، أخرج سيادته من جيب سترته ومن الحافظة الحمراء ذاتها ، برقية الرئيس السوري الموجهة اليه من موسكو ، وبعد تلاوة مضمونها الحرفي ، صار يلوح بالبرقية اياها في الهواء ، وتابع خطابه مهاجما العدو الاستعماري الجديد الذي يتلبس لبوس الصداقة ، وساخرا بشكل خاص من السيد نيكيتا خروتشوف ، رئيس حكومة الاتحاد السوفييتي آنذاك • ولا أدري في الحقيقة فيما اذا كان لهذا الهجوم الكلامي الصاعق على حكومة الاتحاد السوفييتي الصديق ، وعلى الحزب الشيوعي السوفييتي ، وعلى زعامته متمثلة بشخص السيد خروتشوف ، الاثر في حمل تلك الزعامة على منح سيادة رئيس الجمهورية العربية المتحدة ، بعد فترة غير طويلة من حملته المعادية تلك ، وسام لينين الرفيع ولقب بطل الاتحاد السوفييتي العظيم •

★ ★ ★

دعاني السيد صلاح الدسوقي ، السكرتير الاول لرئاسة مجلس الوزراء والذي عين فيما بعد محافظا للقاهرة ، الى حفلة صغيرة في داره العامرة ، ودعا اليها كلا من الفريق المتقاعد السيد عزيز علي المصري ، الذي لعب دورا كبيرا في الكفاح العربي منذ مطلع القرن العشرين ، والفريق عفيف البزري الذي أقيل قبل فترة من منصبه كقائد للجيش الاول في الاقليم السوري وفرض عليه البقاء في القاهرة حيث جرى تعيينه عضوا في المجلس الاعلى للتخطيط •

وكان الفريق عزيز المصري ، يبدو خفيف الظل ، نشيط الحركة رغم تجاوزه الثمانين من عمره ، يملأ الدار مرحا وحبورا ، وكان واضحا من حديثه أنه مؤيد لنظام الحكم ، ولخطواته الثورية • أما الفريق البزري فكان عابسا ، متجهم الوجه ، قليل الكلام ، متحفظا

في حديثه ، بينما كان المضيف السيد الدسوقي ، في منتهى الذوق والكياسة •

وفي صباح اليوم التالي ، ذهبت لمقابلة السيد رئيس الجمهورية في داره الكائنة في منشية البكري ، فبادرني بالسؤال عن الفريق البزري وعما اذا كنت ألتقي به ؛ فأجبته أن الرجل صديق شخصي لي، وأني كنت مدعوا واياه في الامس على مائدة السيد الدسوقي • فسألني عن رأيي فيه وعن اتجاهه السياسي ؛ فأجبته بأن الرجل عنصر وطني تقدمي ذو نزعة يسارية • فعاد لسؤالي : هل هو شيوعي ؟ أجبت : « لا أظن أنه شيوعي ، وفي الاصل ان تنظيم الشيوعيين سري، وتشكيلاتهم مكتومة ، لا يتسنى للمرء معرفتها أو الاطلاع عليها • ومع ذلك اني أعتقد بأن الفريق بزري ليس شيوعيا » •

فعلق السيد الرئيس على كلامي ، بأنه مطلع على جميع تشكيلات الشيوعيين في الاقليم السوري ، وأنه لا يخفاه شيء من نشاطهم وأسرارهم • وكان من عادة الرئيس أن يستقصي المعلومات من زائريه عن الاشخاص الذين يهتم بمعرفة أحوالهم ، وأوضاعهم ، ونشاطهم ، كما يهتم بمعرفة آراء أوساط معينة بشخصه وحكمه • ومن جملة الاوساط التي كان يحرص على معرفة أخبارها ، مقهى البرازيل المشهور في دمشق ، ورواده الظرفاء ، وتعليقاتهم الذكية ، ونكاتهم اللاذعة • وقد سألني مرة : « بيحكو ايه في مقهى البرازيل؟» فأجبته باختصار بأني لست من رواد هذا المقهى وبأني لا أهتم كثيرا بما يدور بين سماره من أحاديث ••

★ ★ ★

وفي المقابلة التالية ، لامني السيد الرئيس على الخطاب الذي ألقيته في الاحتفال الرسمي والشعبي الذي أقيم في ناحية النشابية

التابعة لمنطقة دوما ، لدى افتتاح المركز الاجتماعي الذي أسسته ، في قرية حران العواميد ، وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل بمساعدة واشراف الجامعة العربية ، كما ندد سيادته بخطابات باقي الوزراء والخطباء الذين انتقدوا في كلماتهم موقف الشيوعيين السلبي من قيام الوحدة بين القطرين .

فقلت لسيادته بأن الكلمات في الحقيقة ، لم تخرج عن حدود النقد الايجابي البناء ، وكان الهدف منها دعوة مواطنينا جميعا للالتفاف حول الوحدة وحكومتها ورئيسها الاعلى ، والاسهام مع سائر فئات المواطنين في توطيد دعائم دولتها الفتية .

ولكن السيد الرئيس لم يقنع بكلامي ، واعتبر أن المهرجان الخطابي ، كما صورته تقارير المخابرات ومن بينها تقرير السيد وزير الشؤون البلدية والقروية الذي توجه الى القاهرة خصيصا لرفعه ، قد أفسد عليه خطته في توقيت المعركة مع الشيوعيين ، مع أنه لم يكن يخطر ببال أي من الوزراء الخطباء أن تكون السلطات العليا تتأهب لخوض المعركة مع الشيوعيين أو مع غيرهم ، وتعد العدة سلفا للزج بالاعداد الغفيرة من أبناء الشعب في السجون ، بعد أن كانت وزارة الداخلية في الاقليم السوري تغض النظر عن نشاط الشيوعيين المتزايد ، وتعطي الحزب الشيوعي ، غير المرخص ، الفرصة الكاملة لعقد اجتماعاته العلنية وتنظيم احتفالاته ومهرجاناته الخطابية التي كان السيد وزير الداخلية يحرص ، كل الحرص ، على رعايتها وحضورها بنفسه .

كان يجري ذلك النشاط الشيوعي الواسع ، في وقت كانت فيه باقي الاحزاب السياسية كلها غائبة عن المسرح ، بعد أن حلت نفسها بنفسها ، نزولا عند رغبة وشروط السيد رئيس جمهورية مصر لدى موافقته على توحيد البلدين .

وقد اتضح فيما بعد ، أن الغاية من تشجيع الشيوعيين على المجاهرة بتصعيد نشاطهم وتنشيط حركتهم ، هو كشف قواعدهم وقياداتها معا ، تمهيدا لضربها وتصفيتها •

وقد ظل السر الكبير الذي حير دوائر الامن التابعة لوزارة الداخلية المركزية ، هو الكيفية التي نجا بواسطتها قادة الحزب الشيوعي من الفخ المنصوب لهم ، حيث تمكن القسم الاعظم منهم من الفرار ومغادرة البلاد ، بينما انصبت موجات الاعتقال والتنكيل على رؤوس أعضاء قواعد الحزب الشيوعي وأنصاره ثم امتدت حتى تناولت غيرهم من المواطنين •

★ ★ ★

لقد كانت تنحية الفريق عفيف البزري عن قيادة الجيش الاول، واستقصاء المعلومات عن أحوال المواطنين ، وأوضاعهم ، وميولهم ، ونشاطاتهم ، فاتحة عهد أقصي فيه عدد كبير من الضباط الوطنيين عن الجيش ، وزج بعدد وفير منهم في السجون ، تحت ستار محاربة العناصر الشيوعية والنشاط الشيوعي • وربما كان خطأ الشيوعيين في أنهم اتخذوا موقفا سلبيا من قيام الوحدة ، تحت شعار الدفاع عن الحريات الديمقراطية ، وكأنهم أسهموا بشكل غير مباشر باعطاء الفرصة لشن حملة الارهاب الواسعة التي لم يقتصر أثرها عليهم ، بل انما أدت من حيث النتيجة الى تناول جميع العناصر الوطنية وامتدت حتى تناولت جميع المواطنين على السواء ، الا من التزم بيته، أو هجر بلده ، أو سمح لنفسه بأن يصبح جزءا من الاجهزة الخفية، أجهزة المخابرات ، وقد اتسمت أساليبها بالوحشية البربرية ، كما اعتمدت على دعم المخابرات الامريكية وما استقدمته من خبراء نازيين مختصين في فنون الارهاب والتعذيب •

وقد أخذت الحملة في أجهزة الاعلام ضد الشيوعيين عامة ، وضد حكم الزعيم عبد الكريم قاسم في العراق خاصة ، شكلا نابيا، بلغ حد السباب والشتائم ، ولم تقتصر على الاذاعة والصحافة ، بل انما اضحت المراكز الثقافية التابعة لوزارة الثقافة والارشاد القومي مسرحا لحملات الشتم والردح ، فخرجت بذلك عن الدور التثقيفي المرسوم لها •

وكانت المراكز الثقافية ، المنتشرة في بعض المحافظات ، مرتبطة في الاصل بالسفارة المصرية في دمشق ، ثم ألحقت بعد قيام الوحدة بوزارة التربية ، وظل الاشراف عليها خاضعا عمليا لوزارة التربية في الاقليم الجنوبي وبشكل خاص لتوجيه المخابرات ، الى أن أحدثت وزارة الثقافة في الاقليم الشمالي فصار الحاق تلك المراكز بها بناء على طلبي واصراري •

لذلك وجدت من الضروري دعوة المشرفين على تلك المراكز لحضور اجتماع عقد في دمشق ، لاحكام ربط نشاطها بالوزارة ، لان بعض المدراء أو معاونيهم من أبناء الاقليم الجنوبي المعينين في تلك المراكز ، قبل ربطها بوزارة الثقافة ، ظلوا يتصرفون وكأنهم مستشارون سياسيون ، وباعتبارهم جزءا من السلطات الخفية التي تريد أن تتحكم بكل شيء ، دون أن يتقيد موظفوها بواجبات الوظيفة وبالانضباط المسلكي ، حسب القوانين والانظمة المحلية التي أوجب الدستور المؤقت احترامها •

وكان من أبرز نقاط جدول الاعمال المعد لذلك الاجتماع ، هو توجيه النشاط الثقافي في اتجاه العلم والمعرفة ، وتنشيط الحركة الثقافية والفنية بمعزل عن أحابيل السياسة ومتاهاتها • وقد أوصيت الجميع بأن يسهروا على الابتعاد عن المعارك السياسية ، وبأن يتجنبوا انزلاق المراكز الثقافية في هوة الحملات الكلامية الهوجاء التي لا

تضعف من قوة الحركة الشيوعية ، بل انما تورث المثقفين والرأي العام النفور والاشمئزاز .

وبينت أن السبيل الاوحد لمقاومة التيارات الفكرية المعادية لفكرة القومية العربية ، هو في التركيز وبشكل ايجابي على المبادىء القومية التي تقوم عليها حركة النضال العربي ، لان الفكر السياسي لا يجابه الا بفكر أعمق ، محذرا من مغبة اتباع الاساليب السلبية أو العنيفة ، لان العنف لا يجر الا العنف ، منبها الى الالتزام بواجب أساسي ، وهو أن نجنب مجتمعنا المعارك الجانبية التي تلهي أبناءه عن العمل الايجابي الخلاق ، وتشتت جهود المواطنين دون طائل .

ولكن بعض المدراء ومعاونيهم من العناصر المرتبطة بأجهزة المخابرات ، استغلوا ذلك التوجيه الصريح الذي رسمته ، ليرفعوا التقارير السرية وينشروا في المحيطات التي يعملون في وسطها ، بأن وزير الثقافة شيوعي أحمر ، وأن توجيهاته مناهضة لسياسة الدولة.

ولم يكن فشل تلك السياسة الرامية الى محو الشيوعية ، بأقل من فشل الوزارة ، التي كان لي شرف تأسيسها ، في برامجها الرامية الى محو الامية .

وعلى ضوء ذلك الفشل الذريع الذي خرجت به الخطة الامريكية في ضرب النشاط الشيوعي عن طريق الاضطهاد والارهاب والتنكيل والسجون ، عدلت السياسة الامريكية خطتها ولجأت في المستقبل وعن طريق الحكومات الموالية لها أو التي هي من صنعها ، لاتباع أسلوب توظيف اليسار الشيوعي واغراق عناصره البارزة والنشيطة في المناصب الحكومية والوظائف الرسمية والمكاسب المادية والاغراءات النفعية ، وتمكنت ، بهذه الطريقة الناجعة ، من اضعاف الحركة الشيوعية وتفتيتها ، بخلق التناقضات الطبقية بين أعضائها

وأنصارها ، وضربهم ببعضهم ، وخلق الانقسامات العديدة في صفوفهم ؛ وحققت بذلك نجاحات كبيرة أضحت آثارها وتائجها بادية للعيان •

★ ★ ★

توجهت الى القاهرة وكان قد مضى أكثر من شهرين على تشكيل الوزارة ، والتقيت بوزير الصحة المركزي ، وسألته عن أحواله وعن سير شؤون وزارته • فشكا أنه لم يتسن له ، حتى الآن ، التعرف على أي شأن من تلك الشؤون ، لأن وزارته محدثة وليس لها أي نظام أو جهاز ، وأنه يستغرب كيف دعي للاسهام في الحكم ، في الوقت الذي يلاحظ فيه أنه ليس له أية مهام أو صلاحيات يتولاها• وقال انه ليس رجلا سياسيا ، وليست له أية علاقة بالاحزاب السابقة في الاقليم السوري ، فلو ترك لعمله الاساسي كأستاذ في الجامعة ، وكطبيب صاحب عيادة ، لافاد المجتمع أكثر من وجوده في منصب وزاري لا عمل له فيه • فسألته : « ولماذا لا تقابل سيادة رئيس الجمهورية وتبحث معه مسألة تحديد صلاحيات الوزارة المركزية وتقدم لسيادته مشروعا بتنظيم أجهزة ودوائر الوزارة وتعيين وظائفها، كما جرى بالنسبة لوزارة الثقافة والارشاد القومي التي أحدثت أخيرا وسميت أنا وزيرا لها في الاقليم الشمالي ؟ » •

فأجاب بأنه طلب أكثر من مرة مقابلة سيادة الرئيس ، ولكنه لم يحدد له موعد لذلك حتى الآن رغم مضي هذه المدة الطويلة على تسميته وزيرا • فقلت له : « ربما كان موظفو قصر الرئاسة الذين طلبت المقابلة بواسطتهم لم يبلغوا سيادة الرئيس ذلك ، اما عن اهمال أو لكثرة الاعمال » • فعقب على كلامي قائلا : ان المسعى لم يقتصر على موظفي الرئاسة ، اذ أنه ومنذ أكثر من شهر قابل زميله السيد وزير الدولة لشؤون الرئاسة وأظهر له عدم رضاه عن الحالة التي

هو فيها ، وأن وزير الدولة وعده خيرا ، ولكنه حتى الآن لم يتلق منه خبرا ، سلبيا أو ايجابيا . فوعدته بأن أبحث المسألة مع سيادة رئيس الجمهورية ، لدى مقابلتي له في الموعد المحدد في اليوم التالي. وفعلا لدى اجتماعي بسيادة الرئيس ، سألني عن الاحوال في الاقليم الشمالي ، فأجبته : « يصح أن تسألوني عن أحوال الاقليم الجنوبي» ، فنظر الي ، والدهشة بادية على وجهه ، مستطلعا الخبر ، فأردفت قائلا: « أرى من الضروري أن تلتقوا سيادتكم بالوزراء المركزيين السوريين الموجودين في العاصمة لتستطلعوا منهم أخبارهم وتطلعوا على أحوالهم » فأكد سيادته بأنه يلتقي دائما بمن يطلب منهم مقابلته ، فأردفت : « ان وزير الصحة المركزي لم يحظ بهذه المقابلة ، رغم سعيه الحثيث لها ، منذ أكثر من شهر » . فنفى سيادته أن يكون أحد ما قد أطلعه على رغبته هذه . قلت : « ولكن الوزير المركزي قابل زميله وزير الدولة لشؤون الرئاسة ، ورجا منه السعي لتحديد موعد لمقابلة سيادتكم » . وتجاه هذا الالحاح من جانبي على هذا الموضوع، قال سيادته وبلهجة جافة : « أنا لا أريد مقابلة وزير الصحة المركزي، أنا ما عنديش وقت أضيعه بالدردشة مع الوزراء . ان نائبي المشير عبد الحكيم عامر عندما يقوم بمقابلتي ، يقصر بحثه معي على المواضيع المحددة للمقابلة ولا يتعداها لغير ذلك من الامور الخارجة عن الصدد، رغم كونه صديقا شخصيا لي » . قالها سيادته بنبرة قاسية ، وكأنه يريد أن يفهمني أنني تجاوزت حدود الدائرة المرسومة لي . فكففت عن متابعة الحديث حول الموضوع المتعلق بوزارة الصحة المركزية ، وانتقلت الى بحث الامور المتعلقة بوزارة الثقافة والارشاد القومي وخاصة ما يتعلق بشؤون الصحافة في الاقليم السوري التي اعتمد علي السيد الرئيس شخصيا لمؤازرته في معالجتها ، حسب الخطة المرسومة قبل اشتراكي في الوزارة والتي شرحها سيادته في الاجتماع

الوزاري الكبير الذي عقد اثر تشكيل الوزارة الثانية في أوائل تشرين الاول ( اكتوبر ) عام ١٩٥٨ •

★ ★ ★

زارني في فندق سمير اميس في القاهرة السيد محمود رياض المستشار الخاص لدى رئاسة الجمهورية ، وقد كان سابقا سفيرا لمصر لدى حكومة الجمهورية السورية ، وقد أسهم بشكل بارع في دفع السياسة السورية للتعجيل باقامة الوحدة بين القطرين العربيين المصري والسوري • وكانت هذه أول مرة ألتقي فيها بهذا الدبلوماسي العربي الذي يتحلى بكثير من اللطف واللباقة ، فظننتها بادىء الامر زيارة تعارف • ولكن بعد تبادل عبارات المجاملة التقليدية ، فاتحني سيادته بأنه يود أن يبحث معي موضوعا خاصا ، يهمه شخصيا ، وهو يتعلق بالسيد أحمد عسة صاحب جريدة « الرأي العام » التي كان جرى تعطيلها بأمر اداري قبل اشتراكي في الوزارة • ورجاني أن أسعى مع سيادة الرئيس ، لدى مقابلته ، بأن ألطف الجو بينه وبين السيد عسه وبأن أسعى للافراج عن صحيفته ، ولو مؤقتا ، ريثما تتم معالجة قضايا الصحف حسب السياسة المرسومة ، فيخضع آنئذ صاحب « الرأي العام » لما يخضع له أصحاب باقي الصحف السورية• وفسر لي السيد رياض اهتمامه بأمر هذه الجريدة ، بأن صاحبها ساهم في تقديم خدمات كبرى للسفارة المصرية في دمشق قبل قيام الوحدة • فسألته بصراحة : « ولماذا لا تقوم أنت بهذه الشفاعة لدى سيادة رئيس الجمهورية ، خاصة وأنك ساعده الايمن فيما يتعلق بشؤون الاقليم السوري ، وشهادتك بما قدمه صديقك الصحفي من خدمات سابقة قد تكون مقنعة أكثر من مسعاي الشخصي المنشود»• فأجابني السيد رياض ، وسحابة ظاهرة من الالم تعلو وجهه : « عجيب أمركم أيها السوريون ، انكم تعتقدون جميعا أن لا حاجبا أو بوابا يحول بيني وبين مقابلة سيادة الرئيس • والحقيقة التي لا

أكتمها عنك هي أنه تمضي أسابيع وشهور لا أقابل فيها سيادته الا اذا دعاني لمقابلته ، وآنئذ يقتصر البحث بينه وبيني على الامور التي يهتم سيادته ببحثها معي • واذا كنت قد قصدتك أنت بالذات للاهتمام بقضية « الرأي العام » ، فما ذلك الا لانك الوزير المكلف بمعالجة قضايا الصحافة في الاقليم الشمالي ؛ وسيتسنى لك ، حسب تقديري ، اثارة موضوع هذه الجريدة ، واقتراح الافراج عنها ، ولو لايام ، كي يكون ذلك بمثابة رد اعتبار لشخص صاحبها الذي هو متألم جدا لغضب سيادة الرئيس عليه ، في حين أنه لا يبتغي الا مرضاته ، وأملي أن لا تهمل القيام بهذا المسعى لان أمر السيد عسة يهمني شخصياوأعتقد أنه يهمك أيضا »• فوعدتالمستشارالسيدرياض بأن أقوم بذلك اكراما لخاطره ؛ وقد نفذت وعدي وبذلت مسعاي، ولكن دون تحقيق النجاح الذي كان ينشده السيد رياض ••

★ ★ ★

سألني السيد رئيس الجمهورية في احدى المقابلات قائلا : « ايه دي حكاية المواطن العربي الاول معاكم ؟ » فحسبت أن هناك ثمة شكوى من جانب رئيس الجمهورية السورية السابق السيد شكري القوتلي حول اساءة ، أو سوء تصرف قد يكون بدر بحقه من بعض مرؤوسي في الوزارة ، أو في أجهزة الاعلام ؛ ولما استوضحت سيادة الرئيس عن الامر ، قال : « ان أجهزة الاعلام السورية لا تفتأ تكرر اسم وأخبار الرئيس السابق كل يوم وفي مطلع النشرات الاذاعية ، كما لو كان هو الرئيس » •• وأكد سيادته على أن جميع أجهزة الاعلام في الدول الراقية لا تسلط الاضواء الا على الرئيس الاول الذي هو رمز للبلاد • وأوصى سيادته بأنه لايريد ، من الآن فصاعدا ، أن يتكرر هذا الخطأ •

ولما عدت الى عاصمة الاقليم السوري ، قدرت بيني وبين نفسي

ما سيحدثه مثل هذا التوجيه من مشـاكل وعقـد في نفس الرئيس السابق وفي الاوساط المؤيدة له ، خاصة وأن مديري الاذاعة والدعاية والانباء هما من أنصاره الشخصيين ولن يلبثا أن يسرعا اليه بحمل خبر السوء ؛ ولذلك أصدرت الاوامر الى كل منهما بشـكل مطلق ومجرد عن ذكر الاسماء • وأكدت في توجيهي لهما بأن الاضواء لا يجوز أن تسلط ، بعد اليوم ، الا على شخص السيد رئيس الجمهورية العربية المتحدة دون غيره من الاشخاص الرسميين وغير الرسميين ، فهو الزعيم المفدى ، وهو الرمز السامي ، وهو السلطة العليا ، التي يجب أن تحتجب من دونها كافة الزعامات وسائر السلطات • أمـا بالنسبة لباقي المسؤولين والوزراء ، فالاضواء لـن تسـلط عـلى أشخاصهم والاخبار لن تذاع من الآن فصاعدا ، الا حول نشاطات الاجهزة التي يتولون زمام أعبائها ، وبشكل موضوعي بعيد عـن الدعاية الشخصية لهم •

وفي صباح اليوم التالي لاصدار هذا التوجيه ، اصطدم مدير الاذاعة بمشكلة عويصة التجأ الي لحلها، ذلك أن قائد الجيش الاول ، العائد لتوه من زيارة شخصية لامارة الكويت أرسل الى دار الاذاعة نص البرقية التي وجهها الى سمو أمير الكويت ، يشكره فيها على ما لاقاه لديه ، وفي رحاب أمارته الغنية ، من حفاوة وكرم • وعندما اعتذر مدير الاذاعة عن اذاعة البرقية في نشرة الاخبار ، هدده قائد الجيش وأنـذره بالويـل والثبور ان هـو وقف عائقا في طريـق اذاعة النبأ السعيد والحدث الخطير • واستغاث مدير الاذاعة بي مبديا أن حالته ومركزه وأعصابه لن تقوى على مجابهة مثل هذا التهديد ؛ فشجعته على المضي في طريق تنفيذ الاوامر كما أعطيتها له ولزملائه؛ واتصلت بدوري بسيادة قائد الجيش الاول الذي حاول الاحتجاج بشدة وصخب ضد هذا الاجراء التعسفي والغبن الشديد الذي يلحقه

من جرائه ، ولكنه ما لبث أن تراجع عن صخبه ، واقتنع بجدية الموقف وصحة التوجيه ، عندما اطلع مني على أنه ليس تصرفا فرديا من جانب مدير الاذاعة ، أو أمرا اعتباطيا صادرا عني ، بل انه تنفيذ لاوامر عليا صادرة عن سيادة رئيس الجمهورية ، القائد الاعلى للجيش والقوات المسلحة .

★ ★ ★

كنت في القاهرة متأهبا للعودة الى دمشق ، بعد أن أنهيت الاعمال التي قصدت العاصمة العربية الكبرى من أجلها ، وبعد أن حجزت لي شركة الطيران العربية مقعدي وحددت رقم الرحلة الجوية وموعدها ، اتصل بي موظف كبير من قصر الرئاسة ، ودعاني للسفر صحبة سيادة الرئيس ونوابه والوزراء المركزيين والتنفيذيين في الاقليم المصري ، في رحلتهم المقررة الى الجنوب . ولما حاولت الاعتذار بحجة السفر الى الاقليم السوري في نفس اليوم ، للالتحاق بعملي ، ألح موظف الرئاسة على ضرورة اشتراكي في تلك الرحلة ، وذلك بناء على دعوة سيادة الرئيس نفسه ورغبته في سفري بصحبته، مع سائر المسؤولين الموجودين في القاهرة . فأرجأت عودتي الى دمشق ، وفي الموعد المحدد أقلتني عربة الرئاسة الى محطة القاهرة حيث التقيت بموكب سيادة الرئيس وصحبه ، وامتطينا جميعا القطار الخاص الذي أقلنا عبر أقاليم مصر الواسعة ، حتى وصلنا الى مدينة المنيا .

كانت السفرة ممتعة حقا ، ومفيدة جدا ، لانها أتاحت لي الاطلاع ، عبر المسافات الطويلة التي اجتازها القطار ، على الريف المصري ، وبنادره وقراه ، والتعرف على جماهير الشعب العربي المصري الطيب . وكان لقاء الملايين من أبناء هذا الشعب العظيم المحتشدين على امتداد الخط الحديدي ، لقاء مؤثرا جدا ؛ لقد خرجت

جماهير الفلاحين والمواطنين عن بكرة أبيهــا ، الشباب والشيوخ ، النساء والاطفال ، خرجوا جميعا للقاء الموكب الرســمي الكبــير ؛ والسعيد من بين هؤلاء من يحظى برؤية طلعة القائد العظيم ، والاكثر سعادة هو من يتمكن من الاقتراب من شخصه الكريم ، أو على الاقل من القطار ، وهو يخفف من سيره ليقف دقائق معدودات في المحطات الفرعية ، أو لمدة أطول في المحطات الرئيسية •

كانت الحشود الكبيرة تتحرك في الساحات والميادين وكأنها البحر المتموج ، والهتافات تنطلق من الحناجر مدوية في الفضاء وكأنها الريح الهادر ، تهتف بصوت واحد للزعيم المفدى ولمبادىء القومية العربية • وكان الشعار السائد : « حنبني السد » ، تعبيرا عــن عزم أصحاب السواعد السمراء المفتولة على بناء سد أسوان الكبير ؛ واللافتات الكبرى تحمل عبارات الترحيب والولاء للأمة العربيــة ولقائد مسيرتها المظفرة ، وعلم الجمهورية العربية المتحدة يعانق العلم المصري الاخضر القديم ، يزينان الابنية والاكواخ ، ويزيدان المشهد رونقا وبهجــة •

ولا يسع الانسان العربي ، ازاء هذا المنظر الرائع وهذا الاتجاه الجماهيري الواسع في طريق القومية العربية ، الا أن يبتهج ويتفاءل بمستقبل الامة العربية • فعشرات الملايين من العرب المصريين حاولت سياسة التجزئة الاستعمارية أيام الاحتلال ، عزلهم نهائيا عن جسم الامة العربية ، فاذا بحركة الضباط الاحرار التي حررت القطر العربي المصري من ربقة الاستعمار وذل الاحتلال ، وقضت على النظــام الملكي وعلى الاقطاع في آن واحد ، تدفع بالشعب كله في طريــق الوحدة العربية • وقد عبرت عن انطباعي هذا لسيادة الرئيس خلال الحديث الذي دار بينه وبيني في القطار أثناء تلك الرحلة الميمونة ، وأشدت بالدور الايجابي للضباط الاحرار الذين كان لهم الفضل

وتحت قيادته الحكيمة في تحقيق هذا الانعطاف التاريخي الكبير في حياة شعب مصر • فعلق سيادة الرئيس على كلامي ، مؤكدا بأنه لم يكن للضباط الاحرار أي دور في قيام الوحدة ، وأنه هو وحده الذي دفع الامور في هذا الطريق ، وأنه عندما لاحت تباشير الوحدة بين القطرين المصري والسوري ، طرح الموضوع على مجلس الثورة فعارض جميع أعضائه فكرة قيام أي شكل من أشكال الوحدة أو الاتحاد بين البلدين ، وكانت حجتهم الاساسية بأن مشاكل مصر وحدها تكفي لاستغراق وقت الحكومة المصرية واستنفاد جهود أعضائها ، وأنهم لا يحبذون اضافة أعباء جديدة فوق أعبائها • وذكر سيادته بأنه لم يأبه لتلك المعارضة ، ومضى في سياسته العربية وخطواته الايجابية التي عجلت بقيام الجمهورية العربية المتحدة •



وكان حريا بالقيادة التي قابلها الشعب العربي في اقليمي الجمهورية الجديدة ، مصر وسورية ، بمثل هذا التأييد الجماهيري الواسع والمنقطع النظير ، أن تسلك السبيل الصحيح الذي يساعد على توطيد دعائم الوحدة ، وتعزيز جانب الدولة الفتية ، وذلك باحترام مبادىء دستورها الموقت ، وباعطاء ممثلي الشعب الشرعيين فرصة وضع دستور دائم ، يكفل للمواطن حريته وكرامته ، وللمؤسسات الدستورية أدوارها وحصانتها •

ولكن الذي حصل هو عكس ذلك تماما ، حيث لم يحترم الدستور الموقت ، ولم يوضع الدستور الدائم ، وظلت السلطتان التشريعية والتنفيذية منحصرتين في يد رئيس الجمهورية ، في حين أن الدستور الموقت لم ينص أصلا على تفويض السيد الرئيس بممارسة السلطة التشريعية •

وفي غياب المجلس التشريعي ، ولانعدام الرقابة الدستورية على

أعمال السلطة التنفيذية ، مضت مراكز القوة الممثلة بأجهزة المخابرات وعناصرها الفاسدة ، الظاهرة والخفية ، تستهتر بالحريات العامة ، وتمعن في طغيانها على حريات الافراد وكراماتهم ، بدون رادع ، وبشكل لم يعهده شعبنا في القطر العربي السوري ، في أسوأ عهود الديكتاتورية المظلمة ، وحتى أيام الاحتلال الاجنبي .



أقام السيد حامد الخوجا الوزير السابق حفلة ضخمة ، في فندق سمير اميس في دمشق ، بمناسبة عقد قران كريمته على التاجر الدمشقي الشاب السيد عبد الفتاح العوا ، ودعا عددا غفيرا من الشخصيات السياسية لحضور الحفلة . وكان من بين المدعوين الوزير المركزي السيد فاخر الكيالي وهو من أقطاب الحزب الوطني ، وقد قدم خصيصا من القاهرة لحضور الحفلة . وبينما كنت أتحدث مع بعض الاصدقاء في ركن من أركان الصالة الكبرى في الفندق ، لمحني السيد الكيالي من بعيد ، فترك صحبه واتجه نحوي باهتمام ولهفة بالغين ، وبادرني قائلا : « لك معي رسالة من القاهرة » . ولما استوضحته عنها ، وعن مصدرها قال لي : « من أخيك عدنان » وعندما لمح الامتعاض على وجهي لهذا الذي تصورته مزاحا غير مستحب ، أردف متابعا : « اننا نعمل في القاهرة مع بعض الوزراء المركزيين على عقد جلسات تحضير الأرواح » . فقاطعته قائلا : « انك راغب اليوم في التنكيت ولا أحسب أن لدى الوزراء المركزيين وقتا يضيعونه في ممارسة ( الجلا جلا ) » فأجاب مؤكدا : « لا ، ليس في الامر أي هزل ، والوزراء المركزيون يقضون معظم أوقاتهم في عقد جلسات تحضير الارواح . ويجب أن تثق أن هذه مسألة علمية لا شك في جديتها ، والسلطات العليا والمسؤولون الكبار في القاهرة ، يهتمون بها ويمارسونها ، لانها في نظرهم على غاية كبرى من الاهمية ،

وهي تساعدهم على حل عقد كثيرة لدى معالجة شؤون السياسة والحكم » •• ثم ذكر أنه وزملاءه الوزراء سعوا في احدى الجلسات وأحضروا روح المجاهد الكبير ابراهيم هنانو كما أحضروا عدة أرواح ومن بينها روح أخي عدنان ، وأضاف قائلا : « وقد سألنا أخاك عن رأيه في الاوضاع العامة ، فأجابنا بأنها ليست سيئة ، ولكن على القيادة أن تتخلى عن أنانيتها » • فنبهته عند سماع هذه الرواية، الى أن الرسالة التي أنبأني بحملها الي ، موجهة اذن لسيادة الرئيس ذاته لانه هو الذي يتولى زمام القيادة •• ثم تابع السيد الكيالي روايته مضيفا : « ولما سألنا أخاك عن شخصك أنت ، أجابنا : « رياض انسان صريح وجريء ، ولكن عليه أن يخفف من غلوائه » ••• فعلقت على قول السيد الكيالي هذا ، قائلا : « أنت تحمل لي رسالة من المخابرات لا من أخي » • فأجاب محتدا : « لا ، أبدا ، صدقني، ان ما رويته لك هو الحقيقة » • ثم عاد السيد الكيالي بعد انتهاء حديثه الروحاني ، يسألني عن مضمون المذكرة التي سمع ، في القاهرة، بأني رفعت نسخة منها للرئاسة للاطلاع ، ولمس ما تركته في الاوساط القاهرية من هزة ، ملحا علي بأن أعطيه صورة عنها ، فرفضت طلبه مداعبا اياه بقولي : « ما دمت تشتغل أنت وزملاؤك المركزيون بالروحانيات ، وهي تكشف عن بصيرتكم للاحاطة بما كان وبما هو كائن وبما سيكون ، وتساعدكم على حل معضلات الحكم والسياسة، فأنت لم تعد بحاجة للحصول على نسخة مطبوعة من المذكرة ، لانك تستطيع بوسائلك الروحانية الاطلاع على أي شيء ترغب في معرفته» •





# وجهاً لوجه مع مراكز القوة

**« اذا لم يكن أمامنا الا الجبن أو العنف ، فسنسلك طريق العنف » .**

« غاندي »

زارني في فندق مينا هاوس الواقع في منطقة اهرامات الجيزة اللواء علي أبو نوار الرئيس السابق لاركان الجيش الاردني ، وكان يومئذ لاجئا سياسيا في الجمهورية العربية المتحدة ، وحدثني عن سوء الاحوال في الاقليم السوري ، وشكا بصورة خاصة من سوء المعاملة التي يلقاها اللاجئون السياسيون على يد دوائر المباحث السورية ، وعزا مسؤولية ذلك لسياسة وزير الداخلية التنفيذي السوري ، وألح على ضرورة اثارة الموضوع لدى مقابلتي لسيادة رئيس الجمهورية لمعالجة الموقف قبل تفاقم الحالة ، مؤكدا أنه ماكان شخصيا ليثير الموضوع لولا غيرته على الجمهورية الفتية ، وعلى مستقبل الوحدة العربية التي تتوقف خطواتها المقبلة على نجاح الخطوة الاولى . فقلت له : « الواقع أنني لا أنفك أبدا عن توجيه

النقد بصراحة للسيد وزير الداخلية السوري وعن مجابهته مباشرة ازاء ما ترتكبه الاجهزة والدوائر والعناصر التابعة لوزارته من أخطاء وتصرفات سيئة ، كما أني أثير أحيانا مثل هذه الامور بحضور وزير الداخلية أثناء اجتماعات المجلس التنفيذي ؛ ولكنني لن أعمد في أية حال على نقد تصرفات وزارة الداخلية في غياب زميلي القائم على شؤونها ، متمنيا لو أن اجتماعات الوزارة المركزية تتكرر برئاسة السيد الرئيس وبحضور الوزراء التنفيذيين السوريين ، لأني لن أتوانى آنئذ عن اثارة أي موضوع أرى فيه خدمة للمصلحةالعامة» .
ولكن الزائر الكريم لم يقنع بموقفي وخطتي ، وودعني بعد أنحملني، أنا وزملائي الوزراء السوريين ، مسؤولية السكوت عن حقيقة ما يجري في داخل الاقليم السوري من أخطاء وتصرفات ، ستكون لها نتائج خطيرة على نظام الحكم القائم وعلى مستقبل الوحدة بين اقليمي الجمهورية العربية المتحدة .

* * *

لدى قدوم سيادة رئيس الجمهورية العربية الى الاقليم السوري بمناسبة العيد الاول لقيام الوحدة ، وكان بصحبته بعض نواب الرئيس وبعض الوزراء المركزيين والماريشال تيتو رئيس اتحاد الجمهوريات اليوغسلافية والامير محمد البدر ولي عهد امام اليمن، زحفت الجماهير في المدن السورية عن بكرة أبيها لاستقبال الرئيس القائد وضيوفه وصحبه ؛ وبالرغم من روعة الاستقبالات وضخامة الحشود ومعالم الزينة التي كانت تملأ كل مكان ، كان الشك بدأ يتسرب للقلوب المفعمة بحب الرئيس ، وللنفوس المبتهجة بالمناسبة الخالدة . وكانت تتراءى في الافق السحب القاتمة الدكناء منذرة بهبوب العواصف المدمرة ؛ ومثل هذه العلائم لا يمكن أن تخفى عن أنظار القائد الذكي ، وعن عيون أجهزة المخابرات المتمرسة ، لا في

قراءة التقارير فقط ، بل حتى في قراءة أفكار الناس ، ومحاسبتهم على ما يختلج في صدورهم من أحاسيس ، وما يدور في أذهانهم من هواجس • وفي صبيحة ذات يوم اتصل بي السيد وزير الداخلية وأبلغني أنه يحمل لي رسالة شفوية من السيد رئيس الجمهورية الذي كان منهمكا كل الانهماك في مقابلة الحشود الهادرة ووفود المستقبلين الضخمة • فتوجهت الى مقر وزارة الداخلية في سراي الحكومة الرئيسي ، قرب ساحة الشهداء ، وهناك أعلمني زميلي أن سيادة الرئيس كلفه بأن يحمل الي ملاحظته بأن أجهزة الاعلام لا تؤدي دورها بشكل فعال للرد على هجمات أجهزة الاعلام العراقية ، والشائعات التي ينشرها الشيوعيون ، ولتبديد بوادر النقمة والاستياء التي بدأت تتسرب الى الاوساط الشعبية • فسألته : « ولماذا لم يفاتحني سيادة الرئيس بالامر وكلفك أنت بابلاغي هذه الرسالة ؟ » وأعربت عن خشيتي من احتجاب سيادة الرئيس عن وزرائه ، وحذرت من مغبة ذلك ، ونوهت بأن شؤون الدولة لا يمكن أن تعالج بين سيادة الرئيس وسائر المسؤولين الا في جو من الصراحة التامة ، لتبادل الآراء ، ومراجعة الاخطاء مباشرة ، كي لا تتراكم وتجر الى مضاعفات لن تكون في مصلحة الوطن ووحدة البلدين •

أما فيما يتعلق بأجهزة الاعلام فقد أوضحت لزميلي السيد وزير الداخلية بأن وضعها في هذا البلد شبيه بوضع حصان جامح ، جسمه موجود في الاقليم السوري ولجامه مشدود من القاهرة ، وان اشرافي على الجهاز ان هو الا اشراف صوري لا يخرج عن حدود معالجة شؤون الموظفين المسلكية ، وان ولاء معظم هؤلاء الموظفين ليس للوظيفة أو لرؤسائهم ، بل للاجهزة الخفية التي لا تتورع عن تحريكهم أحيانا في اتجاه معاكس لاوامر رؤسائهم ، ولا تتردد أحيانا أخرى في تحريضهم على الاتيان بتصرفات مخلة بهيبة الحكم ومسيئة لمصلحة الشعب •

واستفدت من ذلك اللقاء ، لاوضح أن أجهزة الاعلام ليست هي المسؤولة عن حقيقة ما يجري في الاقليم السوري ، وأن المسؤولية تقع في الدرجة الاولى على السلطات السياسية العليا ومن ثم على أجهزة الامن التي تبالغ في اتباع أساليب البطش والارهاب ، وأن أجهزة الاعلام لا تستطيع أن تفعل شيئا ازاء ما ترتكبه أجهزة المخابرات والمباحث من آثام وأخطاء جسيمة • وبينت للسيد الزميل، بأن « واجبنا في هذه الاحوال الخطيرة لا يجيز لنا المسايرة وغض النظر عن أسباب الازمة ، بل علينا جميعا ، وأنت في الدرجة الاولى، بحكم اتصالك المباشر بالسيد الرئيس ، أن نصارحه بآرائنا وملاحظاتنا خدمة له وللوطن بآن واحد ، لان سكوتنا هو الذي سيؤدي الى زيادة التوتر وتردي الاحوال » • وقلت للسيد الوزير : « اني لم أشعر في حياتي كلها بالمهانة ، مثل هذه الايام ؛ فقد دخلت المعتقل وتعرضت لاقسى أنواع التعذيب والتنكيل وخرجت منه وأنا رافع الرأس • أما الآن فاني أشعر بوخز الابر ، يؤرق ضميري ، ويثقل كاهلي ، لما يلقاه المواطنون من عنت على يد سلطات الحكم وأجهزة الامن ، حتى بت لا أطيق البقاء في هذا المنصب ؛ ولولا الحرص على عدم تعريض الوضع القائم لهزة مبكرة ، لما تأخرت لحظة في تقديم استقالتي ؛ وأنت يا عبد الحميد ، اذا أردت مني النصح والحقيقة ، فاعتقد أن حالك ليس بأحسن من حالي ، خاصة وأن صورتك في نظر الشعب بدأت تنقلب من مناضل وطني مخلص ، الى جلاد مرعب عدو للشعب • وغدا سترى كيف أنني عندما سأترك هذا الكرسي الزائف وأعود الى بيتي لن يتنكر لي أهلي وأصدقائي والواثقون بوطنيتي واخلاصي ؛ أما أنت فانك لو ثابرت على اتباع النهج الذي تسير عليه الامور الآن ، ستضطر يوما للتخلي عن كرسي الوزارة ؛ وآنذاك لن تستطيع البقاء في هذا البلد ولا السير في شوارعه ، وسيتنكر لك المقربون منك اليوم ، قبل الخصوم والاعداء ؛ فخذها نصيحة خالصة

من زميل مخلص ، لا يريد لك الا النجاح ، ومن مواطن صادق لايريد لوطنه وشعبه الا الفلاح » •

وبعد هذا الخطاب الصريح الصادق الموجه الى شخص كان له بحكم المركز الذي يشغله والثقة الكبيرة الممنوحة له من سيادة رئيس الجمهورية والصلاحيات المخولة اليه ، الدور البارز في تسيير دفة الحكم من خلال أجهزة الامن الخاضعة لامرته ، ترقرق الدمع في عيني مخاطبي الذي أيدني في كلامي قائلا : « ان ما تقوله الآن صحيح تماما ، وأنا أشعر بمثل ما تشعر به أنت • ولكن ما العمل؟ ان ثقة سيادة الرئيس بي غالية وأنا لا أريد أن أجرحها » • فقلت له: « انك لن تستطيع الحفاظ على هذه الثقة وتعزيزها الا بالسير في الطريق القويم ، وتجنب الاخطاء وبمصارحة الرئيس بما يقع منها ، حتى لو كان هو مسؤولا عن ذلك » •

★ ★ ★

كان سيادة رئيس الجمهورية دعاني للاستعانة بعدد من الموظفين المصريين عن طريق ندبهم للعمل في وزارة الثقافة والارشاد القومي في الاقليم السوري • والواقع أني لم أر حاجة ماسة لخبرة الموظفين المصريين ، والخطة التي اتبعتها في اشغال الوظائف المحدثة في ملاك الوزارة المحدثة أيضا ، هو نقل بعض كبار الموظفين أو ندبهم من وظائفهم في الوزارات والدوائر الحكومية السورية للقيام بأعباء الوظائف العليا • أما بالنسبة للوظائف الوسطى ، فقد آثرت العودة لاتباع القواعد العامة في التعيين ، رغم الصلاحيات المطلقة المعطاة لي لاجراء ذلك بصورة استثنائية ، ولمدة سنة من تاريخ احداث الوزارة• وقد فعلت ذلك نظرا لكثرة الوساطات وشدة الضغط لتعيين الطلاب المجازين من الجامعة والذين كان عددهم كبيرا جدا ، بسبب انتشار البطالة في صفوف المتعلمين ، وقلة الوظائف الشاغرة في دوائر الدولة

ومؤسساتها • وبناء على توجيهاتي ، أعلنت الوزارة عن اختبار ستجريه لاملاء عدد من وظائف الحلقة الاولى من المرتبة الخامسة من بين حملة اجازتي الآداب والتربية ؛ فبلغ عدد الذين اشتركوا في ذلك الاختبار أكثر من سبعة أضعاف العدد المطلوب • وقد تشكلت اللجنة الفاحصة برئاسة أمين عام الوزارة وعضوية المدراء الكبار فيها ؛ ولما عرضت علي النتائج النهائية ، لفتت نظري حالتان اثنتان ، الاولى نجاح قريبة لي بتفوق جعلها بين الناجحين الاوائل ؛ وبالرغم من أن الطالبة الناجحة كانت عالية الثقافة ، وهي حفيدة للكاتب الكبير الاستاذ محمد كرد علي ، الا أني أردت التوثق من ظروف نجاحها • وكأن رئيس اللجنة كان ينتظر مني هذا السؤال ليجيب عليه بشكل يبيض معه وجهه ووجوه أعضاء اللجنة ؛ فأجابني بابتسامة ذات مغزى واضح تعلو شفتيه : « ان الطالبة ذكية وممتازة • وطبعا هناك اعتبارات خاصة كان على اللجنة أن تراعيها » • وأمام الجواب الذي أطلقه رئيس اللجنة وكأنه اتهام سافر بأن المسابقة لم يعلن عنها ولم تجر بتوجيهي الا لتغطية تعيين قريبتي في احدى الوظائف الشاغرة ، لم يكن مني الا أن شطبت اسمها من بين الناجحين ، وأمرت بتعيين الطالب التالي ترتيبه لآخر طالب ورد اسمه في عداد الناجحين • وكان ذلك الاجراء القاسي على نفسي درسا للجنة الفاحصة ، في كيف تكون الامانة ، وكيف يجب أن يتحلى المؤتسنون على الوظائف العامة، والمهام الرسمية ، بالتجرد التام ، وبعدم الخضوع لاية اعتبارات خاصة ، خارجة عن نطاق المصلحة العامة التي لا يمكن أن تتحقق الا باحترام مبادىء العدالة والمساواة ، دون الاخذ بعين الاهتمام الاعتبارات العشائرية والعائلية ، وسواها من الرواسب التي مازالت تعيق تطور مجتمعنا • ربما كنت ظلمت تلك القريبة بحرمانها من حقها في التعيين ، خاصة بعد أن قررت اللجنة الفاحصة فوزها في الاختبار الذي أجرته ؛ ولكني مازلت قانعا بأن ظلم ذوي القربى

أقل مضاضة من دوس المصلحة العامة بتأثير من الشفاعة ، أو الوساطة، أو صلة العشيرة ، أو القربى •

أما الحالة الثانية ، فكانت حالة طالب مجاز كان سابقا عضوا في حزب البعث العربي الاشتراكي المنحل ، وكانت تربطني به صلة المعرفة والمودة • كان ذلك الطالب يسعى لتعيينه في احدى الوظائف الشاغرة ، وكان بعض الاصدقاء من الحزبيين السابقين يتوسطون لتعيينه مباشرة بالاستناد الى الصلاحيات الاستثنائية المخولة لي • ولكني اعتذرت من الجميع بحجة اجراء المسابقة المنوي الاعلان عنها، وتمنيت له النجاح فيها من كل قلبي • ولكن النتيجة أسفرت لا عن رسوبه فقط ، بل عن كون ترتيبه هو الاخير في قائمة المتسابقين الاثنين والسبعين •

أيتها الحزبية العمياء ، كم من الجرائم ترتكب باسمك ، وتحت ستارك ، بحق الشعب والوطن !••

★ ★ ★

عاد وزير الداخلية التنفيذي بعد زيارته للقاهرة واجتماعه بسيادة رئيس الجمهورية ، ولدى اجتماع المجلس التنفيذي أبلغني تساؤل سيادة الرئيس عن عدم تنفيذ رغبته بندب عدد من الموظفين المصريين للعمل في وزارة الثقافة والارشاد القومي ؛ فقلت له : « الواقع أن عدد الوظائف في الوزارة محدود جدا ، وأن البطالة منتشرة في صفوف المتعلمين بشكل ينذر بالخطر ؛ كما أن لغطا يدور في أوساط الاهلين حول تدفق الموظفين المصريين على الاقليم السوري؛ وهناك من يتخذ من هذه الظاهرة حجة للادعاء بوجود تسلط أو استعمار » • فلم يعلق السيد وزير الداخلية على كلامي بشيء • ولكني عندما ذهبت الى القاهرة وقابلت سيادة الرئيس ، سألني بلهجة حازمة عن عدم تلبية طلبه الاستعانة ببعض الموظفين المصريين لتسيير الاعمال فأجبته : « انني مازلت أدرس حاجة الوزارة ، وسأستعين

بجبرة من أرى ضرورة للاستعانة بهم من أبناء الاقليم المصري عند اللزوم » • فقال : « عليك أن تأخذهم دون الالتفات الى ادعاء المغرضين بوجود تسلط أو استعمار ؛ وعلينا في خطواتنا أن لا نعير أدنى اهتمام للمعارضة التي لو أردنا مسايرتها لما استطعنا القيام بأي عمل » • ولكنني استمررت في اتباع خطتي بالاعتماد على أبناء الاقليم الشمالي ، فيما عدا حالة واحدة ، عندما قصدني أستاذ جامعي مصري منتدب للعمل في جامعة دمشق ، فقد أسعفت طلبه بنقل زوجته الى دمشق •

والذي لوحظ مع الاسف الشديد أن الموظفين المصريين الذين كانوا يندبون للعمل في الاقليم السوري بدءا من الامناء العامين ومساعديهم ، وانتهاء بأصغر معلم مدرسة ابتدائية ، كانوا مرتبطين بأجهزة المخابرات يعملون بتوجيهاتها السرية وبوحي من مراكز القوة التي يشغلها أشخاص لم يكونوا حريصين على خدمة الشعب ، وحماية وحدته ، بقدر ما كانوا يسعون لقهر الشعب وتفتيت وحدته الوطنية•

* * *

كانت بعض العناصر المصرية ، العاملة في الاقليم السوري ، تعتقد أن بامكانها فرض سيطرتها على جميع السوريين ، مدنيين وعسكريين ، دون استثناء ، بصرف النظر عن أشخاصهم أو مراكزهم السياسية أو الادبية ، وحتى الوزراء التنفيذيين منهم •

فمعاون قائد الجيش الاول العميد عبد المحسن أبو النور ، وهو مصري ، كان يتصور نفسه وكأنه مفوض سام يجب أن تكون له الكلمة الاولى في أوساط الجيش وفي نطاق السلطة المدنية على السواء ؛ ومطلوب من الجميع اطاعته وتنفيذ أوامره ، والا حاق بهم غضب السلطان وتعرضوا لنقمة مراكز القوة واجراآتها القاسية التي لا حدود لها ، لافي الدستور الذي أصبح في خبر كان ، ولا في القانون

الذي أضحى محل استخفاف تلك المراكز المتحكمة في شؤون الاقليم، وفي حريات مواطنيه وكراماتهم •

وموظف الاستعلامات المصري الذي كان سابقا ملحقا صحفيا في السفارة المصرية ، وارتباطه المباشر هو مع مصلحة الاستعلامات في القاهرة ، أضحى بعد قيام الوحدة يتمتع في دمشق بمركز ممتاز، يسرح ويمرح ، ويوزع الاموال والاتاوات ، ذات اليمين وذات الشمال ، ويدس ويخرب ، دون أن يكون على تصرفاته في دمشق ثمة رقيب أو حسيب • ولا بأس لديه وحتى لدى رؤسائه أن يسخر للتشويش على الوزراء السوريين والاجهزة المحلية ، وأن يصبح مصدر ازعاج ومحرضا على عرقلة الاعمال •

وأمثال هؤلاء الموظفين كانوا يجدون تجاوبا من جميع عناصر التخريب ، ومن المرتزقة المنافقين الذين كانوا يلتفون حولهم ، ويركضون وراءهم ، استمطارا للغنائم والمنافع ؛ وأعين الزعامة المصرية وآذانها ، متغافلة عنهم وعن أساليبهم ، وغير مستعدة لسماع أية شكوى • بل الامر على العكس ، انها كانت تحيطهم هم وأمثالهم بالحصانة المطلقة والرعاية التامة ، تاركة لهم العنان في العبث والمجون، وتوزيع الاساءات على الجميع ، بشكل لم يعهده شعبنا ، حتى في أيام حكم العثمانيين أو في ظل احتلال الفرنسيين •

كان على الوزراء السوريين أن يتدارسوا هذه الاحوال بعين الجد والاهتمام ، وأن يحاولوا معالجتها بالاتفاق فيما بينهم وبتضامنهم مع بعضهم بعضا • ولكن شيئا من هذا لم يحصل ، بل كان كل واحد منهم يحاول اتقاء الشر بالتي هي أهون •

وكان لابد من التساهل حيال الامور الصغيرة ، دفعا للمشاكل وحرصا على عدم ازعاج الزعامة المصرية باثارتها ، وخوفا من خلق

أزمة سياسية قد لا تمس العاملين في نطاق السلطة والحكم ، بقدر ما تصيب كيان الجمهورية الفتية ومصير وحدتها المفداة .

وفي القاهرة ، لم تكن معاملة المسؤولين السوريين ألطف بكثير، وكان أغلب الوزراء السوريين يلقون من بعض الاعوان في القاهرة ، معاملة مسيئة تنعدم فيها مبادىء البروتوكول ، وتخلو من أي أثر من آثار قواعد المجاملة واللباقة المتعارف عليها .

وكان بعض هؤلاء المستشارين يعتقد أن حظوته لدى مقام الرئاسة تخوله التصرف على هذا النحو أو ذاك ، وكأن العلاقة بين المصري والسوري هي علاقة غالب ومغلوب ، أو متبوع وتابع . وكان البعض من هؤلاء يعتقد أن تساهل المسؤول السوري ، حيال تلك التصرفات الشاذة ، ناتج عن الضعف ، ويحسب التواضع استزلاما ، والحلم والصبر خضوعا واستسلاما .

ولذلك كان من الضروري وقف المهزلة عند حدودها ، ومجابهة القضايا الهامة بحزم ، ليشعر المستهترون بالمبادىء والقيم ، بحقيقة الآثام التي يرتكبونها ، والاساءات التي يوجهونها ، والاضرار التي يلحقونها بمصالح شعبهم وقضية وطنهم . ولم يكن من الجائز لمن اعتاد على رفض الظلم ، ومجابهة الانحراف ، منذ نعومة أظفاره ، أن يطيل الصمت ، وكان لابد له من أن يجاهر بمحاربة الاعوجاج ، أيا كان مصدره .

★ ★ ★

توجهت ذات صباح الى مطار المزة للسفر الى القاهرة بصحبة السيد وزير التربية التنفيذي الدكتور أمجد الطرابلسي لحضور اجتماع المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في القاهرة ، وقد كنا عضوين طبيعيين فيه بحكم كوننا وزيرين للتربية

وللثقافة والارشاد القومي في الاقليم الشمالي • ولكن سوء الاحوال الجوية حال دون اقلاع الطائرة ، فعاد كل واحد منا الى مقر وزارته بعد الاتفاق على ارجاء السفر الى اليوم التالي • ولكني ما كدت أجلس وراء مكتبي ، حتى دخل علي الامين العام للوزارة ، وأطلعني على الاجراء الذي اتخذه بحق احدى الصحف اليومية ، اذ أنه أصدر أمرا الى المديرية العامة للدعاية والانباء بمصادرة العدد الصادر من تلك الجريدة في صباح ذاك اليوم وبتعطيلها يوما واحدا عن الصدور بسبب مخالفة نظام المطبوعات المطبق آنئذ على الصحف اليومية ، فلمته على تصرفه ، ونبهته الى عدم جواز تدخله في مسألة هي خارجة حتما عن نطاق وظيفته ، لان المديرية العامة للدعاية والانباء لم تكن مرتبطة ، اطلاقا ، بوزارة الثقافة والارشاد القومي ، وان كنت أنا قد كلفت شخصيا وبقرار من سيادة رئيس الجمهورية بالاشراف على تلك المديرية العامة • وكنت في سبيلي الى تدارك الخطأ الذي ارتكبه الامين العام للوزارة في فترة غيابي القصيرة عن مقر الوزارة، عندما اتصل بي هاتفيا معاون قائد الجيش الاول العميد عبد المحسن أبو النور • وبعد التحية والمجاملة ، فاتحني في مسألة الاجراء المتخذ بحق الجريدة الدمشقية ، فكان رد الفعل المباشر لدي أني نهيته عن التدخل في الشؤون المتعلقة بي كوزير • وعبثا حاول الضابط اقناعي بوجهة نظره ، وبدوره في توريط صاحب الجريدة بتسجيل تلك المخالفة البسيطة ، وقد استفدت من فرصة تلك المخابرة الهاتفية لاوضح للضابط الكبير ، وبشكل صريح وجوب ابتعاده كعسكري عن التدخل في شؤون الحكم •

وعندما سافرت في اليوم التالي الى القاهرة ، طلبت من سكرتارية رئاسة الجمهورية تحديد موعد لمقابلة سيادة الرئيس لبحث بعض المسائل المتعلقة بمشاريع وأعمال وزارة الثقافة والارشاد القومي •

وفي بدء المقابلة بادرني سيادته بالسؤال عن المشكلة التي بيني وبين معاون قائد الجيش ، فأجبته بايجاز : « مافي شيء » .. فعقب سيادته على جوابي أنه لا يريد أن يسمع الناس عن الخلافات فيما بيننا . فأجبت بصراحة : « أنا لم أحك شيئا لأحد وأستغرب أن تكونوا سيادتكم قد اطلعتم على الامر ، وهذا يعني أن السيد أبا النور هو الذي رفع لكم تقريرا بما جرى . وحقيقة الامر هي أني رفضت تدخله كرجل عسكري ، في شأن يعتبر من صميم شؤون الاعباء الوزارية التي أنا مسؤول عنها » . فقال لي سيادته بلهجة اختلفت عن لهجته المعتادة : « حتى أنا ، لا أريد أن أسمع عن أي خلاف بينكما » ، قالها سيادته ، وكأنه يريد ترويضي على مداخلات معاون قائد الجيش الاول . فأكدت أن القضية تتعلق بمبدأ أساسي يجب على العسكريين العاملين في القوات المسلحة احترامه ، وهو عدم جواز تدخلهم في شؤون الحكم . وطوى سيادة الرئيس البحث بالانتقال الى مناقشة المسائل التي جرت المقابلة من أجلها .

★ ★ ★

كان موظف الاستعلامات المصري السيد عدلي حشاد معروفا في الاوساط الدمشقية منذ القديم ، فقد بدأ عمله في العاصمة السورية مدرسا للرياضيات في بعض المدارس الثانوية معارا من وزارة التربية المصرية ، ثم عين ملحقا صحفيا لدى السفارة المصرية . وبعد قيام الوحدة بين الاقليمين السوري والمصري ، لم يعد للسفارة داع للبقاء ، فغادر الموظفون فيها الاقليم السوري ، وألحقوا بوظائف جديدة في وزارة الخارجية وسفارات الجمهورية العربية المتحدة المنتشرة في عواصم دول العالم . ولكن السيد حشاد الذي أحب هواء الشام ووقع في هواه أكثر « الشوام » نفعية وتقربا من الحكام وأعوانهم ذوي النفوذ ، آثر البقاء في أحضان قاسيون وعلى ضفاف

نهري بردى وتورا ، ليمارس نشاطا لا يعرف أحد كنهه ، الا أولئك الذين كانوا ينعمون بزيارته في مكتبه الكائن في مبنى السفارة المصرية القديم والذي أضحى مقرا لوزارة الثقافة والارشاد القومي ، وظل السيد حشاد يحتل بعض غرف الطابق العلوي منه ، مع موظف مصري آخر كان يدير جهاز الارسال والاستقبال اللاسلكي الموضوع تحت تصرف السيد حشاد •

وكل من تعرف على السيد حشاد ، يوم كان مدرسا ناجحا في المدارس الثانوية ، وبعد أن أصبح ملحقا صحفيا في السفارة المصرية في دمشق ، يشهد بأن الشاب يتمتع بلطف وكياسة بارزين • وقد تعرفت عليه أنا شخصيا لدى بداية اضطلاعي بأعباء الوزارة واشرافي على شؤون مديرية الدعاية والانباء ، حيث كان يأتيني أحيانا حاملا معه نسخا عن التوجيهات المرسلة برقيا من القاهرة والمتعلقة بالاخبار والتعليقات السياسية الواجب نشرها واذاعتها عن طريق أجهزة الاعلام والصحافة ، فلم ألمس منه الا اللطف والكياسة المعروفين عنه •

ولكن يبدو أني لم أحل ذلك الموظف المصري المكانة التي كان ينتظرها مني مثل تلك التي كان يحظى بها من بعض زملائي السوريين، فلم أعد أراه أبدا • غير أن أخبار نشاطه كانت تصلني تلقائيا ودون أي مسعى من قبلي ، ذلك لاني بحكم اشرافي على شؤون الاعلام، كنت ألمس آثار الخطة السلبية والاساليب التخريبية التي أخذ يتبعها ذلك الموظف الصغير وقد أراد هو نفسه ، أو أراد له رؤساؤه أن يضعوه فوق الحكم المحلي في الاقليم السوري ، وخارج الدوائر المرسومة لاي من أجهزة الدولة الرسمية في دمشق •

وقد تمادى ذلك الموظف في استهتاره وتطاوله وبلغ بذلك حدا لا يطاق ، وربما شجعه على ذلك ، ما كان يلقاه من المرتزقة الملتفين حوله والذين كانوا يأتونه الى مكتبه الكائن في ملحق مبنى وزارة

الثقافة والارشاد القومي ، زرافات ووحدانا ؛ فيهم وزراء سابقون وأعضاء في المجلس النيابي المعلق ، وموظفون كبار وصغار ، ومخبرون سريون • وكان واضحا للملأ أن السيد حشاد كان يشكل آنذاك مركزا هاما من مراكز القوة المسيطرة من دون أجهزة الحكم المحلي ، على مقدرات الاقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة •

وكان معظم رشاش ذلك النشاط ينعكس على الشؤون المتعلقة بالوزارة التي أقوم بحمل أعبائها وبمديريتي الدعاية والانباء والاذاعة اللتين أتولى الاشراف عليهما • فبعض الموظفين في هذه الاجهزة أضحوا مرتبطين بالسيد حشاد ، ويتقاضون منه رواتب اضافية ، ولم يكن السيد حشاد ليتورع عن تحريضهم ضد رؤسائهم • كما أن المخلصين منهم ومن العاملين في ميدان الصحافة ، لم يكونوا ليكتموا عني ما كان يزودهم به السيد حشاد من توجيهات وتعليمات معاكسة تماما للخطة السياسية التي كنت أسير عليها في معالجة شؤون الوزارة والاجهزة الملحقة بها أو الموضوعة تحت اشرافي ، تلك الخطة التي كانت مرسومة في القاهرة ومتفقا عليها مع السيد رئيس الجمهورية نفسه الذي كان قد قرر ماهو متعلق منها بشؤون الصحافة في الاجتماع الكبير الذي حضره الوزراء المركزيون والتنفيذيون المصريون منهم والسوريون ، اثر تشكيل الوزارة الثانية في تشرين الاول ( اكتوبر) عام ١٩٥٨ •

★ ★ ★

وذات يوم زارني في مكتبي في الوزارة الدكتور حافظ الجمالي ، وكان يومئذ أستاذا في جامعة دمشق ، وسألني في سياق حديثه عن مدى ارتباط السيد حشاد بأجهزة الحكم في الاقليم السوري ، وعن محل هذا الكائن الحي من الاعراب • ولم يكتم عني الدكتور الجمالي ملاحظاته العديدة حول سلوك هذا الموظف

المصري ، وعن الدور الخطير الذي يمارسه ، والحظوة الكبرى التي يتمتع بها في الكثير من الاوساط الرسمية وشبه الرسمية ، حتى أنه يرى بأم عينه كيف أن بعض الوزراء السوريين يلتفون حوله في الحفلات العامة والمناسبات ويحيطونه بالكثير من التعظيم والتبجيل، الى درجة صار معها الرائي المتفرج ، يقدر أن هـذا الشخص هـو الحاكم ، وأن هؤلاء من حوله هم المحكومون • وفي نفس اليوم كان مدير مكتبي في الوزارة قد أطلعني على معلومات اكتشفها بنفسه لدى اطلاعه وبطريق الصدفة على الكيفية التي يشتري بها موظف الاستعلامات المصري ضمائر بعض ذوي النفوس الرخيصة ، ليمارسوا دور التخريب والتشويش الذي يحدده لهم موظف الاستعلامات اياه•

وبعد انصراف الدكتور الجمالي ، طلبت من أمين عام الوزارة أن يستدعي السيد حشاد ويأتي به الى مكتبي ، وأكدت عليه ضرورة البقاء معه لدى مقابلتي • ففعل السيد الامين العام ما طلبته ، وأحضر السيد حشاد معه وأدخله الى غرفتي ، ولكنه انسل هو بخفة تاركا اياه في مواجهتي • فبادرته سائلا : « ماذا تفعل أنت في هذا البلد، وما هي صفتك الرسمية ؟ » •

فأجابني والدهشة بادية عليه : « أنا خادم يا افندم » ••

فنهرته قائلا : « اقلع عن هذه اللهجة التي لا نستسيغها هنا في هذا البلد المكافح وأجبني بصراحة : هل أنت موظف في الدولة أم لا ؟ » ••

فأجاب : « نعم يا افندم » •

فقلت له : « مادمت كذلك ، فهل تعلم أن على الموظف التزامات وواجبات لا مناص له من القيام بها ، وأهمها احترام الانظمة والقوانين واحاطة أجهزة الدولة والقائمين عليها جميعا بالهيبة والاحترام » •

أجاب : « بالضبط يا افندم » ..

فواصلت كلامي سائلا : « بأي حق اذن تقوم أنت بالاخلال بكل تلك الالتزامات والواجبات ؟ .. » فنفى أن يكون فعل أي شيء من ذلك .

فقلت له : « الحقيقة أنك تفعل أكثر من ذلك ، وقد دعوتك لمقابلتي لافهامك أمرين اثنين : الاول يتعلق بك وبسلوكك كموظف رسمي . والذي أريد أن تعرفه أننا اعتدنا في هذا البلد على احترام النظام والقوانين وعلى ردع كل من يحاول الاخلال بها . ولذلك فان أية بادرة مخلة بواجبات الوظيفة تصدر عنك في المستقبل سأجابهها باحالتك الى مجلس التأديب لتنال عنها جزاء عملك ، ولن تفيدك آنئذ حماية من تلوذ بهم من الاشخاص المتنفذين والرؤساء ، لان القانون بنظرنا هو فوق الجميع . أما الامر الثاني فهو المتعلق بهؤلاء الاشخاص والرؤساء ، من كان مقيما هنا في دمشق ، أو قابعا هناك في القاهرة ، فبامكانك أن تبلغهم عن لساني أن أسلوبهم في معالجة الامور بهذا الاستخفاف بمصلحة الشعب في الاقليم السوري والاستهتار بما فيه من قيم وكرامات ومقدسات ، لن يعود عليهم وعلى الشعب والوطن الا بأسوأ العواقب . أقول هذا لا عن اقليمية ضيقة، بل عن شعور كامل بالمسؤولية نحو أمتنا العربية وأهدافها الكبرى التي نخوض معاركها لا كمرتزقة أو مستوزرين ، بل كمكافحين لا نبخل في التضحية من أجلها بأغلى التضحيات » .

وازاء هذا الدرس القاسي ، لم يعد السيد جشاد يعرف مايقول، وهو الذي اعتاد على أن يرى الناس من حوله ، وكأنه هو السيد المطاع ، وهم الاتباع المطيعون .

وقد قصدت من وراء استدعاء موظف الاستعلامات المصري ،

تحقيق غايتين اثنتين : الاولى وضع حد لتصرفاته الرعناء التي لم يكن من الجائز اطلاقا استمرار السكوت عنها ، والثانية يقيني التام بأنه لن يخرج من عندي الا ليرفع ولتوه وبواسطة جهاز اللاسلكي الذي بحوزته ، تقريرا مسهبا بهذا الذي أسمعته اياه كتحذير لاولئك الذين كانوا في القاهرة يصمون آذانهم عن سماع أي نداء حق ، ويغضون الطرف عن جميع ما يجري في هذا الجزء الغالي من الوطن من اساءات بالغة لا بحق الافراد والجماعات ، بل بحق الوطن نفسه ، والامة كلها ، وضد ما تحمله من أمان وتكافح في سبيله من أهداف .

* * *

زارني بعد ذلك السيد يوسف السباعي ، الامين العام لمجلس رعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، لبحث الشؤون المتعلقة بفرع المجلس في الاقليم السوري . والرجل مثال للانسان الواعي، الحصيف ، الحريص على أداء واجبه دائما والقيام بأعباء مهامه المتعددة في ميادين الفن والادب والصحافة والسياسة ، بالاضافة الى نتاجه السخي الرائع من القصص والروايات الادبية والمقالات السياسية ، فلم أكتم عنه سخطي وانطباعي حول حقيقة ما يجري في الاقليم مما سيكون له أكبر الاثر على كيان الجمهورية العربية المتحدة، ونظرة الشعب لاشخاص الحكام ، مع تبدل هذه النظرة بين الايام الاولى لقيام الوحدة وبين هذه الايام . فتأثر الرجل للصورة التي طالعته بها عن حقيقة الاحوال ، ونصح بمعالجة الحالة بترو وصراحة في آن واحد ، بأمل الوصول الى حلول سليمة لها ، ووعد بأن يسعى من جانبه لفعل ما يساعد على تدارك الخطأ والخطر .

ولكن يبدو أن جميع الصيحات الصارخة ، والنصائح الصادقة لم تكن لتستطيع أن تبدل شيئا من سير الامور التي كانت تديرها

من وراء ستار مراكز القوة والسيطرة ، وعناصر المخابرات ؛ وهي لم تكن لتتورع عن ارتكاب أبشع الجرائم وأفحش الاساءات ، الى جانب استهتارها بجميع القيم والاماني القومية والاهداف المقدسة التي كافح الشعب من أجلها وقدم في سبيلها أجل التضحيات •

كانت الصيحات الحارة والنداءات الصادقة تصدر عن أصحاب النوايا الحسنة من مسؤولين وغيرهم من المواطنين الشرفاء ، ولكنها كانت كلها تذهب هباءاً في واد سحيق من الاستهتار واللامبالاة ، وتصطدم بجدار شاهق من التعالي والغرور •

# ١٣

## التراب المقدس والتراث التليد

**« أعجب الاشياء أن يغلب البطل الحق » .**

« عمر بن الخطاب »

راجعني نفر من أبناء لواء اسكندرون الذي اغتصبته تركيا من الكيان السوري ابان الاحتلال الفرنسي ، وأبدوا رغبتهم في اقامة الاحتفال السنوي بمناسبة سلخ اللواء السليب تحت رعاية سلطات الاقليم الشمالي . فقابلت سيادة رئيس المجلس التنفيذي لهذا الغرض، ونقلت له رغبة الاخوة العرب ورجاءهم بأن يرعى الاحتفال الخطابي وأن يلقي كلمة فيه ، فوافق على ذلك دون تردد . وبعد أيام قلائل، وبينما كان المهتمون بهذا الموضوع القومي قد بدأوا يعدون عدتهم لليوم الموعود ، وشرعوا بطبع رقاع الدعوة ، تلقيت مكالمة هاتفية من القاهرة وكان مخاطبي السيد رئيس المجلس التنفيذي ، وأبلغني سيادته عدوله عن رعاية الحفلة المقررة ، مع قرار الرئاسة بمنع أي من الوزراء السوريين من حضورها . ولما عاد سيادته الى دمشق ، قابلته مستوضحا ملابسات الموقف من هذه المناسبة القومية ، فأجابني بأن سيادة الرئيس أبدى رفضا كليا لا لمشاركة المسؤولين بالاحتفال

فقط ، بل وحتى باقامته ، حرصا منه على حسن علاقات الصداقة والجوار مع الجارة تركيا ، التي كانت تتعاون تعاونا وثيقا مع السلطات الاسرائيلية في ميادين السياسة والسياحة والاقتصاد .

وقد قابل أبناء اسكندرون هذه البادرة السلبية بكثير من الاستياء ، وأصروا على عقد اجتماعهم واقامة احتفالهم في مقر ندوتهم، ولكن بشكل مختصر ، ولم تعارضهم سلطات الاقليم في ذلك نظرا لحساسية الامر بالنسبة لابناء الاقليم السوري الذين تقلقهم مشكلة سلخ قطعة عزيزة عليهم من أرض وطنهم الغالي .

وقد فسرت الامور بيني وبين نفسي آنئذ ايجابيا ، وقلت ربما كان القائد العربي الذي يمتلك أقوى قوة ضاربة في الشرق الاوسط، لا يريد تعكير مياه خليج الاسكندرون ، بالخطابات الحارة والكلمات الصاخبة ، استعدادا لمفاجأة خاطفة شبيهة بمفاجأة بيرل هاربور ، يعدها أسطوله البحري الجبار في جو من الصمت والسكينة ، مقدرا أن للعسكريين حساباتهم الدقيقة وأساليبهم الخاصة في خوض المعارك الحربية ، وهي أبعد ما تكون عن حسابات السياسيين وحذاقة الخطباء المفوهين .

★ ★ ★

شكوت مرة لسيادة رئيس المجلس التنفيذي السوري احجام مقام رئاسة الجمهورية عن الرد على الرسائل والخطابات الرسمية التي أرفعها له فيما يتعلق بشؤون الوزارة .

فسألني السيد رئيس المجلس التنفيذي عن الطريقة التي أتبعها في توجيه تلك الخطابات والرسائل ، وأجبته بأني أوجهها مباشرة الى سيادة الرئيس ، أبدؤها بالبسملة جريا على طريقة السيد الرئيس في ما يوجهه الينا من خطابات ، وأختمها بأسمى عبارات الاحترام ، ثم

أودعها لدى الامانة العامة لرئاسة المجلس التنفيذي لارفاقها بالبريد الرسمي الذي يرسل يوميا الى العاصمة •

فصارحني السيد رئيس المجلس بالخطأ الذي أقع فيه عندما أوجه الخطاب مباشرة الى السيد رئيس الجمهورية ، اذ يجب أن يرسل الى السيد وزير الدولة لشؤون الرئاسة الذي يتولى بدوره عرض المسائل المتعلقة بمختلف وزارات الدولة على السيد الرئيس ، بعد دراستها واعداد الاقتراحات والمشاريع اللازمة لتصريفها •

فسألت السيد رئيس المجلس التنفيذي ، وكان في آن واحد وزيرا للاشغال العامة : « وسيادتكم ، هل تخاطبون السيد رئيس الجمهورية عن طريق وزارة الدولة لشؤون الرئاسة ؟ » فأجابني مؤكدا : « نعم » •

فسألته : « وهل تردكم الاجوبة عن رسائلكم ؟ » • فأجابني وبحسرة بادية في لهجته : « بكل أسف ، لا تردني الاجوبة عن رسائلي وخطاباتي الا نادرا » •

★ ★ ★

أطلعني الامين العام في الوزارة على رغبة الفرع السينمائي لدى ادارة التوجيه المعنوي في الجيش الاول ، بعرض شريط سينمائي على الرقابة وهو من اخراج وانتاج ذلك الفرع • فاستغربت الامر ، وشككت في أن يكون في المسألة لغز أو لغم • ولما طلبت الاستيضاح عن موضوع الفيلم ، جاء الجواب بأنه يتعلق بالدعاية لانجازات الوحدة • فادركت أن لجنة الرقابة على الافلام السينمائية في الوزارة، لن تستطيع التصرف حيال قضية يبدو سلفا أنها شائكة ؛ كما أنني آثرت عدم الانفراد لوحدي بالبت في الموضوع • فدعوت السيد رئيس المجلس التنفيذي مع عدد من الوزراء ، من بينهم وزيرالصناعة ووزير الصحة ووزير التربية ووزير المواصلات ووزير الشؤون

البلدية والقروية ، لمشاهدة الفيلم قبل اعطاء الاذن بعرضه ، مع أن العادة جرت سابقا بأن لا تعرض الافلام التي ينتجها الفرع السينمائي لدى ادارة التوجيه المعنوي لاية رقابة خارجة عن نطاق الدوائر العسكرية • وقد جرى عرض الفيلم الوثائقي على شاشة مدرج جامعة دمشق ، فاذ بمشاهده المتعددة قد شملت عددا كبيرا من المشاريع المنجزة قبل الوحدة ، كمرفأ اللاذقية ، ومشروع الغاب، وجر مياه الفرات الى حلب ، والهاتف الآلي ، وغير ذلك من المشاريع العديدة المنفذة سابقا • وكان في الحوار المرافق لعرض مشاهد الفلم تبجح ومبالغة بما أغدقه حكم الوحدة على الاقليم السوري من خيرات ومبرات ، وبما جره على أبناء الشعب من منافع ومغانم وما تم انجازه من مشاريع • ولدى الانتهاء من مشاهدة الفيلم ، أجمع رئيس المجلس والوزراء التنفيذيون على أن عرض الفيلم بشكله الحالي على الجمهور ، سيشكل فضيحة كبرى ، وأن المصلحة تقضي بمنعه بالكلية • وكان الضابط ممثل ادارة التوجيه المعنوي المشرف على تجربة الفيلم حاضرا في القاعة ، فأصدرت الامر اليه ، بناء على موافقة زملائي الوزراء ، بمنع عرض الفيلم • فتلقى الضابط السوري الغيور التوجيه الوزاري باغتباط بدا واضحا على وجهه لانه هو الذي سعى لاخضاع الفيلم للرقابة ، في محاولة لتفادي الفضيحة ، فتحقق له ما أراد •

ولكن المسألة لم تنته عند هذا الحد ، فقد شنت علي بسبب الموقف الذي اتخذته بمشاركة وموافقة رئيس وأعضاء المجلس التنفيذي المختصين ، حملة ضارية مؤداها أن الوزير المسؤول عن شؤون الدعاية والاعلام ، قد حال دون مشاهدة الجماهير العربية لما حققه عهد الوحدة في عامها الاول ، من انجاز واعجاز ، في ميادين الصناعة والانشاء والتعمير •

★ ★ ★

كان من جملة مهام وزير الثقافة والارشاد القومي الاهتمام بتجسيد البطولات باقامة التماثيل والنصب التذكارية لابطال الامة العربية ورجالاتها الافذاذ . فاتجه التفكير الى أن تكون باكورة أعمال دائرة النصب التذكارية التابعة لمديرية الفنون في الوزارة ، اقامة نصب تذكاري للشهيد البطل يوسف العظمة في موقع المعركة التي سقط فيها عند هضاب ميسلون ، قرب الحدود السورية اللبنانية . وتشكلت من أجل ذلك لجنة مؤلفة من عدد من كبار الموظفين الفنيين والاداريين يمثلون الوزارات والدوائر المختصة ، فقامت اللجنة بعد الكشف على موقع المعركة وعلى الطبيعة ، باعداد تقرير دقيق ضمنته نتائج دراستها واقتراحاتها ، وأرفقت مخططا مرسوما حددت فيه المكان الملائم لاقامة ساحة عامة يتوسطها تمثال البطل ويشاد في بعض أركانها نصب تذكاري مع متحف تحفظ فيه بقايا تراث الشهيد الخالد بعد جمعها من الاحياء الباقين من أقربائه وزملائه ومرؤوسيه قبل أن تندثر مع الزمن .

وقد رئي أن تكلف دائرة الاشغال العامة بتنفيذ المشروع بالامانة . وتوفيرا لنفقات الحفر والتمهيد لاقامة الساحة المنشودة ، جرى اتصال مع قيادة الجيش الاول لتسهم بعض آليات الحفر العسكرية في أداء هذه المهمة اليسيرة . وقد اجتمعت من أجل ذلك بالفريق قائد الجيش الاول في مكتبه في مبنى وزارة الدفاع ، وقد أبدى السيد الفريق بادىء الامر اهتماما بالموضوع ووعد بدراسته ؛ ولكن قبل الانتهاء من الحديث ، دخل عليه معاونه العميد عبد المحسن أبو النور ، الذي تجهم وجهه لدى رؤيته لي عند قائد الجيش ؛ ولما أطلعه قائده على الفكرة ، لم يبد أي حماس لها ، وأوحى بأن لاعلاقة لقيادة الجيش بمثل هذا المشروع ، دون الالتفات الى النفع المعنوي الذي يوفره تنفيذه لابناء الامة العربية جمعاء ؛ لان الامة بحاجة

لامثال القائد البطل يوسف العظمة ، قائد يتقدم الصفوف لدى خوض المعركة ، فيضرب لجنوده المثل على الجرأة والاقدام ، قائد يصمم على مجابهة العدو بنفسه ، وفي خطوط النار الامامية فلا يسمح له بتخطيها الا على دمه وجسده .

لقد ظنت فرنسا لدى عبورها الحدود السورية فوق جسد وزير الدفاع العربي أنها حققت معجزة بانتصار جيشها الجرار المزودبالآليات المدرعة والمدافع الثقيلة والطائرات الحربية ، على شعب أعزل كانت نواة جيشه الصغير مزودة ببنادق حشتها أصابع الخيانـة بذخـيرة لا تجانسها .. ولكن ما لبثت القوات الفرنسية ، بعد ربع قرن فقط، أن تراجعت وتلاشى حلمها الكبير تحت وطأة المقاومة المستمرة التي خاضها الشعب العربي في سورية ضد عدوانها الظالم على سيادته ، واحتلالها الغاشم لاراضيه .

وكان دم الشهيد العربي البطل يوسف العظمة ، وسيظل للابد، وقودا حيا يزكي أوار المعارك التي يخوضها شعبنا ، ويؤجج نيران الحماسة والوطنية في نفوس أبناء هذا الوطن . فالعدوان عابر لا يلبث أن يتحطم على صخرة ارادة الشعب ، ولكن الشهادة خالدة تبقى دائما وأبدا المنارة المشعة التي تنير للاجيال طريق الحرية والكرامة .

ان يوم ميسلون هو يوم مشهود في تاريخ هذا القطر العربي، فهلا من حق ذلك اليوم أن تكرم ذكرى أكرم شهدائه تكريما لائقا بما قدمه هو ومن سقطوا معه في أرض المعركة من خدمات وتضحيات ؟ ان تكريم ذكرى الشهداء هو في الحقيقة تكريم لكفاح الشعب وتجسيد للبطولات التي تظهر بين صفوفه ، وتكريم ذكرى البطل الشهيـد يوسف العظمة ، باقامة نصب تذكاري لائق له في مكان سقوطه شهيدا، في ميدان المعركة ، في ساحة الشرف والفداء ، هو تكريم لشعبنا

المجاهد الابي الذي لا يضن أبناؤه بدمائهم وأرواحهم عندما يدعوهم نداء الواجب اذا لم تحل بينهم وبين معاركهم الوطنية أصابع الخيانة٠

لقد تركت الوزارة دون أن يتسنى لي شرف وضع حجر الاساس في هذا المشروع الوطني ؛ وقد ظل فيما بعد وحتى الآن حبرا على الورق ٠ ولا أدري ان كان سيحظى باهتمام الوطنيين الصادقين في المستقبل أم لا ؟ ٠

★ ★ ★

ان الامم الراقية تسعى لتخليد تاريخها الوطني وحفظ تراثها القومي بمختلف السبل والوسائل ، لان في ذلك تجسيدا لكفاحها ونضالها ودروسا لابنائها وأجيالها ٠

وكم كانت المفاجأة مذهلة عندما طرح على المجلس التنفيذي الذي كنت عضوا فيه ، اقتراح بهدم قلعة دمشق للاستفادة من أرضها المتاخمة للسوق التجاري الرئيسي في المدينة ، وبيعها بعد تقسيمها الى مقاسم تعد للبناء ٠ وقد اعترضت على الاقتراح اعتراضا شديدا، رافضا الفكرة من حيث المبدأ والاساس ٠ ولما عاد السيد رئيس المجلس التنفيذي الذي كان في ذاك الوقت وزيرا للاشغال العامة ، وهو كمهندس اعتاد أن يقيس الامور بالارقام والمعادلات الحسابية المجردة ، وأبدى رأيه حول ضرورة مناقشة المشروع قبل رفضه ، طلبت ارجاء البحث فيه ، ريثما يتسنى للمديرية العامة للآثار والمتاحف المرتبطة بوزارة الثقافة والارشاد القومي اعداد دراسة حول هذا الموضوع الخطير ٠ فجاء تقرير السيد المدير العام للآثار والمتاحف موضحا أهمية هذه القلعة التاريخية ، وقد تضمن نبذة عن تاريخها الاثيل ، وعن بناتها العظام من قادة وحكام ، والعهود التي بنيت فيها ، والمعارك التي دارت حولها ، مع ابراز أهميتها في صد غارات الاعداء

عن المدينة الخالدة ، عبر تاريخها الطويل الحافل بالمآثر والبطولات. كما تضمن التقرير اقتراحات مديرية الآثار حول المشاريع الهامة الواجب تنفيذها لاظهار معالم هذا الاثر التاريخي النادر المثيل في عواصم دول العالم قاطبة .

وبعد اطلاع المجلس التنفيذي على هذه الدراسة ، صار رفض الاقتراح « المريب » الذي يستهدف تبديد جزء ضخم من تراثنا القومي .

★ ★ ★

أخذت الاعتقالات الكيفية وعمليات البطش بالمواطنين الابرياء تتعاظم يوما بعد يوم ، وليس ثمة مسؤول واحد يحاول مناقشة هذه المسائل الخطيرة المتعلقة بحريات المواطنين وكرامتهم . والمجلس التنفيذي برمته غارق في دراسة المسائل الروتينية ، والقضايا الادارية العادية ، التي يمكن أن يتولى تسييرها أي موظف اداري حصيف في الدولة . ونادرا ما كانت تطرح الامور السياسية على بساط البحث، فكانت المناقشة حولها تدور على ألسنة أعضاء المجلس بكثير من التحفظ ، لان الحذر والخوف كانا مسيطرين على الوزراء أنفسهم، كلهم يشعر بالمراقبة الشديدة من حوله ، والعيون تترصده في كل مكان : في الوزارة ، في السيارة ، في الذهاب والاياب ، وفي الاجتماعات والحفلات ، وحتى في البيت . والبعض يخشى البعض الآخر لشعوره بأن المراقبة مفروضة حتى داخل اجتماعات المجلس التنفيذي لان عيون المخابرات كانت حريصة على الاطمئنان على أحوال المواطنين جميعا بدون استثناء ، نواب رئيس الجمهورية قبل الوزراء ، والوزراء قبل غيرهم . والآذان المرهفة كانت تستعين بأجهزة الاستماع ، لالتقاط جميع مايدور بين الناس من أحاديث .

وقد راجت في تلك الايام سوق الاشرطة الصوتية بشكل منقطع النظير ، وقد شاهدت بأم عيني أكواما منها مكدسة فوق بعضها في مكتب الرئاسة في منشية البكري • وقد ظننت بادىء الامر ، أنها تحمل تسجيلات للاغاني والموسيقى تستعمل للترويح عن النفس ، والتخفيف من ثقل الاعباء والمسؤوليات • ولكن العارفين بأحوال تلك الاشرطة كانوا يتهامسون حول حقيقتها ، ويتندرون ببعض ما تحمله من أخبار وأسرار ، دون أن يكتموا عن بعضهم أن الاهتمام بهذه التسجيلات أصبح يشكل الجزء الاضخم من تلك الاعباء والمسؤوليات •

★ ★ ★

طرح السيد وزير العدل التنفيذي على المجلس مشروعا يتعلق بالعفو عن المحكومين السياسيين ، ودار جدل شديد حول الموضوع بين محبذ للمشروع ومعارض له ، وقد ظللت ساكتا طيلة فترة النقاش• وكان سبب المعارضة التي لقيها المشروع أن الموجبات التي قدمها صاحبه لم تكن مقنعة ولا كافية • ولما أراد السيد رئيس المجلس معرفة رأيي شخصيا ، قلت : « يبدو أن الاسباب الموجبة للمشروع غير كافية بنظر السادة الزملاء ، ولكني أقترح تبني سبب جوهري سيقنع به أعضاء المجلس جميعا ومعهم الرأي العام الذي يحسب معارضو المشروع حسابه ، وهو اصدار العفو لا بمناسبة الوحدة التي مضى على قيامها أكثر من سنة ونصف ، بل بمناسبة تشكيل الاتحاد القومي، خاصة وأن عددا غير قليل من أعضائه ليسوا أرقى وطنية ولا أكثر صلاحا من أولئك الذين هم في السجون » • ولكن هذا الرأي لم يرق على ما يظهر للسيد وزير الداخلية الذي كان الموجه لانتخابات الاتحاد القومي بواسطة أجهزة المخابرات والمباحث ، فانتحى بوزير الاصلاح الزراعي السيد مصطفى حمدون الذي كان يجلس بقربه ،

وقال له : « لماذا يصر وزير الثقافة على خلق المتاعب لنا ولنفسه ؟ » فسأله السيد حمدون : « أليس من حق الوزير أن يتكلم ويسهم في النقاش الدائر في المجلس مادام هو عضوا فيه ؟ » فأجابه السيد وزير الداخلية : « بلى ، ولكن ليس باللهجة والاسلوب اللذين يتبعهما الزميل .. والذي أريد أن يعرفه رياض وأنتم معه ، أني لست الوزير الوحيد المكلف بكتابة ما يجري بين الوزراء من أحاديث وتعليقات خاصة ، فهناك غيري من يتولى الكتابة أيضا » . أبلغني الوزير السيد حمدون هذا الحديث الذي دار بينه وبين زميله وزير الداخلية دون أدنى تعليق من جانبه .

ولكن الامور كانت في الحقيقة تتفاقم باضطراد ، والحالة تزداد سوءا دون أن يتجرأ أحد على رفع صوته أو اثارة أي من الموضوعات المتعلقة بحالة الاقليم السوري والاعتقالات الواسعة الجارية بين المواطنين .

وفي احدى جلسات المجلس التنفيذي المعقودة في القصر الجمهوري في حي المهاجرين ، وقبل الشروع في بحث المواضيع المدرجة في جدول الاعمال الموزع على السادة الاعضاء ، بادرت الحاضرين بقولي :

« انكم تطرحون علينا في جدول الاعمال مواضيع غير ذات أهمية ، في حين أن هناك مسائل على غاية كبيرة من الخطورة يجدر اعطاؤها الاولوية في البحث والدراسة خلال اجتماعاتنا » . وأثرت موضوع الاعتقالات والجو الرهيب الذي تعيشه سورية ، فأجاب السيد وزير الداخلية باقتضاب بأن الجو ليس رهيبا ، ولا صحة مطلقا لوجود اعتقالات أو معتقلين ، سوى نفر قليل من الشيوعيين المحتجزين لاسباب تتعلق بالامن . فأكدت أن الاعتقالات تتعدى

الشيوعيين الى غيرهم من المواطنين الابرياء ، وأن الارهاب بالغ حدا أضحى لا يستطيع معه الوزير بحث اعتقال أقرب الناس اليه . فنفى السيد وزير الداخلية صحة هذا الاتهام ، وطلب اعطاء أمثلة واقعية. فسردت على مسامع السادة رئيس وأعضاء المجلس قصة قريب للسيد وزير الزراعة جرى توقيفه بشكل تعسفي ، وبينت حرص السيد الوزير على عدم بحث مسألة قريبه مباشرة ، وسعيه مع زميليه وزيري الاصلاح الزراعي والشؤون الاجتماعية والعمل للتوسط لدى وزارة الداخلية للافراج عنه بصورة خاصة . فسأل السيد وزير الداخلية السيد وزير الزراعة عن اسم قريبه ؛ ولما ذكره له ، قال : « ها ، هذه مسألة ثانية ! .. ان هذا الشخص الموقوف مشاغب كبير في حمص ، وقد كاد يحدث لي فتنة شديدة في تلك المدينة » . فعلقت على كلامه بقولي : « ما دام الامر كذلك ، فلماذا لا تحيلونه الى القضاء ليلقى جزاءه العادل فيكون رادعا له ولغيره من الناس الذين يشكلون خطرا على الامن ؟ » . فتساءل السيد وزير الداخلية باستخفاف : « وهل لدينا قضاء في هذا البلد حتى يمكن الاعتماد عليه ؟ ان أجهزتنا لا تكاد تلقي القبض على المجرم وتحيله الى المحاكم حتى نفاجأ بتركه فورا . » فأجبته : « ان زميلنا السيد وزير العدل حاضر ويمكن سؤاله عما اذا كان في البلد قضاء أم لا . ومع ذلك اذا كان القضاء يعاني بعض الخلل فيمكن العمل على اصلاحه . أما أن نفرض من الاجهزة القمعية سلطة كاملة على حريات الناس وكراماتهم بحجة تأديبهم ، متجاوزين بذلك سلطة القضاء المستقلة، ففي هذه الحالة تصبح تدابير تلك الاجهزة ضربا من القدر » .

فسألني السيد وزير الداخلية محتدا : « وأنت ما علاقتك بهذه الامور ؟ » فسألت بدوري : « ألست وزيرا مسؤولا ؟ واذا كان محرما على الوزراء بحث هذه القضايا الهامة ، فمن صلاحية من

بحثها ومعالجتها ؟ » قال : « يجب أن تذكر أننا نعمل في ظل نظام رئاسي ، وأن كل واحد منا مسؤول أمام سيادة رئيس الجمهورية عن المسائل المتعلقة بوزارته فقط . فأنت مسؤول عن الثقافة ، وأنا مسؤول عن شؤون الامن . واذا ما وقع اضطراب أو ثورة في البلاد فلن يسائلك السيد الرئيس عن ذلك » . فأجبته : « ان مفهومنا للمسؤولية يختلف عن الشكل الذي تحدده أنت حصرا ، لان مسؤوليتنا جميعا ، ومعنا السيد الرئيس ، هي مسؤولية قومية ، وشعبية ، وأدبية ، وسياسية ، قبل أن تكون مسؤولية مسلكية ، واني اذ أثير مثل هذه المواضيع الحساسة المتعلقة بالمصلحة العامة ، فما ذلك الا حرصا على حسن تسيير الامور ودفع احتمالات السوء والمضاعفات التي يمكن أن تنجم عن استرسال أجهزة القمع في أساليبها التعسفية وعن سكوتنا عن حقيقة ما يجري على حساب حريات المواطنين وكراماتهم التي هي من كرامتنا ومن كرامة الحكم نفسه ، لان مثل هذا السكوت هو الذي سيؤدي في النتيجة الى الاضطراب وسوء العواقب » . فقال السيد وزير الداخلية : « ان جميع هذه المسائل خارجة عن اختصاص المجلس الذي هو مجلس تنفيذي ، يقتصر دوره على تنفيذ السياسة التي ترسمها السلطات العليا ، وليس هنا ثمة مجال لمناقشة تلك السياسة » .

ونظرا لحدة الجو وتوتر الموقف اضطر السيد رئيس المجلس التنفيذي لتعليق الجلسة ريثما تهدأ الخواطر .

# ١٤

## تداعي الهرم العتيد

**« والله ما ذل ذو حق وان
أطبق العالم عليه ، ولا عز ذو باطل
ولو طلع القمر من جبينه » .**

« المستنصر بالله »

اتصل بي ذات يوم العقيد أكرم الديري طالبا تحديد موعد لمقابلتي ، وفي الوقت المحدد وأثناء الدوام الرسمي قدم بلباسه العسكري ، ولما استقبلته في الوزارة مرحبا به كصديق غال وعزيز مضى زمن طويل لم أره فيه ، اعتذر عن احتجابه طيلة فترة وجودي في المنصب الوزاري ، مبينا أن مبعث ذلك هو الحرص على تفادي المشاكل التي قد تنجم عن احتكاكه كعسكري بأوساط السياسيين . وانتقل بعد هذا الاعتذار اللطيف الى تفسير أسباب زيارته هذه ، بعد ذلك الانقطاع الطويل ، وقال : « أما اليوم فاني أتيتك بتكليف رسمي من آمري معاون قائد الجيش الاول العقيد عبد المحسن أبو النور » فقاطعته بقولي : « أنا لا أتقبل أي تدخل في شؤون الوزارة من جانب العسكريين ، وقد جرب السيد أبو النور قبل هذه المرة مباحثتي هاتفيا في مسألة تتعلق باجراء اتخذ من قبل أحد مرؤوسي

في الوزارة ، فنهيته عن مثل هذه المحاولة ورفضت الاستماع اليه » .
فقال لي العقيد ديري : « دعني أكمل حديثي ، فالعميد أبو النور لا يكن لك الا كل تقدير واحترام ، وهو في هذه المرة مكلف بأمر من سيادة الرئيس الذي يحمل لك أيضا كل مودة ومحبة ، وسيادته متمسك بك في الوزارة أكثر من تمسكه بغيرك من الوزراء » .
فقلت له : « اذا كان في المسألة مساومة على الوزارة فأنا عازف عنها وبرم بوجودي فيها نتيجة الجو الموبوء الذي نعمل فيه » .. فقال العقيد ديري : « من الواضح أنك تعاني بعض الصعوبات ، وتلقى كثيرا من المعاكسات لدى ممارسة صلاحياتك ، ولكن ثق أن جميع هذه الصعوبات ستذلل من طريقك ، ولن تلقى الا كل مساعدة عندما تعدل عن الخطة التي تتبعها كوزير مسؤول » ، ولما استنكرت أن يكون سلوكي محل شك من قبل أي كان ، أو أن أوضع موضع الاتهام ، أكد العكس قائلا : « أنت حائز على تمام الثقة ، ويجب أن تعلم أنك من دون الوزراء الآخرين جميعا قد سميت وزيرا ، لصفات لاصقة بشخصك ولاعتبارات خاصة بك ، وعليك كي تعزز هذه الثقة أن تعمل على تحقيق أمرين اثنين : الاول تخفيف حدة مواقفك من القضايا العامة ، والثاني قطع الصلة نهائيا بالوزراء الحزبيين ؛ وآنئذ سترى كيف أنهم سيذهبون جميعا ، وستبقى أنت في الوزارة معززا مكرما » ، فقلت له : « هذه مساومة رخيصة لا أقبل بها البتة ، واني أستغرب كيف يريد مقام الرئاسة مني أن أقطع صلتي بأناس جعلني قرار تشكيل الوزارة زميلا لهم ، ملتصقا بحكم عملي بهم ، هذا بالاضافة الى كون بعضهم أصدقاء شخصيين ورفاقا سابقين في النضال السياسي المشترك ، واني أستغرب أيضا كيف ينظر الى هؤلاء الوزراء كحزبيين في حين أنهم أسهموا في حل حزبهم عن قناعة ورضى تسهيلا لقيام الوحدة بين القطرين . ومع ذلك ، فما دام الامر يتعلق ببقائي في الوزارة أو خروجي منها ، فاني أصبحت أفضل التخلي عن هذا

المنصب اليوم قبل غد ، ولا يهمني أبدا أن يبقى سائر الزملاء في مناصبهم الوزارية • والذي يجب أن يعلمه مقام الرئاسة قبل غيره ، هو أني لست سياسيا محترفا ، ولا انتهازيا مستوزرا ، وان صراحتي هي جزء من كياني ووجودي ، وأنا لا أعمل الا بوحي من قناعتي ، وان ضميري مرتاح لسلوكي ولجميع تصرفاتي ؛ وان كنت ألوم نفسي على شيء فهو أني قبلت الاشتراك في هذه الوزارة منساقا وراء عاطفتي الوطنية وحماسي القومي اللذين تأججا لدى قيام الوحدة بين القطرين العربيين • والآن ان أخشى ما أخشاه هو أن تؤدي الاخطاء السياسية التي تتراكم يوما بعد يوم الى تصدع هذه الوحدة، التي نريدها دائما وأبدا قوية خالدة سرمدية » •

وبعد أن عددت للعقيد ديري الكثير من الملاحظات حول الاخطاء التي ترتكب والاساءات التي توجه الى الشعب والحريات العامة وكرامة المواطنين بما فيهم الوزراء أيضا ، لم يكتم عني بدوره سخطه ونقمته هو وأغلبية العسكريين السوريين لما يجري على صعيد السياسة والحكم والادارة ، سواء في النطاق المدني أو في الميدان العسكري • وانصرف السيد ديري الى قيادته لينقل بالتأكيد خبر فشله في اقناعي بالشروط التي كلف بحملها الي ، كما أطلعت أنا بدوري نائب رئيس الجمهورية السيد أكرم الحوراني على خلاصة الحديث الذي دار بين مندوب الرئاسة والجيش وبيني • ولكن السيد الحوراني الذي استهجن مثل هذا الاسلوب في معالجة شؤون الحكم وفي توجيه سلوك الوزراء الزملاء نحو بعضهم ، فاتح سيادة الرئيس معاتبا من جهة ، ومحذرا من مغبة الاسترسال في اتباع هذا الاسلوب في تهديم علاقات المسؤولين ببعضهم من جهة ثانية • ولم يكتم السيد الحوراني عن سيادة الرئيس أيضا وبحسن نية أكيدة الصورة التي

أعطاها السيد العقيد ديري عن استياء العسكريين من الاوضاع العامة وتلك الخاصة بهم، وما قد يجره هذا الاستياء على نظام الحكم من أخطار . ولكن هذا الحديث الصريح من قبل نائب الرئيس مع سيادة الرئيس لم يسفر الا عن مزيد من التعقيدات والصعوبات التي أمعنت السلطات العليا بواسطة الاجهزة التابعة لها مع دوائر المخابرات ، في وضعها في طريق ممارسة نشاطي الرسمي وصلاحياتي الوزارية .

★ ★ ★

في أول شهر أيار ( مايو ) ١٩٥٩ تلقيت رسالة وردتني بالبريد الرسمي عن طريق رئاسة المجلس التنفيذي في الاقليم السوري ، وهي صادرة عن وزارة الدولة لشؤون رئاسة الجمهورية ، ممهورة باسم الوزير السيد علي صبري ، ولكن دون أن يكون عليها أي توقيع أو امضاء منه أو من غيره .

والرسالة كانت على جانب كبير من الخطورة والاهمية . ولكن لماذا أرسلت الي مغفلة من التوقيع ؟ هل لان السيد الوزير ، المرسلة باسمه ، كان مدركا تماما لمعنى كلماتها ، ومغزاها العميق ، ومدلولها البعيد المرتبط بنظرة الحكم الى موضوع الحريات العامة وعلى رأسها حرية الكلمة ؛ ولذلك لم يشأ أن يأخذ على عاتقه مسؤولية مثل هذا التوجيه الخطير الذي تضمنته الرسالة ؟ أم أن موظفي الوزارة أرسلوا الرسالة دون أن يعرضوها على وزيرهم ، عمدا أو نتيجة السهو أو الاهمال ؟

قد لا تكون للورقة أية قيمة من وجهة نظر القانون الذي يعتبرها بحكم العدم لانها لاتحمل توقيع من صدرت باسمه ؛ ولكنها ، بما كانت تحمله من أوامر ونواه ، في أدق مسألة تتعلق بسياسة الدولة،

وبالمسلك الذي يجب أن يخضع له الوزير ، في ظل نظـام الحكـم السائد فيها ، كانت لها أهمية وقوة أعظم من قوة القانون .

لقد صدرت وكأنها صك دستوري ملحق جاء متمما لمبادىء الدستور الموقت الذي تضمنه الميثاق القومي المتفق عليه بين رئيسي جمهورية مصر والجمهورية السورية في مطلع عام ١٩٥٨ ، والحائز على موافقة كل من مجلس الامة المصري ومجلس النواب السوري . ولكن مصدر الصك الجديد لم يكن الشعب ، ولا مجالسه التشريعية المعطلة ، ولا سيادة رئيس الجمهورية العربية المتحدة الذي بايعـه الشعب في كل من القطرين العربيين ، مصر وسورية ، وجعله رئيسا للجمهورية الفتية ، وأمينا على مقدراتها وحاميا لدستورها الموقت ريثما يتم وضع الدستور الدائم الذي أمر الدستور الموقت باعداد العدة لاصداره نهائيا .

لقد كانت الرسالة في الحقيقة تشكل مخالفة دستورية بالغـة الاهمية وشديدة الخطورة . انها تشكل تجاوزا صريحا للصلاحيات من جانب وزير ليس له أن يأمر وزيرا آخر ، بالاضافة لما ترمي اليه من جهة تعطيل حرية الكلام ، حتى على الوزراء أنفسهم ، في حـين أن المادة الثالثة من الدستور الموقت نصت على أن « الحريات العامة مكفولة في حدود القانون » . وقد تذكرت ، لدى اطلاعي عليهـا وتأملي فيها ، ما كان وجهه السيد رئيس الجمهورية من كلام قارص الى السيد وزير العدل التنفيذي السوري ، عندما حاول الاعتذار عن الاجابة عن سؤال السيد الرئيـس حول موضوع سياسي حساس، بحجة أنه وزير فني لا يريد الاهتمام بشؤون السياسة . فقـد كان تعليق السيد الرئيس على ذاك الاعتذار ورفضه له ، صريحا حاسما؛ اذ أكد سيادته على أن مجرد وجود شخص الوزير في الوزارة يجعل منه سياسيا مسؤولا عن مناقشة القضايا السياسية ومعالجة شؤون

الدولة • فكيف يريد السيد وزير الدولة لشؤون الرئاسة من زميله في الحكم ، أن لا يبوح ولو بكلمة ، ولا يدلي بأي تصريح له علاقة بشؤون السياسة وقضايا الساعة ؟ واذا كان مطلوبا من وزير الاعلام أن لا يتكلم أو يدلي بأي تصريح ، فمن سيكون اذن الناطق بلسان الدولة والموجه لشؤون الدعاية في ما يتعلق بالقضايا التي تهم المواطنين بدءا من القضايا الوطنية المصيرية وانتهاء بأبسط المسائل الادارية أو المحلية ؟ وما هو ياترى موقف السيد رئيس الجمهورية من هــذا التصرف الغريب الذي أقدمت عليه وزارة الدولة لشؤون رئاســة الجمهورية ، والذي بلغ حد المخالفة الدستورية ؟ هل هو صادر حقيقة بتوجيه من سيادته ، أو على الاقل باطلاعه وموافقته ؟ واذا كانت هذه رغبته ، فلماذا لم تصدر الرسالة عنه مباشرة ، كما جرت العادة أن يفعل في الحالات العادية ، وفي الامور الاقل خطورة وأهمية ؟

وتسارع الظروف لتعجل بوضع من وجهت اليه الرسالة أمام تجربة صعبة ، واختبار دقيق لمدى استعداده لمسايرة الركب ، وانزلاقه الى هاوية الصمت التي كان يراد للقضايا الوطنية المصيرية أن تدفن فيهــا •

★ ★ ★

ففي ليلة الخامس عشر من أيار ( مايو ) وهو نفس اليوم المشؤوم الذي أعلن فيه عن قيام دولة اسرائيل عام ١٩٤٧ أي قبل اثنى عشر عاما ، أتاني الى داري المدير العام لهيئة الاذاعة السورية السيد يحيى الشهابي ، مبديا أسفه الشديد لانه لم يتلق من القاهرة وحتى ذلك الوقت المتأخر ، أي توجيه يتعلق بهذه المناسبة القومية الهامة ، مؤكدا على أن الدولة لم تكن في الماضي لتهمل اعطاء هذه المناسبة ما تستحقه من اهتمام ، وأن لابد من القاء كلمة تعبر عن الموقف الرسمي من هذه

الذكرى الاليمة القاسية • ولما طلبت منه اعداد تعليقات سياسية تفي بالغرض المنشود ، واذاعتها بأعقاب النشرات الاخبارية ، أجاب بـأن التعليقات الاذاعية المعتادة لا تكفي ، ولا بد من توجيه كلمة الـى المواطنين بلسان أحد المسؤولين تعبر عن سياسة الحكم تجاه فلسطين، وألح على أن أتولى أنا بنفسي توجيه الكلمة بالنظر لكوني الوزير المسؤول عن أجهزة الاعلام في الاقليم السوري •

وكان علي ، حسب تعليمات السيد وزير الدولة لشؤون الرئاسة، في رسالته الموجهة في أوائل الشهر ذاته ، أن أتوجه بطلب المشورة من القاهرة ، للحصول على الاذن بالكلام وعلى ما يجب أن أتكلم به • ولكني أنا شخصيا ، وبعد الاقتناع بوجهة نظر مدير الاذاعة ، ودون الرجوع الى القاهرة ، نظرا لضيق الوقت ، عزمت على توجيه كلمة صريحة الى الشعب ، عبر موجات الاذاعة ، أضمنهـا رأيـي وأحاسيسي المستمدة من وجداني القومي ومن مبادىء الكفاح العربي المتواصل في سبيل استعادة الارض المغتصبة • وانبريت اثر ذلك لكتابة كلمتي ، بينما طلب مدير الاذاعة من بعض الموظفين الفنيين احضار الجهاز اللازم لتسجيل الكلمة تمهيدا لاذاعتها في الوقت المناسب •

وفي صباح اليوم التالي ، تولت اذاعة دمشق بث الكلمة المسجلة بصوتي عبر موجات الاثير [١] • ولم تكن عباراتها لتخرج في الحقيقة

(١) نص الكلمة المذاعة من اذاعة دمشق :

في الخامس عشر من شهر أيار عام ١٩٤٨ ، نفذت على ارض فلسطين العربية ، اخطر واحقر مؤامرة عرفها تاريخ البشرية ، منذ القديم وحتى الآن .

وكان المتآمرون هم أقطاب الدول الاستعمارية جميعها ، وعملاءهم من الحكام العرب الذين اعمتهم أنانياتهم الشخصية ، ومصالحهم الفردية ، وجعلتهم ينحدرون الى الدرك الاسفل من الخيانة ؛ فكانوا

عما يختلج في صدر أي مواطن عربي ، وعما تلقنه كتب التاريخ لطلابنا في المدارس الرسمية منذ الصفوف الابتدائية وحتى نهاية

---

هم انفسهم الاداة المباشرة التي استخدمها المستعمرون والصهاينة لتوجيه الطعنة الغادرة الى جسم هذا الجزء الغالي من الوطن العربي .

وكان اقحام الجيوش العربية في غمار المعركة ، هو الفصل البارز من فصول هذه المؤامرة الدولية الخطيرة التي قامت على اكبر خدعة انطلت ، لا على شعب فلسطين وحده ، بل على الشعب العربي كله ، اذ لاقت فكرة دخول هذه الجيوش أرض المعركة تأييد وحماس جماهير الشعب في كل مكان . وكان الاعتقاد السائد أن القيادة العليا لهذه الجيوش كانت في ايد أمينة ، وأن الجولة من شراذم اليهود لن تطول ، وان من مصلحة أبناء فلسطين اخلاء أرضهم وهجر بيوتهم الى حين قصير ، ريثما يتم تطهير بلدهم من رجس العصابات الصهيونية الباغية ، وبذلك يوفرون على أنفسهم الخسائر والضحايا ، ويضمنون العودة الى أرضهم الطاهرة في وقت قريب .

ولكن بفعل الخيانة ، وحدها ، انتقلت المبادهة الى أيدي الاعداء الغادرين . وكان الثمن الذي دفعه العرب ، نظير خيانة حكامهم ، هزيمة مصطنعة ، وعارا الصق بجيوش سبعة ، كان أي منها كفيلا لوحده بتحرير فلسطين ، فيما لو ترك الزمام لضباطه الاحرار ، وخسارة لارض يفتديها اهلها بالدماء والارواح ، وتشريدا لمليون عربي ما لانوا يوما في وجه الطغاة المستعمرين واتباعهم الصهيونيين ، وولادة دولة مسخ هي دولة اسرائيل المزعومة .

وهكذا نجحت المؤامرة نتيجة غفلة الشعب ، وتعدد القادة ، وزيف القيادة التي لم تكن نابعة من صميم الشعب ، بل كانت مفروضة عليه ، اما بالخداع ، أو بقوة الاستعمار وحراب المحتلين الغاصبين .

ولو أن عرب فلسطين تركوا وشأنهم ، لما كانت اقترنت المؤامرة على أرضهم ، الا بمثل ما باءت به المؤامرة على بور سعيد الباسلة . وما بطولة شعب فلسطين الا كبطولة شعب مصر والجزائر ، ولكن

مراحل التعليم الجامعي . ولكن النظـام الرئاسـي اذا لـم يحط بالضمانات الدستورية الكافية ، وان لم تنهض فيه السلطات العلياء

---

يد الغدر والخيانة هي التي فعلت فعلها في احلال الكارثة ، ووقوع المأساة .

ولكن الكارثة لم تكن لتثني الفلسطينيين عن عزمهم على استعادة أرضهم ، والمأساة لم تكن لتفت في عضد العرب في كافة ديارهم ؛ بـل على العكس ، فمن آثار تلك الكارثة الرهيبة ، وفي جو المأساة الاليمة، عرف العرب حقيقة حلفائهم المزعومين ، وواقع حكامهم المخادعين . وتنبه الوعي العربي ، واستيقظ المارد الجبار ، ونشبت في بلاد العرب الثورات التحررية . وكان من أبرز تلك الثورات ، ثورة مصر الجبارة بقيادة البطل الثائر جمال عبد الناصر الذي رسم ، منذ البداية ، لهذه الثورة أهدافها . وكان على رأس هذه الاهداف ، تحرير البلاد العربية جميعها ، والكفاح في سبيل تحقيق وحدتها .

ولذا كان من منطق الامور أن تلتقي مصر وسورية ، بعد تحررهما، التقاءاً تاماً ومباشراً ، وأن تتحقق الوحدة التامة بينهما ، بقيام هذه الدولة العظمى في الشرق الاوسط ، الجمهورية العربية المتحدة . وكان من بداهة الامور أيضا أن تتجه هذه الجمهورية بكليتها حكومة وشعباً ، نحو تحقيق أهداف العرب جميعاً في التحرر والوحدة ، وأن تستقطب في هذه المعركة ، معركة التحرر العربي ، أحرار العرب كلهم ، لان هذه المعركة ليست معركة الجمهورية العربية وحدها ، بل معركة العرب جميعهم .

وقضية فلسطين نفسها ، وذكرى الخامس عشر من أيار ذاتها، تنهضان اليوم ، في هذه المرحلة الخطيرة التي تجتازها الامة العربية ، لتذكراننا بالعبرة التي خرجنا منها من معركة فلسطين ، وهي أن السبيل الاسرع لانقاذ باقي أجزاء الوطن العربي من براثن الاستعمار والعبودية، هو في اتحاد العرب وتضامنهم ، وأن تحرير فلسطين يمكن أن يتحقق بتجميع جهودنا وقوانا ، وتوحيد قيادتنا ، والاخلاص لمبادىء ثوراتنا

كالسلطة التشريعية ، والسلطة القضائية ، لتمارس دورها ورقابتها بشكل دستوري فعال ، لا يلبث أن ينقلب الى نظام فردي ديكتاتوري، لا يدع أي مجال لاي انسان أيا كانت صفته أو منزلته أن يعبر عن رأيه ومشاعره حتى في القضايا المصيرية التي لا تتعلق بوطنه وشعبه وحدهما بل وحتى بكيانه وكرامته ووجوده على أرض هذا الوطن. لذلك اعتبرت الكلمة المذاعة من قبلي في اذاعة دمشق مخالفة صريحة للتعليمات الموجهة الي خطيا ، من السيد وزير الدولة لشؤون رئاسة الجمهورية ؛ اذ كان يتحتم علي حسب تلك التعليمات أن لا أدلي

---

التي ما قامت هنا وهناك الا بقصد تحرير الوطن العربي وتحقيق وحدته .

وفي هذا اليوم بالذات ، يوم الخامس عشر من ايار ، حيث تعلمنا درساً يجب أن لا يطوى من ذاكرتنا ، وأن لا يغرب بأي حال عن بالنا، وهو أن القوة هي في اتحادنا وتضامننا ، وأن الهزيمة والخسران هما في تفرقنا وتناحرنا ، وأن خلافاتنا لن تخدم الا أعداءنا المستعمرين الذين يهللون ويكبرون لمنازعاتنا التي فيها خدمة لمصالحهم ، ودوام لسيطرتهم، وبقاء لربيبتهم المسخ اسرائيل .

فهلا وعينا هذه الحقيقة التي ما فتيء زعيمنا وقائدنا المفدى جمال عبد الناصر يؤكدها ، في كل مناسبة ، اخلاصاً منه لمبادىء ثورتنا العربية ، وحرصاً منه على تحرير الوطن العربي عامة ، وفلسطين خاصة ، وهي التي روى ثراها هو وزملاؤه الاحرار ، من ضباط وجنود الجيوش العربية ، بعرقهم ، ودمائهم الزكية .

فبراً بهذه الدماء وثأراً لارواح الشهداء ، يقتضي الواجب أحرار العرب في كافة ديارهم وأقطارهم ، أن يقفوا اليوم صفاً واحداً في الطريق التي سقط ويتساقط فيها شهداء القومية العربية في كل مكان ، طريق تحرير فلسطين والجزائر وعدن وعمان وغيرها ، طريق الوحدة العربية الشاملة .

بأي تصريح في أية مناسبة ، وأن أحصل مسبقا على موافقة مقام الرئاسة على كل كلمة أو حرف أفكر بالتعبير عنه بأية وسيلة من وسائل التعبير •

لقد خرقت اذن الصك « فوق الدستوري » الذي تضمنته الرسالة الواردة الي ، بدون توقيع ، وأسأت استعمال الجهاز الاذاعي الذي هو من أهم وسائل الحرب النفسية التي صممت الزعامة السياسية والقيادة العربية على خوضها ضد اسرائيل عوضا عن المعركة المسلحة• ولذلك كان لابد من اتخاذ اجراء حاسم ، لمنع تكرار هذا الخرق الفاضح للتعاليم فوق الدستورية ، وللحيلولة دون أن يعلو صوت ما في الجمهورية الفتية القوية ، على صوت المعركة • فلينزع اذن هذا السلاح الرهيب ، الذي هو سلاح المعركة الاول والاخير ، من يد هذا الوزير الشاب المتهور وقليل الخبرة في الشؤون الدبلوماسية والعلاقات الدولية ، بعد تطاوله على دولة هي عضو في الامم المتحدة، وكيانها مكفول من دول المعسكرين الكبيرين • ولم تمض برهة وجيزة من الزمن ، الا وصدر الامر السامي بتجريد وزير الثقافة والارشاد القومي من صلاحية الاشراف على المديرية العامة للاذاعة في الاقليم السوري ، وبربطها مباشرة بوزارة الدولة لشؤون رئاسة الجمهورية •

* * *

لم أتأثر كثيرا لانهاء ندبي للاشراف على شؤون الاذاعة ولم أعتبره حجبا للثقة كما راحت تروج لذلك الصحف والاذاعات المعادية، لان هذا الاشراف ظل في الحقيقة شكليا منذ بدء تكليفي به • فالصلاحيات المتعلقة بمديريتي الدعاية والانباء والاذاعة كانت أصلا من اختصاص رئاسة مجلس الوزراء ، وقد انتقلت برمتها الى رئاسة

الجمهورية لدى قيام الوحدة بين القطرين ، وقد كان سيادة الرئيس حريصا كل الحرص على الاحتفاظ بهذه الصلاحيات ، ولم يوافق البتة على نقل ولو جزء منها الي ، رغم صدور قرار جمهوري باعطائي صلاحيات الوزير المختص فيما يتصل بمديريتي الاذاعة والدعاية والانباء ، وهي صلاحيات تقتصر على ادارة شؤون الموظفين فقط . وقد استفادت هيئة الاذاعة من تمتعي بهذه الصلاحيات للتخلص من بعض الموظفين الذين كانت تربطهم صلات خفية بأجهزة المخابرات أو المباحث ، فكانوا يشكلون في أوساط موظفي الاذاعة مراكز قوة يستغلونها لارهاب زملائهم بدءا من المدير العام وانتهاء بالفنانين والفنانات المساهمين في احياء برامج الأذاعة الفنية والغنائية . وقد نقلت بعض هؤلاء الى وظائف أخرى في وزارة الثقافة حيث وضعتهم خارج مراكز القوة . أما التوجيه السياسي فكان مصدره وزارة الدولة لشؤون الرئاسة ، وكان يأتي مباشرة الى هيئة الاذاعة والى مديرية الدعاية والانباء ، وكانت تأتيني أحيانا نسخ عنه على قصاصات من ورق وبالقلم الرصاص يحضرها أو يبعث الي بها موظف الاستعلامات المصري . والحقيقة التي لمستها بنفسي أن جهاز الاذاعة كان كالطبل الاجوف ، ضجته تصم الآذان ، ولكنه فارغ ، خاو على عروشه ؛ ويمكن تشبيهه بسلة ذلك المارد الاسمر الذي شاهدته في صباي يعرض ألعابه على جمهور المتفرجين الدمشقيين وعلى قارعة الطريق ، فيأخذ عليهم ألبابهم ويعقد ألسنتهم من الدهشة ببراعته وحنكته الفائقتين .

كانت السياسة تستهدف من وراء ذلك الجهاز الفارغ ، اخراج كؤوس المر والعلقم والايحاء الى شاربيها المواطنين بأنها اللبن والعسل؛ ثم لا تلبث أن تخرج من جوفه سيوفا براقة توهم العرب بأنها ستجهز بنصالها الحادة على دولة العصابات الصهيونية ، ولكن سرعان ماكان

المواطنون المقهورون يكتشفون أن تلك السيوف انغرست في حلوقهم لتخنق حرية الكلمة حتى في أفواه الوزراء • ويأتي بعد ذلك كله دور الدنانير والليرات الذهبية التي كان الحواة البارعون يوهمون الرأي العام بأنها ستملأ خزينة الدولة وجيوب رعاياها عن طريق برامج التنمية ومشاريعها السخية ، فلم يكد يمضي حين قصير من الدهر حتى وقعت الخزينة العامة في عجز مالي كبير ، وفرغ المصرف المركزي من مدخراته الوفيرة من القطع النادر ، ووجد الناس أنفسهم يقفون أرتالا أمام دوائر الشؤوز الاجتماعية والعمل ينشدون العمل البسيط والاجر الزهيد يسدون به رمق أطفالهم الجياع ، وكثيرا ما كانوا يعودون بعد طول انتظار وفارغ صبر ، خالي الوفاض صفر اليدين •

★ ★ ★

جاءني ذات يوم المواطن السيد منير الشريف بخبر جد مثير ، وهو أنه تابع بنفسه ما يتلى صباح كل يوم في الاذاعة من آي الذكر الحكيم ، فلاحظ أن التلاوة لا تشمل الآيات والسور التي يندد فيها القرآن الكريم ببني اسرائيل • وقد استدعيت مدير الاذاعة خصيصا لهذا الغرض وأمرته بالتحقيق في هذا الامر الخطير ، ولكن الامـر السامي بالغاء اشرافي على الاذاعة حال دون متابعتي لهذا الموضوع ، الذي ربما كان لاهتمامي به ، كما كان لكلمتي الاذاعية تلك ، الاثر الفعال في ما صدر من اجراء حجب عني صلاحية الاشراف على الاذاعة•

★ ★ ★

نصت المادة الخامسة من الدستور الموقت على أن يتولى السلطة التشريعية مجلس يسمى مجلس الامة ، واشترطت أن يكون نصف أعضائه على الاقل من بين أعضاء مجلس النواب السوري ومجلس الامة المصري ، كما نصت على أن يحدد أعضاء هذا المجلس ويتم

اختيارهم بقرار من رئيس الجمهورية . وكان من المفترض أن يتم تشكيل المجلس غداة الاعلان عن قيام الجمهورية العربية المتحدة ، ليتولى السلطة التشريعية ، حسب أحكام الدستور ، ولتكون له الرقابة الدستورية على أعمال السلطة التنفيذية .

ولكن مضى أكثر من عامين على قيام الوحدة دون أن يصار الى تشكيل المجلس ، وقد انفرد رئيس الجمهورية خلال تلك المدة الطويلة لوحده ، دون تفويض من الشعب أو من أي من مجلس الامة المصري أو مجلس النواب السوري ، بممارسة السلطة التشريعية الى جانب السلطة التنفيذية التي أولته اياها المادة السادسة من الدستور .

وكانت هذه مخالفة دستورية صريحة ، رافقها عدد من المخالفات الدستورية الاخرى ، وهي لا تقل عنها شأنا أو خطرا . فالمادة الثانية من الدستور تنص على أن يكون لكل اقليم مجلس تنفيذي يرأسه رئيس يعينه رئيس الجمهورية ويعاونه وزراء يعينون بناء على اقتراح رئيس المجلس . ولكن نص هذه المادة لم يحترم بشكل تام ، فرؤساء المجالس التنفيذية لم يقترحوا تعيين الوزراء ، وانهم لو فعلوا ذلك لتحروا اختيار عناصر يتوفر بينها الانسجام ، في حين أن من جرى تعيينهم بدون اقتراح رؤساء المجالس التنفيذية في الاقليم السوري كان يشكلون خليطا غير متجانس من الموظفين المدنيين والضباط العسكريين ، وقليل من السياسيين السابقين .

واذا كان لبعض هؤلاء العذر في السكوت عن المخالفات الدستورية المرتكبة لكونهم من الموظفين أو من الضباط ، فانه لم يكن للسياسيين ، وأنا واحد منهم ، أي عذر في ذلك ، لان التغاضي عن المخالفة الدستورية هو اشتراك في ارتكابها ، وللمخالفات الدستورية حساب دقيق وصارم لدى الشعوب الراقية ، وان كنا قد

اعتدنا في متجمعاتنا التستر على مثل هذه المخالفات والتجاوز عنها حتى ولو بلغت درجة الخيانة العظمى •

وقد تراكمت المخالفات ، الواحدة فوق الاخـرى ، دون أن يتصدى انسان ما ، لا لاحباطها أو قمعها ، بل وحتى لرفع عقيرتـه بالنقد أو الشكوى • وكان للمواطنين العذر في السكوت عن تلك المخالفات ، لما ساد الاقليم السوري من جو ارهابي قاس مرير ، لم يكن لينجو من ويلاته حتى الصامتون • أما الوزراء والسياسيون منهم خاصة فان سكوتهم بل ومجرد قبولهم الاشتراك في حمل أعباء السلطة في ظل غياب المؤسسات الدستورية يشكل اشتراكا في الاثم بحق الشعب ؛ وان كان انجراف هؤلاء مع التيار يعود الى أسباب عدة أهمها الموجة الحماسية العاطفية التي رافقت قيام الوحدة وطغت على أي تفكير حر هادىء سليم ، وقوة شخصية رئيس الجمهورية الذي كان محط آمال الامة العربية ؛ فقد انحلت بأمره الاحزاب ، وتخلت عن قياداتها الزعامات ، وانحنت أمامه الهامات ، وغدت الانظار شاخصة الى القائد الكبير ورائد الامة العظيم والآمـال الضخمـة معقودة عليه ، والنفوس تواقة للنصر الكبير الذي كان يأمل الشعب بتحقيقه تحت قيادته المظفرة •

ولكن سرعان ما اكتشف الشعب أنه يسعى وراء السراب ، وتكشفت الصورة أمامه واضحة سافرة ، وهي أن نظام الحكم الذي يسوده ليس الا حكما ديكتاتوريا بوليسيا ارهابيا ، تسيره أجهزة المخابرات والمباحث التي راحت تمعن في ارهاب المواطنين والتنكيل بالمعارضين بشكل لم يعهده شعبنا في أظلم عهود تاريخه •

★ ★ ★

كان يمكن أن تسير الامور على غير هذا المنوال فيما لو احترم

الدستور ، وتكونت المؤسسات الدستورية كما حدد خطوطها العريضة ورسم معالمها الواضحة الدستور المؤقت للدولة الجديدة • وقد نصت المادة الثالثة عشرة من هذا الدستور على تكوين اتحاد قومي للعمل على تحقيق الاهداف القومية ولحث الجهود لبناء الامة بناء سليما من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية • وقد عهدت المادة المشار اليها الى السيد رئيس الجمهورية تكوين هذا الاتحاد بقرار منـــه •

وكان المعتقد أن الاتحاد القومي سيكون الدعامة الاساسية في بناء الدولة الجديدة ، وسيكون هو المصدر الرئيسي والموجه الاول لجميع السلطات ، وان اتاحة الفرصة ومنذ البداية للمواطنين الاحرار والناس الشرفاء على اختلاف ميولهم واتجاهاتهم ، لتشكيل هـــذا الاتحاد سيشكل القاعدة الشعبية الديمقراطية الواسعة في بناء هيكل التنظيم السياسي الجديد • وكان من المنتظر أن تتشكل الاجهزة الدستورية وأن تنبثق القيادات السياسية عن طريق التسلسل الهرمي بدءا من القاعدة وانتهاء بالقيادة ؛ فيكون الشعب هو قاعدة الهرم ، والقيادة العليا هي رأسه • ولم يكن ليخطر ببال أحد من المواطنين العرب أن تنعكس الامور وتنقلب الاحوال ، بأن يقف الهرم العتيد على رأسه وأن تبقى قاعدته العريضة الواسعة معلقة في الهـــواء • فالهرم في مثل هذه الحال لا يمكن أن يقف طويلا ، وأن يصمد كثيرا، أمام العواصف ولا بد أن يتعرض سريعا وسريعا جدا للانهيار مهما بلغت ضخامة الرأس وقوته ، بعكس الهرم الفرعوني الاكبر في الجيزة الذي ظل صامدا آلاف السنين يتحدى أعاصير الزمان ويجابه خطوب الدهر ، لان قاعدته راسخة على الارض وأنفه شامخ في الفضاء •

★ ★ ★

لقد تأخر كثيرا صدور قرار رئاسة الجمهورية بتشكيل الاتحاد القومي ، وكان في غيابه وغياب أي تنظيم سياسي حزبي أو شعبي ، فرصة لاجهزة المباحث والمخابرات لتمعن في الفتك بحريات الناس وكراماتهم ومصالحهم وحتى بأرواحهم ، لم ينج من براثنها مدني أو عسكري ، سياسي أو حزبي ؛ يرافق ذلك سوق رائجة للمتاجرة بالضمائر وشراء المحاسيب والانصار • وأخيرا وفي مثل هذا الجو من التفسخ جرت انتخابات الاتحاد القومي • وكانت فرصة جديدة لتمزيق وحدة الصف الوطني ، ولالهاء الشعب بمعركة وهمية كانت من أقذر المعارك التي زج فيها بالمواطنين ، لا ليتعاونوا على تكوين اتحادهم الوطني المنشود ، بل لاثارتهم ضد بعضهم بعضا ، بتحريك فلول القوى السياسية وبقايا الاحزاب المنحلة للتناحر على مراكز فارغة ومكاسب وهمية •

وقد رافق عمليات الانتخابات لعضوية الاتحاد القومي موجة من التلاعب والتزوير لم يشهد لها تاريخ سورية الحديث مثيلا ، لا أيام الانتداب ولا في عهد الاستقلال ، وحتى في أيام الديكتاتوريات العسكرية الفاجرة •

وقد أكره جميع الوزراء التنفيذيين السوريين على ترشيح أنفسهم لتلك الانتخابات في حين أن بعضهم كان لا يود خوض هذه المعركة الانتخابية مع رغبة أكيدة في التخلص من أعباءالحكم ومآزقه السياسية • وكان أحد هؤلاء السيد وزير التربية والتعليم التنفيذي، فقد سافر خصيصا الى القاهرة وكنت بصحبته وسعى مع زميله السيد وزير التربية والتعليم المركزي لاعفائه من هذا الحرج الكبير ، فهو أديب وشاعر وأستاذ جامعي ، وقد سبق له الانتساب الى الحزب العربي الاشتراكي ، واحتل مركزا قياديا رفيعا فيه ، ولكنه بعد قيام عهد الشيشكلي والاجراءات السياسية القسرية التي رافقته وبعد دمج

حزبي البعث العربي والعربي الاشتراكي وتوحيدهما ، عزف الرجل الاديب وأستاذ الجامعة القدير ، عن العودة لممارسة أي نشاط حزبي أو سياسي ، وانصرف الى ممارسة التدريس في الجامعة موجها اهتمامه باخلاص وأمانة للعلم والادب والثقافة ، حتى ندب لدى تشكيل الوزارة الثانية ليتولى وزارة التربية والتعليم ، حيث لاحظ تسلط المستشارين المصريين على مقدرات الوزارة ، فعافت نفسه مرة جديدة العمل السياسي ، ووجد في الاعتذار عن ترشيح نفسه لعضوية الاتحاد القومي فرصة مواتية للتخلي عن منصبه الوزاري • ولكن الدوائر المركزية المسؤولة أثنته عن عزمه ، وأقنعته بترشيح نفسه وكفلت له النجاح سلفا في الانتخابات ، التي كان يحسب هو والكثيرون من الوزراء الفنيين مغبة خوضها وعدم الفوز فيها •

وقد باشر السيد رئيس المجلس التنفيذي في الاقليم السوري بنفسه ابلاغ جميع الوزراء السوريين رغبة مقام الرئاسة بترشيح أنفسهم لانتخابات الاتحاد القومي ، وظل يتابع المسعى ، حتى آخر لحظة ، الى أن تأكد لديه تقديم طلبات الترشيح من زملائه جميعا •

ولكن في جو الدعاية والتشويش الذي رافق الحملة الانتخابية منذ البداية ، والتي نشطت فيها أجهزة المباحث والمخابرات نشاطا عجيبا باثارتها الاشاعات والاقاويل حول بعض الوزراء ، وبشكل خاص ضد من فاز بالامس القريب بثقة الجمهور الدمشقي وأصبح نائبا عن العاصمة السورية بارادة الشعب ، ولقناعتي بحقيقة الاتحاد القومي ، حسب ما تراءى لي من خلال تجربتي في الحكم ، وبأن الانتخابات من أجله لم تكن الا ألهية للشعب ، لم أسهم بأي نشاط انتخابي ، ولم أشترك في أية قائمة انتخابية ، ولم أحضر أي اجتماع ولم أقم بأية زيارة لجمهور الناخبين في حي المهاجرين حيث ورد اسمي في عداد المرشحين عنه لعضوية الاتحاد القومي • ولم أبد أي اكترات

لمجرى المعركة الانتخابية ، ولا لسير عملية الاقتراع في اليوم المحدد للانتخاب • ومع ذلك كانت تردني الى داري أخبار التلاعب الخطير والتزييف المكشوف الذي كان يجري جهارا وعلنا بشكل لم يسبق له مثيل في دنيا الانتخابات •

وكنت أتمنى من كل قلبي أن تقترن المهزلة باعلان سقوطي في الانتخاب كي أضع حدا لمهزلة اشتراكي في الحكم ، لان عدم فوزي كان سيعطيني الفرصة لاعتزال الوزارة • ولكن أعلنت النتائج بفوز الوزراء قاطبة ، من كان منهم معروفا في أوساط الحي الذي جرى ترشيحه عنه أم لم يكن • كما فاز عدد من المرشحين الذين لولا الطريقة التي اتبعت في تسيير الانتخابات وفي التحكم بنتائجها ، لما نال بعضهم عشر الاصوات التي أعلن عن فوزه بها • وبذلك لم يكن من المستغرب أن يحتل عضوية الاتحاد القومي أشخاص كانوا من صميم أجهزة المخابرات ، وبعضهم كان مشهورا بانحرافه الوطني • وفي لجنة حي المهاجرين كان الناجحون خليطا عجيبا من البشر ، فيهم السيد رئيس المجلس التنفيذي وبعض زملائه الوزراء ، وفيهم الموظفون الاكفاء ، والى جانبهم عملاء محترفون ، وكان السيد رئيس الجمهورية نفسه ، نعت بعضهم بهذه الصفة ، لدى بحثه موضوع الصحافة معي عند تشكيل الوزارة • وكنت دائما ، وبحكم طبعي ومزاجي ، آنف من مجالسة المنحرفين المشبوهين ، ولذلك رفضت حضور اجتماعات لجنة الحي للاتحاد القومي • وقد توالى على توجيه الدعوة الي لحضور جلساته عدد من أعضائه البارزين ، ومن بينهم السيد نصوح الدقاق الذي أبدى استغرابه أن أتمرد كوزير على النظام السياسي الذي كنت جزءا منه ، فطمأنته سلفا على أني لن أظل ذلك الجزء ، في وقت قريب وقريب جدا • فأتاني بعده السيد رئيس المجلس التنفيذي الى مقر الوزارة ، ملحا على ضرورة حضوري

ولو جلسة واحدة من جلسات اللجنة المحلية ، لتغطية المظاهر على الاقل ، فأجبته بأني كما لا أحب أن أضحك على نفسي ، فلن أسهم في لعبة قذرة يراد منها الضحك على الشعب وخداعه •

★ ★ ★

ثم جاءت الاحداث بعد ذلك سريعة متتابعة ، فقد وجدت من الضروري احاطة المجلس التنفيذي بحقيقة الازمة التي تمر بها قضية الصحافة عامة ، وموضوع الجرائد التي تولت الدولة اصدارها وهي « الوحدة » و « الجماهير » و « الحرية » ، بعد أن أصم المسؤولون في القاهرة آذانهم عن تلبية أي نداء أو رجاء ، لمعالجة الازمة ضمن السياسة التي رسمها السيد رئيس الجمهورية عند تشكيل الوزارة الثانية قبل أقل من عام •

وقد بعثت بصورة عن تلك المذكرة الى وزارة الدولة لشؤون الرئاسة لمجرد الاطلاع • ولكن المذكرة لما تضمنته من كشف صريح للحقائق ، أحدثت ضجة واضطرابا في اجتماع المجلس التنفيذي ، اذ اعتبرها بعض المبالغين للقصر بأنها تطاول على مقام الرئاسة •

وقد أعلنت في الاجتماع عن تصميمي على الاستقالة من الوزارة لتعذر استمراري في معالجة شؤونها عامة ، وشؤون الصحافة بخاصة، بعدما وضع في طريقي من عراقيل ذكرتها مفصلا في المذكرة • وقد أبدى السيد وزير العدل ملاحظة بأن المجلس التنفيذي ليس هو المرجع المختص لتعيين الوزراء وقبول استقالاتهم • فأجبته بأنه ما دامت القاهرة تتجاهل الازمة القائمة في دمشق ، فمن حق الانسان الحر مثلي أن يتجاهل أيضا أولئك القابعين في مراكز القوة ، والذين بات همهم اذلال الشعب ودوس كرامة أبنائه ، مؤكدا على أن كرامة الوزراء هي من كرامة المواطنين ، كما أن كرامة المواطنين تتصل بكرامة

ممثليهم في الحكم ، وان أي مساس بهذه الكرامة يشكل اعتداءا سافرا على الشعب نفسه • ولم أكد أخرج من اجتماع المجلس ، الا وكانت الصحافة اللبنانية والاذاعة الاسرائيلية قد بدأت تروج خبر الاستقالة بشكل مثير ، ولم تكد تمضي فترة وجيزة الا وصدر عن رئاسة الجمهورية قرار باعفائي من منصبي كوزير عجز عن الانسجام مع أساليب الحكم • وقد فرحت لقرار الاعفاء أكثر من فرحي يــوم أفرج عني من السجن • وصدف أن سلم والدي روحه الطاهرة ، في نفس اليوم الذي أبلغت فيه قرار الرئاسة باعفائي من منصبي • وكان والدي واقعا منذ أيام ، وبسبب تفاقم مرض تصلب الشرايين المصاب به والناتج عن الشيخوخة ، في غيبوبة لم يفق منها الا صباح يوم وفاته ، حيث وقفت أمام فراش مرضه قبل ذهابي الى الوزارة، ففتح عينيه ، ولما رآني جاثيا أمامه بخشوع ، قال لي وبعد صمت دام عدة أيام : « يا رياض ، الله يرضى عليك » • وكان من دواعي ذلك الرضى أن تلقيت في ذات اليوم قرار رئاسة الجمهورية ، وفيــه صك تحريري من القيود والاغلال التي حاولت الديكتاتورية المقنعة برداء الوحدة تكبيلي بها قرابة عام واحد ، كان من أسوأ أيام عمري••

★ ★ ★

وفي ذلك الظرف العصيب ، وفي جو الصمت الرهيب الذي كان يسود بلدنا الحبيب ، ارتفع من الشمال صوت مواطن حر أبي وشاعر فحل عربي ، له من صفاء نفسه وأصالة محتده ، ما يجعل شعره مرآة ناصعة تعكس آمال شعبنا وأماني أمتنا ، فكانت قصائده ، على الدوام، أناشيد حلوة تتردد على شفاه أبناء جيلنا ، تعكس شعاع الامــل الذي يختلج في نفوسهم وهم يتطلعون الى مستقبل مشرق مجيــد• انه واحد من شعراء الامة العربية الذين شاركوا فعلا بتحمل آلام شعبهم ، فكان من حقهم أن يحملوا آمال أمتهم عبر كفاحها الشاق

المرير ؛ انه الشاعر الوطني الغيور الاستاذ سليمان العيسى ؛ فقد بعث الي برسالة شعرية مؤلفة من سبعة أبيات ، جاءت تعبيرا عن نظرة ابن الشعب لمناضل عنيد تعودت جبهته على تلقي السهام ابان اندفاعه في الدفاع عن حرية الشعب وكرامة المواطن* . وكان في تلك القصيدة الصادقة الرد الكافي على جميع التخرصات التي راحت تروجها الصحف والاذاعات المعادية لكفاحنا الوطني ، بمناسبة اعفاء الوزير المتمرد على سياسة القمع والارهاب .

★ ★ ★

وبعد عام ونيف تلقيت من أمانة سر اللجنة التنفيذية للاتحاد القومي ، كتابا خطيا تعلن فيه قبول استقالتي من عضوية الاتحاد[1].

---

* **الملحق رقم ( ٦ )** .

(١) نص الكتاب :

الرقم ١/٨١٦ — دمشق في ١٩٦١/٣/٢٦

**سيادة الاستاذ رياض المالكي المحترم**

تحية عربية وبعد :

اشارة الى استقالتكم من اللجنة التنفيذية للاتحاد القومي في القسم الاول المسطرة بتاريخ ١٩٦٠/٩/٢٦ ، على كتاب اللجنة التنفيذية المؤرخ في ١٩٦٠/٩/٢٤ .

اتخذت اللجنة التنفيذية لمحافظة دمشق في جلستها المنعقدة بتاريخ ١٩٦١/٣/١٢ ، القرار ذا الرقم ٨/٧ بقبول استقالتكم استناداً الى الفقرة / آ / من المادة / ٦ / من نظام سير العمل في الاتحاد القومي .

وتفضلوا بقبول الاحترام .

نائب رئيس اللجنة التنفيذية
لمحافظة دمشق
**أنيس شباط**

وقد بني الكتاب في الحقيقة ، لا على استقالة خطية من جانبي ، بل على شرح الشرطي الذي أوفد لتبليغي رقعة الدعوة لحضور اجتماعات لجنة الحي الذي انتخبت عنه ، فذيلها بحاشية تفيد امتناعي عن التبليغ، اذ أني بقيت مصرا على رفض حضور اجتماعات الاتحاد القومي الذي كانت أخباره ترد من كل الجهات وعلى مختلف المستويات ، بأنها مهزلة المهازل ، وكانت أشبه ما تكون بالمسرحيات الهزلية تمثلها الفرق الكوميدية المصرية على المسارح العربية للترفيه عن جمهور المتفرجين.

وعندما أعلن عن تشكيل مجلس الامة بعد مضي أكثر من عامين على قيام الوحدة ، برز الاستخفاف بارادة الشعب والاستهتار بأحكام الدستور المؤقت ، بشكل جعل المواطنين يدركون المرامي البعيدة للسياسة المقنعة التي خدعتهم وجعلتهم بأكثريتهم الساحقة ، بقواعدهم وقياداتها ، بأحزابهم وزعاماتها ، بمجلسهم النيابي وحكومتهم ورؤسائها ووزرائها ، بقواتهم المسلحة وضباطها وجنودها ، يرتمون وبشكل أعمى في أحضان من اعتقدوا أنه سيحمل الراية باخلاص ويقود الشعب الى تحقيق انتصاراته الكبرى في شتى الجبهات ، في الداخل والخارج .

ولكن مهزلة مجلس الامة الذي جرى تشكيله بقرار من رئاسة الجمهورية ، وبشكل مخالف تماما لاحكام المادة الخامسة من الدستور المؤقت ، لم تكن بأرقى من مهزلة الاتحاد القومي . وباء بهزء الشعب من وقع عليهم الاختيار ليكونوا ممثلين غير شرعيين عن الشعب في المجلس التشريعي ؛ لان المجلس نفسه لم يكن الا مجلسا صوريا ، كانت التشريعات الهامة التي تصدر في غيابه أوفر وأخطر من تلك التي كان يلتهي أعضاؤه المعينون بدراستها واصدارها .

ومرة أخرى تكشفت للشعب الحقيقة المرة وهي وقوعه من

جديد في حبائل الخداع ، واغلال الديكتاتورية ، وسلاسل العبودية •

★ ★ ★

أخذت الامور بعد ذلك تتفاقم يوما بعد يوم ، وبدأت النقمة تزداد حدة في أوساط الشعب ولم يجد أي نفع ، ايفاد السيد نائب رئيس الجمهورية القائد العام للجيش والقوات المسلحة المشير عبد الحكيم عامر ليتولى الاشراف بنفسه على سير الامور في الاقليم السوري ، في محاولة لرأب الصدع •

وزاد الأزمة تعقيدا قدوم السيد رئيس الجمهورية بحرا الى الشاطىء الشرقي للبحر الابيض المتوسط وتصديه ، فور أن وطئت قدماه اليابسة في مرفأ اللاذقية ، لتهديد معارضي حكمه بدوسهم « بالجزم » • وكل حاكم يفكر بدوس الشعب ، لابد وأن يتحمل نتائج هذا التفكير الخاطيء ، وردة الفعل الشعبية القاسية •

وكانت ردة الفعل قوية عارمة ، وبدأت الاضطرابات تعم صفوف الشعب ، فمن اضرابات عمالية ، الى مظاهرات طلابية ، الى تمرد في صفوف أجهزة الامن والمباحث نفسها ، الى غليان في صفوف العسكريين •

وفجأة وجد الحكم نفسه في واد ، والشعب كله بجماهيره الواسعة في واد آخر •

والقوة هي دائما سلاح الحكم الضعيف ، فما كان من نائب رئيس الجمهورية الا أن لجأ الى استخدام القوة حيث تحركت قطعات الجيش ، وأغلقت بأمره مكاتب الاتحاد القومي وأوكار المباحث نفسها ؛ ثم ما لبثت الآية أن انعكست ، فانقلبت القوة كسابق

عهدها على أصحابها ، وقامت حركة الانقلاب في الثامن والعشرين من أيلول ( سبتمبر ) ١٩٦١ ؛ فكان الانفصال المشؤوم •

★ ★ ★

لقد سبقت حركة الانقلاب حادثة ذات أهمية خاصة يجدر الاتيان على ذكرها ، لانها تساعد على القاء الضوء على حقيقة موقف القادة المصريين من حركة الانفصال ودورهم فيها • فقد أعدّ نائب رئيس الجمهورية والقائد الاعلى للجيش والقوات المسلحة المشير عبد الحكيم عامر بالاتفاق مع السيد ميشيل عفلق في بحر عام ١٩٥٩، خطة تستهدف القيام بحركة عصيان في الاقليم السوري بزعم الضغط على السيد رئيس الجمهورية لتنفيذ اصلاحات سياسية ودستورية • وكان صلة الوصل بين القائد العسكري والرجل السياسي ، ضابط مصري اسمه السيد داود عويس • ولكن نائب رئيس الجمهورية السيد أكرم الحوراني حذر زميله السيد ميشيل عفلق من مغبة الاسترسال في متابعة الخطة ، لسببين ، الاول وهو الخشية من أن تكون الخطة المعدة مقلبا من مقالب المخابرات العامة ، والثاني الحرص على كيان الجمهورية العربية المتحدة ووحدة اقليميها • واثر ذلك ، قابل السيد الحوراني السيد رئيس الجمهورية ، وانتقد الاسلوب الذي يتبعه أعوانه ، وربما بتوجيه منه ، للايقاع بقائد سياسي وحزب منحل ، عن طريق تلفيق مؤامرة سيكون ضحيتها الشعب نفسه ووحدة جمهوريته •

ولكن السيد رئيس الجمهورية فوجيء بالخبر ، وأبدى ان المفاجأة جاءت قاسية على نفسه لجهله حقيقة الموضوع الذي فاتحه فيه نائبه •

وقد اضطر السيد عفلق لمغادرة أراضي الجمهورية العربية

المتحدة ، قاصدا البرازيل ، حيث ظل بعيدا عن موطنه وأهله لحين وقوع الانفصال ، في حين أوفد المشير عبد الحكيم عامر بعد ذلك ، معتمدا من قبل السيد رئيس الجمهورية لادارة شـؤون الاقليـم الشمالي .

★ ★ ★

ولذلك عندما قامت حركة الثامن والعشرين من أيلول (سبتمبر) ١٩٦١ بقيادة المقدم عبد الكريم النحلاوي ، كاتم أسرار القائد العام للقوات المسلحة ، لم يخف عن أعين المبصرين الدور الذي لعبه القادة المصريون في التمهيد لقيام حركة الانقلاب ، وما أعقبها من انفصال الاقليمين السوري والمصري .

كانت القيادة الكاملة في يد الضباط المصريين ، وكانت لهـم السيطرة التامة على معظم القطعات الضاربة في الجيش الاول ؛ ومع ذلك لم يحرك أي منهم ساكنا ، ولم تتحرك أية قطعة من القطعـات العديدة الخاضعة لامرتهم ، لدك القوات الانفصالية والقضاء عـلى حركة الانقلاب في مهدها ، ولم تطلق رصاصة واحدة في سبيل الدفاع عن الوحدة الغالية .

لقد وقعت حركة الانفصال في الحقيقة ، ضمن مخطط استعماري صهيوني قديم يستهدف تمزيق وحـدة العرب ، يؤكـد ذلك أن أخبار تلك الحركة المشبوهة كانت تملأ الآفاق الشعبية وتبلغ مسامع الدوائر الرسمية ، التي هيأت الجو لقيامها ، وأعطت الفرصة لحدوثها على يد ضباط أغرار لم يكونوا ليدركوا خطورة الفخ المنصوب لهم ولبلدهم .

كان المقصود زج الشعب العربي السوري كله ، بعد دمغـه طبعا ، هو وجيشه ، بعار الانفصال ، في أتون من الخلافات المصطنعة

والمعارك الجانبية ، لالهائه مرة جديدة عن الخطر المحدق به وبالامة العربية كلها ، تمهيدا لالحاق هزيمة جديدة به واحتلال بغيض سيتناول هذه المرة بقعة من أعز وأخصب أراضي القطر العربي السوري •

ان الذين أقاموا الوحدة على عجل وبدون ايمان هم الذين حطموها ، وجروا ، بمكر بارع ، وتصميم وامعان ، بعض فصائل الجيش السوري لتقارف جريمة الانفصال •

★ ★ ★

وكان مخططا سلفا لعهد الانفصال أن يكون عهد فوضى وتمزق، وقد ارتكب فيه قادته من الاخطاء والحماقات مالا يحصى • وكان أول تلك الاخطاء تسليم زمام الحكم في فترة الانتقال ، لواحد من أيتام ديكتاتورية الشيشكلي البائدة ، وربيب لطبقة أثرياء الحرب ، وخادم لمصالح الرأسمالية البغيضة ، ولذلك لم يتجل الحرص ، منذ البداية، على اقامة نظام دستوري سليم ، يعتمد على توطيد سيادة الشعب وتدعيم كلمة القانون •

وفي ظل غياب الشعب ، الواجب تعبئته ضمن منظمات شعبية وأحزاب سياسية مرخصة ، جرت الانتخابات النيابية العامة ، فكانت فرصة لاقطاب السياسة وفلول الاحزاب السابقة لاقتسام الغنائم والمناصب •• وجيء الى رئاسة الجمهورية برجل كان يفترض فيه ، نظرا لعلمه وثقافته وماضيه السياسي ، أن يكون حارسا أمينا للدستور وحاميا مخلصا للنظام الديمقراطي • ولكن في ظل المزايدات السياسية والوحدوية الطائشة ، وفي زحمة تناحر العسكريين على السلطة ، انهار النظام البرلماني الهزيل • ولم يقف الرئيس المنتخب من قبل مجلس النواب والذي أقسم في الامس القريب « بالله العلي العظيم ، أن يحترم دستور البلاد وقوانينها ، وأن يكون أمينا على حريات

الشعب ومصالحه وأمواله » ، لم يقف وقفة قائد أمين لشعبه وحريص على تنفيذ عهده وعلى احترام قسمه بحماية الدستور الذي انتخبه النواب ليكون رمزا له • ولم يكن معظم أولئك النواب أكثر جرأة منه وأشد تمسكا بالنظام الدستوري ؛ وقد أسهموا بمناوراتهم ومزايداتهم ، في التعجيل بانهيار دولتهم وبافلات الزمام من يدهم ، ليبدأ في البلاد عهد جديد ، عهد الثامن من آذار ( مارس ) ١٩٦٣• ولم يخل هذا العهد من الصراع العنيف على السلطة ، كما سيأتي تفصيله لدى التحدث عن حزب البعث العربي الاشتراكي في كتاب مقبل •

★ ★ ★

لقد اكتوى أبناء الشعب في القطر العربي السوري ، بنار الانقلابات العسكرية المتعددة • وقد انقلب الصراع بين العسكريين على السلطة ، خلال اثنين وعشرين عاما ، الى صراع دموي وحشي راح ضحيته الكثيرون من ضباط الجيش وأفراده ، ومن أبناء الشعب، في الشوارع والساحات العامة ، وفي المواقع العسكرية والثكنات الحربية ، بعيدا عن خطوط النار •

وفي الوقت الذي كان فيه الشعب يقدم الغالي والنفيس في سبيل تقوية الجيش وتسليحه ، كانت الاسلحة المشتراة بمال الشعب على حساب غذاء أبنائه ، ومع مرارة الحرمان الذي عاشوا فيه طيلة هذا الزمن الطويل ، كانت تلك الاسلحة غالبا ما توجه الى صدور الابناء من دون الاعداء •

لقد أنفق الشعب على تسليح جيشه ألوف الملايين من الليرات ، لتحصين حدوده ، وتزويد جنوده بالعتاد والسلاح ؛ ولكن بفعل الانقلابات العسكرية ذهبت كل تلك النفقات هباء منثورا ، ولم يجن

الشعب الا عبث قادة الجند ، وتكرار الانقلابات ، ونشوء الديكتاتوريات ، وانقلاب القوة المسلحة في أغلب الاحيان الى وسيلة قمع وأداة ارهاب •

وعندما داهم الخطر حدود هذا القطر العربي المجاهد ، وأراضيه الغالية المقدسة ، لم يجد العدو أمامه جيشا مستعدا للقتال ، وشعبا مهيئا للصمود ؛ لان الجيش قد ألهته الانقلابات عن واجباته الاساسية، ولان الشعب قد أنهكته الديكتاتوريات المنحرفة والمقنعة ، تارة تحت شعارات التحرير ، وطورا تحت شعار الوحدة المباركة ، وتارة أخرى تحت شعار الاشتراكية •

لقد كانت العهود تقطع ، والمواثيق تعقد ، والأيمان تقسم على تحرير الجزء المغتصب من فلسطين خلال حرب ١٩٤٨ ؛ ولكن النتيجة كانت أن اغتصبت فلسطين بكاملها ، وان شمل الاغتصاب جزءا كبيرا من الاراضي السورية ، كما حل بأجزاء أخرى من الاراضي العربية•• جرى ذلك بعد عقدين من الزمن ، أضحى للدول العربية خلالهما جيوش ضخمة جرارة ، وبعد أن بلغ التبجح لدى بعض تلك الدول ، أن كانت زعامتها تدعي أنها كانت تملك لوحدها أقوى قوة ضاربة في الشرق الاوسط ••

# ١٥

## نهـاية المطـاف

**« ما الهزيمة ؟**
**انها درس هام لا ضرر منه لكل طموح مجتهد ، فهي الخطوة الاولى في طريق التحسن ونحو طـريق الكمال » .**

« وندل فلبس »

وهكذا تكشف الفصول السابقة ، بصراحة ودون مواربة ، عن حقيقة دامغة وهي أن شعبا يدأب حكامه على سحق كرامته «بالجزم» وعلى دوس مصالحه بالنعال ، وتمعن قياداته المنحرفة أو الزائفة في ارهاقه واذلاله ، وفي خداعه وتضليله ، وفي دفع أبنائه وجنوده في الطرق الموحلة والشعاب الملتوية والمسالك المعكوسة ، لا يمكن أن يتحقق له النصر ، وهو وان ظل ، في مثل هذه الاحوال ، بريئـا من مسؤولية الهزيمة ، عند وقوعها ، الا أنه هو وحده الذي يدفع ثمنها الباهظ ، ويتحمل نتائجها المخزية المذلة ..

لقد استمررنا طيلة عشرين عاما نلقي مسؤولية هزيمة عـام

١٩٤٨ على عاتق حكومات عربية سبع ، كان معظم حكامها لا يملكون من زمام حكم بلادهم شيئا لانها كانت مكبلة بقيود الاحتلال ، ولم يكن هؤلاء الا أدوات ، طيعة أو مكرهة ، أسهمت بغباء في تنفيذ مخططات الصهيونية والالاعيب الاستعمارية •

أما هزيمة عام ١٩٦٧ التي حلت بعد استقلال الاقطار العربية جميعها ، فان مسؤوليتها الكاملة تقع على كاهل من تصدوا بعد الاستقلال لحمل أعباء الزعامة والريادة ، وممارسة التوجيه والقيادة، في أوساط الشعب أو في صفوف القوات المسلحة •

انهم بسطحيتهم وانتهازيتهم قد مهدوا السبيل للعدو ، كي يمعن في عدوانه ، وبتخاذلهم وجبنهم ، قد مكنوه من الحاق الهزيمة بجيوشهم وشعبهم •

★ ★ ★

في الخامس من حزيران ( يونيو ) ١٩٦٧ ، لم يهزمنا العدو في ساحات الوغى وميادين القتال ، والواقع يؤكد أنه لم يخض مع جيوشنا العربية الجرارة ، ومع جنودنا الاشداء الذين خذلتهم قياداتهم، معارك حربية حاسمة ، ليتقرر في نهايتها من هو المنتصر ومن هو المنكسر •

لقد اقتحم العدو حدودنا ودخل أراضينا ، بعد أن وجد الحصون أمامه خالية ، والقلاع خاوية ، والاجسام متداعية ، والنفوس متهاوية، فتسلل الى عقر دارنا ، كما يتسلل الجرثوم الخبيث الى الجسم الهزيل يفتك فيه ، دون أن يلقى منه مقاومة تحبط مسعاه الهدام وتصد اعتداءه الظالم على الحياة والوجود •

لقد تسرب الوباء الصهيوني الى كيان وطننا لانه وجد فيه

جسما ضعيفا ، أنهكته الخلافات الداخلية وأرهقتـه الانقلابـات العسكرية وشوهته الديكتاتوريات المنحرفة ، وكان من شأن سياسة الظلم وأساليب القمع والارهاب والتنكيل التي سارت عليها ، أن جعلت المواطن يعيش في دوامة من الخوف والفزع ، ومزقت الوحدة الوطنية ، وقضت على روح الخلق والابداع لدى الانسان ، وأكرهت الكثيرين من أصحاب الفعاليات والكفاءات على هجر الوطن والاغتراب عن الديار ، ضمن سياسة مرسومة ومخطط لها من قبـل الـدول الامبريالية وزعماء الصهيونية العالمية ، ترمي للسيطرة على أرجاء الوطن العربي الكبير •

★ ★ ★

وماذا صنعنا نحن مقابل هذا المخطط الرهيب ؟

الواقع يؤكد أننا صنعنا الهزيمة بأنفسنا •• هزمنا من خـلال الزعامات الهشة والقيادات المتخاذلة التي لا تصمد أمام الاعاصير ، وتتنحى بسرعة وسهولة عن مسؤولياتها ومبادئها وأهدافها ، أمـام أبسط الاخطار ، ولا هم لها عندئذ الا النجاة بالنفس •

هزمنا من خلال جيل كامل من أشباه الرجال ربته تلك القيادات على العنتريات والبهلوانيات والسفسطات الكلامية في حالة السلم ، حتى اذا ما داهمه الخطر ، ولى الادبار واختفى بخسة ونذالة من خطوط النار •

هزمنا من خلال عدم قدرتنا على بناء حياتنا السياسية ومؤسساتنا الدستورية ، وعدم حرصنا على حماية ما نبنيه منها ، وعدم احترامنا لمواثيقنا وعهودنا ، نقطعها لشعبنا وسرعان ما نحنث بها •

هزمنا من خلال عدم تفريقنا بين السلطات التنفيذية والتشريعية

والقضائية ، ومن خلال تكرار تسلط السلطة التنفيذية على سائر السلطات .

هزمنا من خلال طغيان الفرد على الجماعة ، والاعتداء السافر والمتكرر على سائر الحريات العامة والخاصة وكرامة الانسان .

هزمنا من خلال أجهزة الامن الدائبة على ملاحقة المواطنين وتتبع نشاطاتهم وتسقط أخبارهم والتسلي بأسرارهم ، دون توجيه كبير اهتمام الى أعداء الوطن يتسربون الى أعلى القيادات وأخطر المراكز ليمارسوا عن طريقها دورهم التخريبي كجواسيس أو أعضاء في الطابور الخامس .

هزمنا من خلال شريعة الغاب تسود مجتمعنا ، ينهال في ظلها الجلادون بسياطهم على أجساد الاحرار من بني قومهم ، ويسرح في ربوعه الاشرار والفجار واللصوص دون رادع أو وازع ، في حين يحتل العدو الدخيل جزءا هاما من أرض الوطن .

هزمنا من خلال أجهزة الاعلام يسخرها الحكام للدعاية الرخيصة لاشخاصهم ، دون الالتفات لتعبئة الشعب تعبئة قومية وسياسية وعسكرية ونفسية صحيحة ، ودون التورع عن تسخيرها لنشر السموم والاضاليل وخداع الرأي العام .

هزمنا من خلال أرتال من المثقفين ، لا يرون كبير حرج في السير في ركاب الطغاة وخدمة أغراضهم ، بتسخير الثقافة والعلم والادب والفن ، يزينون بها الانحراف ، ويبررون الجرائم ، ويفلسفون المظالم، ويحيطون الديكتاتوريات بمراسم التعظيم والتبجيل ، استمطارا للمنافع والعطاءات يسترقونها من أموال الشعب وخزينة الدولة .

هزمنا من خلال أصحاب الرؤوس الرخوة ، والضمائر الرخيصة،

والنفوس الجشعة ، والايادي المبسوطة لقبض المال الحرام والارتشاء على حساب الوظيفة والواجب والوطن ، لافرق بين أن يأتي هذا المال من أيادي الاعداء أو ينتزع من جيوب المواطنين أو يقتطع من أفواه الاطفال الجياع والاناس المحرومين •

هزمنا من خلال القادة المنحرفين الذين لم يحجم بعضهم عن عقد الصفقات المشبوهة في الظلام لاختلاس أموال الشعب والارتشاء على حساب صفقات الاسلحة ، والذين بلغوا في مروقهم حد التآمر على الاحرار من بني وطنهم وبيع رقاب الوطنيين منهم واباحة دمائهم•

هزمنا من خلال الديكتاتوريين العسكريين وصنائعهم الذين يتبجحون بدوس القوانين والدستور الذي يقرون بسخرية بأنه أب القوانين ، ولا يتورعون عن تهديد أبناء شعبهم بسحقهم « بالجزم » ولا بأس عندهم بعدئذ ان تخلى يوم المعركة قادة وجنود « زحفهم المقدس » للعدو لا عن المواقع والسلاح فقط بل وحتى عن «الجزم»•

هزمنا من خلال قادة الجند يديرون ظهرهم للعدو ويزحفون بدباباتهم وآلياتهم المدرعة والمجنزرة ليسيطروا على دار الاذاعة ، ويذيعوا عبر الاثير بلاغاتهم الثورية المنمقة والمرقمة ، ويحتلوا سراي الحكومة ومراكز السلطة ويحكموا شعبهم بالحديد والنار ، ويقهروا الانسان ، ويذلوا المواطن ، ويفقدوا شعبهم وجيشهم أية قدرة على خوض المعارك الحاسمة ، وأي استعداد للقتال والذود عن الحمى والدفاع عن أرض الوطن •

هزمنا من خلال سكوتنا عن الحق ، وتخاذلنا أمام الجبابرة ، وخضوعنا للطغاة المستبدين ؛ وقد بتنا مهددين بالتخاذل أمام الاعداء وبالخضوع لعدوانهم الشرس وطغيانهم الذميم •



هذه كلها بعض من أسباب الهزيمة ، وهي أسباب كانت ومـا زالت تنخر في جسمنا كالسوس ، حتى جعلت من المواطنين ، الحكام منهم قبل المحكومين ، هياكل بشرية تسري في عروقها الدماء ، وفي خلاياها الحياة ، ولكنها أضحت في واقع الامر ، كأنها الدمى تحركها الايادي الخفية التي تجيد ممارسة « لعبة الامم » والعبث بمقدرات الشعوب .

انها أسباب خطيرة ، ولكن ليس من العسير علينا التخلص منها والقضاء عليها ، فيما لو توفرت لدينا الارادة القويـة واستطعنا ، بحزمنا وعزمنا ، مجابهـة أخطائنا ، وتقويم الاعوجاج في نفوسنا وسد الثغرات في صفوفنا .

★ ★ ★

اننا بحاجة لثورة تقوم على مجاهدة النفس ومجابهة الاخطاء، ومراجعة الحساب ، وتهدف لبناء مجتمع حر كريم ، تكون الكلمة فيه للشعب ، مصدر جميع السلطات ، مجتمـع تسـوده الحريـة والديمقراطية بالفعل ، لا بالكلام والشعارات ، ولا يكون فيه أثـر لطغيان مواطن على مواطن ، أو فئة على أخرى ، أو طائفة على غيرها، ولا وجود فيه للاستغلال من أي نوع كان .

علينا مراجعة جميع أخطائنا بشجاعة ، وتشخيص عللنا وعيوبنا بحزم ، والانصراف لمعالجتها بدون تلكؤ أو كلل وبشعور كامل من المسؤولية .

علينا اليوم قبل غد ، أن نعطي كل مواطن حقه ، ودوره في بناء المجتمع ، وخوض معاركه القومية والسياسية والعسكرية ، وعلى المواطنين جميعا وبدون استثناء الاسهام في اشادة هذا البناء والبذل في ميدان التضحية والشرف بكل سخاء .

لا تمييز بين أبناء الشعب الواحد ، ولا تفريق بين الطوائف والفئات ؛ فلكل مواطن حقوقه في هذا الوطن ، وعليه بالمقابل واجباته التي لا مناص له من الالتزام بها وأدائها .

ان أسباب القوة وعوامل المنعة متوفرة في بلادنا بكثرة ، ولكن علينا أن نحسن استخدامها . فالقوة هي في وحدة الصف ، واتحاد الكلمة ، وتعبئة جميع القدرات والطاقات والامكانات .

نحن أقوى من أعدائنا ان استطعنا أن نعد لهم العـدة ، وان صممنا على دحرهم من بلادنا وطردهم من ديارنا .

ان ذلك يمكن أن يكون بضمان الحرية للمواطن ، وبحمايـة كرامته ، وتوفير جميع الضمانات الاجتماعية له ولاسرته ، في العمل والصحة والشيخوخة ، ليحيا حياة حرة كريمة تجعله يشعر بأهمية دوره في المجتمع ، وبقدرته على القتال لحماية الوطن والذود عـن الحياض .

ان الامبريالية الامريكية ليست قدر العالم ، وان اسرائيل ليست بالقلعة المنيعة التي لا تقهر ؛ وهما لم تتوصلا الى الحاق الهزيمة بنا في بلادنا ، والى اذلالنا في ديارنا الا في ظل الخلافات التي نصطنعها فيما بيننا ، وتغذيها مخابراتهما الذكية ، وأموالهما السخية التـي غالبا ما ينهبونها من خيرات أرضنا وثروات بترولنا .

انه من الخطأ الكبير أن نعتبر المعركة الراهنة معركة الفلسطينيين وحدهم ، كما تحاول أجهزة الاعلام العربية ايهام العرب بذلك ، بل انها معركة العرب جميعهم . وقد أضحى من العار أن يبقى العرب ممزقين الى دويلات ، ومنقسمين على أنفسهم ومتناحرين فيما بينهم، بينما تتوافد شراذم اليهود من أنحاء العالم لتبني ، على أعز بقعـة

من وطننا ، دولة عصرية يتسلح رعاياها على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم الفكرية والسياسية والاجتماعية ، بالعلم والمعرفة قبل المال والسلاح ، ويجعلون منها قلعة خطيرة تواصل الاعتداءات المتكررة على الدول العربية ، ويشردون الالوف المؤلفة من أبنائها الاصلاء ، ليحل محلهم فيها خليط من أقوام هجناء ، وأشخاص دخلاء يأتون كمعتدين غاصبين •

ان دول أوربا الغربية تمضي بسرعة وتصميم في بناء وحدتها السياسية والاقتصادية الكاملة بالرغم مما نشب فيما بينها ، في الماضي القريب ، من حروب ذهب ضحيتها عشرات الملايين من الضحايا ، بينما تتفنن الدول العربية وحكوماتها في التناحر والتهرب من السير في طريق الوحدة الذي هو الطريق الاوحد والاقصر لقهر الاعداء ودحرهم وطردهم من بلادنا •

ان الوحوش المفترسة ذاتها ، عندما تقع في خطر مداهم ، تنسى خصوماتها التقليدية ، وغرائزها الوحشية ، وتسعى للوقوف في وجه الخطر وقفة واحدة •

فما بال العرب يسدرون في غيهم ، تتنازعهم الاهواء ، وتتقاذفهم التيارات الدخيلة على حياتهم وتقاليدهم ، وتجعلهم يتخاصمون بغباء ، ويتناحرون بحقد أعمى ، ويمزقون صفوفهم بأيديهم ، ويزهقون أرواح بعضهم بعضا ، في معارك جانبية لا تخدم الوطن وليست في مصلحة القضية العربية اطلاقا ؟•

ان العدو هو الذي يستغل التناقضات ، ويزرع الاحقاد ويغذي الخصومات ، ويجني ثمرة المعارك التي يخوضها العرب ضد بعضهم البعض •

فعلينا أن ندرك هذه الحقيقة ، وأن نسعى لتدارك الاخطاء

ومجابهة الاخطار بمنطق الوحدة الوطنية في داخل أقطارنا وبمنطق الوحدة القومية في وطننا العربي ، لان المعركة هي معركة تحرر وطني، يجب أن يخوضها جميع أبناء الشعب ضد العدو الخارجي والمغتصب الدخيل .

ليس المطلوب طبعا أن يتخلى أصحاب المبادىء عن مبادئهم ، وأن يتنازل ذوو العقائد عن عقائدهم ، ولكن ما ليس لجميع هؤلاء وأولئك أي حق فيه ، هو تمزيق صفوف الشعب بحجة الصراع الطبقي أو الخلاف الفكري .

ان العدو هو الذي يبذر بذور التفرقة في صفوفنا ، فعلينا أن نحبط خططه ونقضي على شروره وآثامه ، باتحادنا وتضامننا كشعب واحد يريد الحياة والبقاء .

انه من الحمق والغباء أن نسترسل فيما نحن عليه من تراخ وتهاون ، نكتفي بخدر الدعاية البلهاء ، يسري في أوصالنا ، بفعل ما تردده أجهزة اعلامنا ، وتوهمنا به أننا نبني المجتمع الثوري التقدمي ، أو مجتمع العدالة والكفاية .

ان الثورة الحقيقية هي ثورة الفلسطيني الشجاع الذي هب بعد عشرين سنة من الخداع والضياع ، ليحمل السلاح ويندفع للموت على ثرى فلسطين ، كي يكتب لامته الحياة .

ان الفدائي الشجاع الذي يقاتل على ربى فلسطين وفي ميادين الكفاح والتضحية هو البطل القومي والثائر الحقيقي ، والطالب الذي ترك دراسته وضحى بمستقبله وخاض المعركة بثبات ، ليتلقى بصدره رصاص العدو المغتصب الدخيل ، يجب أن يكون هو القدوة والمثال .

والعامل الذي تخلى عن عمله وأسرته وأطفاله ليلتحق بكتائب الفداء ويسكب دمه في الاغوار ، في غزة والخليل ، في حيفا والجليل، هو شهيد الامة العربية جمعاء ، لانه بتصميمه على الكفاح والتضحية، لا يقابل عدوا لشعب فلسطين وحده ، بل أعداء يكيدون للوطن العربي كله ويهددون العرب جميعهم بالذل والعبودية ، لا بل بالابادة والفناء .

ولن يغير من اشراقة حركة المقاومة الفلسطينية بعض الاخطاء والانحرافات الطفيفة ولا موقف جميع الحكومات العربية المخادع في بعض الاحيان ، والمعادي في أحيان أخرى ، والباهت في معظم الاحيان ، حتى باتت المقاومة محاصرة ومطوقة من العرب أنفسهم تعاني من مناوراتهم وخذلانهم أكثر مما تخشى من كيد الاعداء وغدرهم ورصاصهم .



والحقيقة التي يجب أن يجاهر بها في هذا الظرف العصيب ، ويؤكد عليها مرارا وتكرارا ، هي أن المعركة أضحت معركة العرب كل العرب ، فعليهم يقع العبء الكامل في تعبئة الصفوف وحشد الحشود والانقضاض ، دون هوادة أو تأخير على قواعد الاعداء وتجمعاتهم البشرية وحشودهم العسكرية وتدميرها وتشتيتها .

فالارض التي احتلها الصهاينة بطريق الخداع وشراء الضمائر، وبدعم من الدول الكبرى ، وفي غفلة من الجماهير العربية ، المكبلة والمغلوبة على أمرها ، ليست أرضا اسرائيلية ، ولن تكون ملكا خالصا للاسرائيليين المعتدين ، ولا بد من مواصلة القتال معهم ، كل وقت وفي كل حين ، مهما بلغت التضحيات البشرية والخسائر المادية.

يجب الاحداق باسرائيل من كل جانب ، وتوجيه الضربات المتتالية اليها من الداخل والخارج ، في الليل والنهار ، حتى يشعر الغاصبون الدخلاء أن لا قرار لهم في أرض ليست أرضهم ، ولا استقرار لدولة مصطنعة حاكت وجودها أيدي التآمر ونسجت بقاءها أصابع الخيانة ، فأصبحت كيانا قذرا لحمته الظلم وسداه العدوان •

يجب تمزيق اسرائيل بقتال متواصل ومعارك مستمرة ، وجعل أرض فلسطين مقبرة للغزاة ؛ فما من شعب في العالم يقبل باحتلال أراضيه ويسكت عن تشريد أبنائه بحجة الحرص المخادع والرغبة الكاذبة في احلال السلام •

وان دعوة السلام التي تدعو اليها الدول الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة الامريكية زعيمة الامبريالية العالمية في العصر الراهن، ومن يدور في فلكها من دول أخرى ، ومن يتواطأ معها على اقتسام مناطق النفوذ في العالم ، هي دعوة مريبة ومرفوضة ولا يمكن أن يقبل بها العقل السليم أو يسلم بها العدل الصحيح • وكل سلم لا يبنى على الحق المطلق والعدل التام ، هو سلم زائف وزائل •

فعلى العرب أن يدركوا هذه الحقيقة قبل فوات الاوان ؛ فهم ليسوا جبناء ولا ضعافا ، انما أقعدتهم عن مجابهة أعدائهم أنظمة القمع التي تسود معظم أقطارهم وأنهكتهم الخلافات المصطنعة تهدر طاقاتهم وتبدد امكاناتهم •

ان الاخطار الشديدة تحيط بالعرب من كل جانب ، وهي تهدد وطنهم ووجودهم • فعلى أحرار العرب في كل مكان ، في المشرق والمغرب ، في آسيا وافريقيا ، في مصر وسورية ، في السودان والعراق، في ليبيا والسعودية ، في تونس والاردن ، في المغرب ولبنان ، في

الجزائر واليمن ، في موريتانيا والجنوب العربي ، أن يشكلوا جبهة تحرير عربية واحدة يحتشد فيها الملايين من المقاتلين الشجعان ، ينتظمون في كتائب فداء تخوض المعركة تحت لواء قيادة موحدة الى جانب المقاتلين الفلسطينيين الابطال ، لتحقيق هدف واحد ، هو تحرير الارض العربية كلها من براثن الاعداء وقواعد الاحتلال وأدران النفوذ الاجنبي •

ان اختلاط الدم العربي في أرض المعركة خلال مقارعة الاعداء هو السبيل لتحقيق آمال الامة وأهدافها ، وما يطمح اليه كل عربي حر شريف في بناء وطن عربي واحد تسوده الحرية والديمقراطية والعدالة • واذا ما سارع العرب للسير في هذا الطريق ، فلن يبقوا فيه لوحدهم ، لان أحرار العالم جميعهم شعوبا وحكومات سيقفون وبكل تأكيد الى جانب الحق العربي •

ان هذا العصر ليس عصر الجيوش الاستعمارية والغزو المسلح، والاحتلال الاجنبي ، بل هو عصر الشعوب المستقلة والتضامن في سبيل انتصار الحرية وارادة الشعوب •

وما على العرب الا أن ينسجموا مع روح العصر ، ومنطق التاريخ ، ومبادىء الوجود والبقاء ، ليظفروا بحياة حرة كريمة ويتعايشوا مع شعوب العالم التي لا تحترم الا الشعب الشجاع المكافح في سبيل وجوده وكرامته • ولن يتحقق للعرب ما يصبون اليه من آمال وطنية وأهداف قومية الا بنفض غبار التراخي والتكاسل والنهوض سريعا للذود عن الحياض وطرد كل غاصب دخيل •

أفيقــوا يا عرب ،

هبوا من رقادكــم ،

لقد حان الوقت ، فحي على الجهــاد ...

انه نداء الآباء والامهات ، ودرس الاجداد ، وأمل الاحفاد ، وعليه يتوقف مستقبل هذه الامة ومصيرها وبقاؤها .

★ ★ ★

## الملحق رقم ( ١ )

## شهادة بحـق الجـــلاد

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

## الملحق رقم ( ٢ )
## شهادة بحق المجلـود

NOM DE L'ÉTABLISSEMENT

Mission Laïque Française
Lycée Franco - Arabe
Damas

CLASSE DE PREMIÈRE B.

**APPRÉCIATIONS GÉNÉRALES ET OBSERVATIONS** *(Facultatives)*.

| PROFESSEURS DE : | | Signatures des Professeurs : |
|---|---|---|
| Français .. (M. ........) | Capable. Doit réussir | [illegible] |
| Histoire (M. Bey Say ) | Bon élève ; sérieux et travailleur | [illegible] |
| Langues vivantes — Anglais (M. Sorgues) | Très bon élève | A. Sorgues |
| Langues vivantes — Arabe (M. Keilani) | تلميذ نشيط ذو مواهب وتعاوده مستوى إنتاج | [illegible] |
| Mathématiques ...... (M. ........) | Très bon élève | [illegible] |
| Sciences physiques (M. ........) | Résultats très satisfaisants. Peut réussir | [illegible] |
| LE CHEF DE L'ÉTABLISSEMENT | Élève en très bonne voie. | |

Vu :
Le Président du Jury

le 10 mai 1940.

[illegible signature]

## الملحق رقم ( ٣ ) محضر استجواب أولي

[illegible]

[illegible]

س : [illegible] ؟

ج : [illegible]

س ١٣ : [illegible] ؟

ج : [illegible]

س : [illegible] ؟

ج : [illegible]

س : [illegible] ؟

ج : [illegible]

[illegible]

س : [illegible] ؟

ج : لا أتذكر شيئاً

س : [illegible] ؟

ج : لا أجيب .

١٦

- ٦ -

اما اذا كانت الحجة في أن الجيش السوري النقي الذي ترعرع في ظل المجالس النيابية لرغبات شخصية مغرضة وغيرها، فهي حجة واهية للتمويه وانتدب للذود عن صيانة الوطن وصد كيد اعدائه، فان هذه الحجة ينا قضها الوضع الحالي في الجيش الذي اصبح جزءاً أساسياً وادارياً أكثر مما يكون جهازاً حربياً، خرج في أرجائه عن حدود وظائفه الرئيسية فوقع وأوقع البلاد معه في كارثته الحالية التي إن دلت على شيء فانما تدل صراحة على أن الجيش بمعظم أفراده غير راض عن استمرار الوضع الحالي . وكذلك الشعب فانه غير راض ولن يرضى عن ذلك الوضع لما فيه من هدر لكرامة الأمة وتهديد لمصالح الوطن وانى مورد فيما يلي بعضاً مما أخذه الشعب على هذا الوضع الشاذ ومساوئه :

١ - خرق دستور البلاد وتحدي ارادة الأمة بتعطيله
٢ - اكراه رئيس الجمهورية على الاستقالة وتعطيل الحياة النيابية الحرة .
٣ - اقامة نظام حكم استبدادي لم تعرفه البلاد ولا الجيش نفسه ولا يجيز أن يكون مصدر السلطة
٤ . نصب رئيس للدولة بأمر عسكري صادر عن رجل عسكري لا يملكه ولا يجيزه
٥ - قمع الحريات العامة قمعاً لم تعهده البلاد حتى في عهد الاستعمار
٦ - تعطيل الصحف الحرة تعطيلاً تعسفياً كيفياً وشراء الصحف الصفراء لتكون اداة تطبيل وتزمير
٧ - حمل الموظفين على اقرار يمين بعدم الانتساب الى اي حزب أو مؤسسة سياسية وبعدم ابداء أي نشاط سياسي
٨ - حل الاحزاب جميعها بما فيها الاحزاب التقدمية التي تمثل عقائد جديدة ومبادئ تقدمية
٩ - تأسيس حزب جديد فاشي الوجهة يدعم نظام الحكم الحالي يغطيه صبغة الحزبية باسم مصطنع ([illegible])
١٠ - دعوة الموظفين في الدرجة الأولى للانتساب الى هذا الحزب واكراههم على الحنث بيمين طلبوها منهم
١١ - ترغيب المواطنين للانتساب الى الحزب باغرائهم بوظائف الدولة الكبرى والمناصب الرفيعة .
١٢ - مقاومة اعضاء بعض الاحزاب التقدمية وتعقبهم وتشتيتهم في التعاونيات والنقابات الرسمية
١٣ - اضطهاد ابناء الجنود الابرار وزجهم في السجون وتعذيبهم والتنكيل بهم لمجرد عدم تأييدهم الوضع الراهن
١٤ - تركيز بذور الفتنة والتفرقة بين ابناء الوطن الواحد واثارة النعرات الطائفية والاقليمية لتفكيك عرى الأمة ذاتها
١٥ - مساعدة الاقطاعيين والرأسماليين وتشجيعهم على الاحتكار ورفع الاسعار
١٦ - حماية كبار الصناعيين بحجة على حساب المستهلك الفقير بحجة تشجيع الصناعة وان رحلوا بتجارتهم خارج البلاد
١٧ - اضطهاد الفلاحين واجبارهم على القيام بأعمال السخرة وجلدهم وتعذيبهم في الثكنات والمخافر بالسياط
١٨ - اقامة نظام بوليسي جائر يزرع الرعب والخوف في نفوس السكان الآمنين المطمئنين
١٩ - حمل المواطنين في مراكز الشرطة المختلفة وخاصة في قسم المركز الرئيسي
٢٠ - تزييف الانتخابات والاستفتاءات واجراؤها جبراً بمختلف الاشكال والأساليب لارغامهم
٢١ - التغاضي عن اساءات وجرائم بعض الأشخاص من المقربين وترك المجال للاستغلال لهم على غاربه
٢٢ - اقامة الحفلات وتنظيم المواكب وتعطيل السير ومصالح الناس عند سيرها بشكل يمس الأذواق .
٢٣ - تسخير جهود الحكومة وامكانيات الدولة لتنشيط اعمال "حركة التحرير" التي هي حركة حزبية موقوتة على بقاء الزعيم
٢٤ - تسخير الأمة بكامل مؤسساتها وامكانياتها لخدمة الجيش في حين ان الجيش جعل لخدمة الأمة والوطن .
٢٥ - اضعاف الجيش ذاته وتشتيت عناصره القوية الفعالة وشل فعاليتهم باسناد وظائف رئيسية لغير اهلها
٢٦ - ضعف التشريع (للتمثيل راجع قانون العقوبات ...) واسفافه وتدنيه الى درجة تشبه الشقاقات الحزبية .
٢٧ - دوران الحكم الحالي في فلك نفوذ الجبهة الانكلو امريكية التي هي عدوة العرب الأولى .
٢٨ - ابرام اتفاقية التابلاين وانفاذها بشكل يتعارض مع مصالح الوطن .
٢٩ - الموافقة على توطين اللاجئين الفلسطينيين العرب في سورية بصورة مخالفة لارادتهم وارادة الشعب العربي بكامله .
٣٠ - التمهيد لعقد الصلح مع اسرائيل في الوقت الذي أجمع فيه العرب على دوام مناهضة هذه الدولة المصطنعة والاستعمار ومحاربتهما ، وذلك بالرغم من التشدق الفارغ بالاقوال التي تناقضها الأفعال .

وكذلك الثاني فانه عمل مع أخي فترة من الزمن في الشعبة الثالثة وبقي يتردد عليه بعد تركه لها لكي
ولم يكن من الممكن مزيد من عدد التنظيم لمراقبة الظروف وتراخي الرئيس عبد الغني قنوت في ذلك ذلك
الزمان الذي كان يحصل خلاله أخي ... وهي مرتبة في بعضهم وتكاد في تفسير حقيقة رغبته ونواياه.
وكان الجميع يبدون خلال تلك الزيارات حول كيفية معالجة الوضعية السياسية والعسكرية، فمن جهة
الموقف السياسي اتجهت النية بعد دراسة الأمر نحو تشكيل حكومة مدنية مؤقتة يختار أعضاؤها من
بين العناصر التقدمية من كافة الأحزاب لتقوم بالإشراف على إجراء انتخابات نيابية حرة حسب أحكام الدستور
الذي أقرته الجمعية التأسيسية. أما الموقف العسكري فلم يستقر الرأي تماماً على كيفية معالجته فكانت رغبة الضباط
قوية في تنحية العقداء لأنهم بنظرهم مسؤولون عما آل إليه العهد الانفصالي في سياسته ولموقفهم منه موقفاً فيه
كل التخاذل، أما عدنان فانه لم يكن يرى رأيهم ولم يظهر شيئاً من التحفظ في رأيه ببعض العقداء وكان يلح على
ضرورة إبعاد ... لاستلام رئاسة الأركان، وعلى كل حال كان من رأيه أن تجري الحركة بزعامة أخي
حافظ ... يختاره أعوانه الضباط وكانوا كلهم مجمعين على أن ... لوجود الضمانات الكافية فيه
من حيث ثقافته وذكائه وشخصيته وأخلاقه ... بعد ... في رأس ... ، واحتمل بسبب
... القادة والعقداء ان تنشل الحركة ... بعد ... على علم ... ، وزج بالمعتقلين في ...
... في السجون ... وأكثرهم ... ، كما حصل في ...
السجن ... معاملة الأشخاص والمجرمين، ويتحملوا شتى أنواع التنكيل والعذاب ... على أحد ... 
استجواب من قبل هيئة تحقيق عسكرية ... إسمي وجسمي لما حدث ... 
الملازم الأول ... بالضرب والركل على ... جسمي دون أن ... 
عشرات الجلدات القاسية التي ما زالت آثارها ... على جسمي ... من ... 
... تلك الدماء التي ... العقاب ... 
الى ... ومواسيه ...
لم يكن الدافع الى التفكير بتلك المغامرة ... الأوضاع ... وحصول تلك النكسة في أذهانهم،
انقاذ وطنهم من محنة لم ... التاريخ ... على ... فكرة ... الى ...
... الذل والهوان ... عسكرياً استبدادياً ... 
الحكم الدستوري الذي كان قائماً في البلاد ... 
... الى ... 
... ان ... 
... الواجب ... 
... التاريخ
التي ... 
... 

... 
... 

هو ... الأحد
... في ٢٨ ... كانون الأول
عام ١٩٦١ على ... 
السجين الملازم الأول ... 
الى ... 

... ١٩٥٢ - ٩ - ١٠
... 
عضو مجلس نقابة ... 



ضبط رقم ١٦٧ /      ٦٥

افتتحنا بتاريخ ٨/٦/٩٥٢ في مستشفى المزة العسكري حيث كان المدعى عليه رياض المالكي الموقوف قيد التداوي وباشرنا باستجوابه كما يلي

اسمي رياض بن محسن الدين المالكي من أهالي دمشق عمري ٢٠ سنة محامي غير محكوم سابقاً أعزب متعلم سوري

استناداً للأحكام البند الثالث من المادة ٦٩ من أصول المحاكمات الجزائية أجرينا استجواب المدعى عليه بدون محاميه -

س: ينسب إليك جرم محاولة اغتصاب سلطة عسكرية والمؤامرة على ارتكاب أعمال إرهابية وانتقاد أعمال القيادة فما هو جوابك على ذلك ؟

ج: انني في حالة توقيف غير مشروع تخولني ملء الحق وفقاً لأحكام الدستور والقانون بأن أرفض الاجابة عن أي سؤال يوجه إلي من أية جهة أو سلطة كانت .

طلبت عليه إفادته فكررها أمامنا بتوقيعه

٨/٦/٩٥٢

المدعى عليه      قاضي التحقيق

رفض المدعى عليه التوقيع على إفادته

قاضي التحقيق

الملحق رقم (٦)

الى الأصالة العربية ..
الأستاذ رياض المالكي ..
من سليمان ..

كنتَ في عينيَّ ومضاً ثائراً
منذ أيام، ونبضاً في دمي
جبهةُ النسر .. ومرتْ غيمةٌ
فوقها تحمل كِبْرَ الألم
وتلقيتك نبعاً صافياً
في متاهات الطريق المظلم
نحنُ أحلامُ الذرى في أمتي
فليغطِ الشوكُ دربَ القمم
يا أبا عدنان .. ما ضرَّ الضحى
بالغيوم السود إنْ يلتثم
عودتْنَا فكرةٌ عشنا لها
صيحةَ الجرح على الجرح الظمي
جبهةُ النسرِ .. على لألائها
ألفُ سهمٍ صاغرٍ متحطم

سليمان ٢٠/٩/١٩٥٩

# الفهرس

رقم الصحيفة



**الملاحـق :**

ت.م.ر. رقم ٤٤١٠
تاريخ ١٩٧٢/٧/١٢

ذكريات على درب الكفاح والهزيمة

رياض المالكي